دعوة للحوار والمساهمة البنّاءة

يصدر هذا العدد في ظرف خاص يمر به الاتحاد في مفتتح هذه السنة الثقافية الجديدة ويحمل طموحا لإنجاز الأهداف التي رسمها المؤتمر الأخير وترجمتها الهيئة الجديدة في برنامج عملي كنا أشرنا إلى أهم عناصره في العدد 50-51.

ولعل شعار «تأهيل الاتحاد» وتطوير أدائه يعبر أبلغ تعبير عن إرادة مواكبة التحولات وسد الثغرات ليبقى الاتحاد في طليعة الجمعيات الثقافية المؤمنة بقيم الحرية والإبداع والمجتمع المدني، في ظل ما تشهده بلادنا من تحولات إيجابية وهي تحتفل بذكرى التغيير وتتطلع إلى الأفضل.

هذه دعوة مفتوحة للحوار المسؤول والنقد النزيه والمساهمة بالنصوص الجديدة قصد التعبير عن ثراء الساحة الأدبية التونسية وهواجس مبدعينا ومشاغلهم والتعريف بإصداراتهم الجديدة.

وفي إطار هذه المسؤولية، يطرح البعض من داخل الاتحاد وخارجه عدة أسئلة حول «مجلة المسار» منها ما هو مشروع يتطلب النقاش المتزن والتوضيح، ومنها ما يحسب على رغبة مجانية في الجدل والتشكيك عند بعض النفوس وبعض الجرائد التي ندرك خلفية أصحابها. إن الرأي العام الثقافي له القدرة على التمييز بين النقد الإيجابي وبين الجلوس على الربوة للهدم وإحباط العزائم.

هناك أولا حقائق من واجبنا التذكير بها وعلى أساسها يمكن التقويم والتطوير المطلوب.

لقد ولدت هذه المجلة في ظرف عسير لتحقق حلما راود الكتاب الأعضاء لمدة عشرين سنة، ثم أثبتت وجودها وتميزها مواكبة لتطور الحركة الإبداعية والفكرية وطنيا وعربيا بمختلف أجيالها وتعبيراتها، حملت على عاتقها حوار الأجيال وذاكرة الأدب التونسي وأعلامه وكانت على الدوام فضاءا مفتوحا لأسئلة النقد والمعرفة ونافذة للأقلام العربية والأدب العالمي. فكما كسبت رهان التواصل والثبات رغم إمكانيات الاتحاد المتواضعة وقلة الموارد واعتمادها على التضحية والتطوع، ها هي مجلة الاتحاد تحقق نقلة نوعية على مستوى الشكل والمضمون وتطمح لتحقيق الشروط الموضوعية والعقلانية لتكون المنبر المشع وطنيا وعربيا لأسئلة الإبداع والنقد والفكر.

إن إرادتنا راسخة في أن نحافظ على هذا المكسب ونعمل على مزيد تطويره ونأمل أن تكون كذلك إرادة كل من له غيرة على المكاسب ومسؤولية فكرية تؤمن بالحوار والتنوع كقيم حضارية. فبقدر ما نعتز بالمكانة التي احتلتها مجلة الاتحاد في الداخل والخارج، بقدر ما نفتح صدورنا لكل نقد نزيه يهدف إلى تحقيق المقاييس المرجوة من جودة وإضافة وتنوع في إطار حرية الفكر والالتزام بقيم الحداثة ورسالة الاتحاد.

من البديهي أن نذكر أعضاء الاتحاد بأن المجلة هي مجلتهم، فآراؤهم ونصوصهم ومقترحاتهم ستجد الأولوية في اهتماماتنا، في إطار ما نحرص عليه جميعا من مستوى إبداعي وحوار فكري يساهم في إشعاع تونس الثقافي وتجذير مساهمتها النيرة في الثقافة الإنسانية.

هذه دعوة مفتوحة للحوار المسؤول والنقد النزيه والمساهمة بالنصوص الجديدة قصد التعبير عن ثراء الساحة الأدبية التونسية وهواجس مبدعينا ومشاغلهم والتعريف بإصداراتهم الجديدة.

هذه الأولوية الطبيعية والمشروعة لا تتناقض مع ما نريده لمجلتنا من تفتح على الكتابات العربية والأدب العالمي وإثراء المادة بأركان تهتم بالحوار الفكري أو بالذاكرة الثقافية أو بحوار الفنون كقيمة مضافة تثري الجدل وتخصب الفكر الحي بالتنوع والاختلاف.

إن ما توفر اليوم من ظروف مادية مشجعة بفضل الإشهار والتحكم في ملف الطباعة، ليجعلنا أكثر إيمانا وثقة في المستقبل. وفاء لرسالة الاتحاد في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخه. سنحمل هذه الأمانة بروح التضحية والعمل الجماعي ولن تثنينا أقلام الإحباط عن مواصلة الجهد وتحمل المسؤولية.

المســـــار

الصهيونية حركة عنصرية

بمشاركة :

فرج الحوار

سيرج سيون

حياة عطية

سميح شبيب

ابراهيم ناجي علّوش

حسن الباش

ندرة اليازجي

الصهيونية ... العنصرية والإرهاب

عثمان بن طالب *

عندما قررنا نشر هذا الملف حول الطبيعة العنصرية للصهيونية باعتبارها حركة دينية سياسية تأسست على الفكر التوراتي الغيبي وتجسدت في دولة استعمارية تستمد وجودها من الإرهاب والهيمنة، لم يكن بعد زلزال نيويورك وواشنطن قد فتح أعين العالم على حقيقة الوجه الجديد للعولمة الأمريكية وردّة الفعل المنتظرة على مقولات فوكوياما حول «نهاية التاريخ» وتوحّد الكون حول النموذج الذي سوقته الولايات المتحدة للبشرية.

وإذا كانت العلاقة جلية بين تفجيرات رموز القوة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية من ناحية وطبيعة السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ومع العرب والمسلمين عموما من ناحية أخرى، فإن هذه السياسة تحدّدها وتغذيها الصهيونية العالمية وتجعل من دولة اسرائيل الأداة العنصرية لفرضها بالقوة النووية والإرهاب المنظم على الحكام العرب وشعوبهم.

هذا العالم الغربي يستفيق اليوم مذعورا على مشهد الإرهاب وضحاياه، وكأنه يكتشفه لأول مرّة. وفجأة يتغير المشهد الإعلامي والسياسي تحت وطأة الأحداث المتسارعة وتنشأ مصطلحات جديدة مثل «الحرب الصليبية» الجديدة و«حرب بن لادن» و«الخطر الإسلامي» و«العدل اللامحدود» وإلى ذلك من حقول دلالية تصب كلها في منطق واحد : «العالم الحرّ» هو ضحية «العالم المتوحش» والحرب الانتقامية أصبحت مشروعة بكل الوسائل لسحق هذه «الثعابين الصغيرة» بعد أن تفكك الخطر الأحمر ودُمّر العراق ودُجّنت الشعوب وركبت قطار العولمة.

من يقود القطار وإلى أين وكيف ؟ وهل يتوقف في كل المحطات ؟

انتهى القرن الماضي على حرب بوش الأب واستقرار القوات الأمريكية في الخليج. وها هي الألفية الجديدة، تبدأ على حملة عسكرية جند لها بوش الابن كل إمكاناته البرية والبحرية والجوية مع حلفائه من عرب وغرب وكل وسائله الاقتصادية والمخابراتية والإعلامية. من هو المستهدف من هذه الحملة الشاملة ...؟ العدو المعلن هو الإرهاب، ورقعة العمليات هي افغانستان ... ولكن كل المؤشرات وأغلب التحاليل تُجمع على عدّة أمور من أهمّها الأسئلة التي تتضمن إجاباتها :

- لماذا لم تتحرّك أمريكا وحلفاؤها لتوقف الإرهاب العنصري وحرب الإبادة وسياسة العزل والتجويع التي تمارسها إسرائيل على الشعب الفلسطيني الأعزل ؟ ومن هو المستفيد الحقيقي من هذه الحرب الجديدة إذا لم تكن الصهيونية نفسها التي أجمع الرأي العام الدولي على إدانتها ؟

- إن الإرهاب الذي ضرب أمريكا في الصميم هو صنيعة الكيان الصهيوني المتغلغل في القرار الأمريكي، وهو لا يختلف في جوهره عن الإرهاب الإسرائيلي لأنه يلتقي معه في نفس الأهداف المتمثلة أساسا في تمزيق الجسد العربي الإسلامي وتغييبه عن نسق التحولات العقلانية الديمقراطية ليبقى على هامش التاريخ.

- لماذا لم يستفد العرب من درس حرب الخليج الثانية،

* جامعي تونسي

وتسابقوا لفتح قواعدهم وتقديم مساعدتهم للحملة الأمريكية، وهم يعلمون أن الإرهاب الأصولي الذي عانت منه مجتمعاتهم هو نتيجة للسياسة الأمريكية وحليفتها إسرائيل مع قضايا العرب ؟ هل حصلوا على شيء مقابل تدمير العراق وحصاره المتواصل إلى اليوم وانتصاب القوات والقواعد والترسانة الأمريكية في الخليج ؟ كأنه التاريخ يعيد نفسه في فصل جديد يدخل ضمن مخطط مدروس في المخابر الاستراتيجية السرية لدولة العالم.

وكأن «حرب بن لادن» سيقع حسمها براجمات الصواريخ والاغتيالات والانتقام العشوائي من شعوب لا حول لها ولا قوة مع الخلط المقصود بين الإرهاب وبين العرب والمسلمين، بين قتل الأبرياء والإسلام ... هذه ثقافة العولمة بأبعادها الاقتصادية والمعلوماتية والسياسية تقود العالم إلى مأزق جديد وحرب جديدة يموّلها العرب بنفطهم وأرصدتهم وأرضهم أملا في السلام الأمريكي الذي يلوّح لهم بالتسوية المنتظرة لقضية فلسطين ويسلّح في نفس الوقت دولة إسرائيل لإخضاع الشعوب العربية بقوة الإرهاب.

ـ أما السؤال الثالث والأخطر، فهو يتعلق بالإرهاب نفسه.

إن قتل المواطنين الأبرياء لتحقيق أغراض سياسية لا يمكن أن يبرّره أي منطق عقلاني أو أخلاقي ... سواء كان ذلك في نيويورك أو في الجزائر أو في فلسطين أو أي رقعة من العالم ... الإرهاب هو حرب الظلام بآليات الفوضى والعنف والتطرف، مهما كانت مرجعياته وأهدافه ... ولكن الجميع يعرف أن الولايات المتحدة مارست هذه السياسة لفرض نفوذها في عديد البلدان من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وأطلقت أيدي الصهيونية في إسرائيل لقمع الشعب الفلسطيني الذي أتّهم بالإرهاب وهو يدافع عن حقوقه ووجوده.

وإذا استفاق العالم الغربي اليوم على هذه الحقيقة وتجنّد لمقاومة الإرهاب بالوسائل المؤسساتية الحضارية فنحن نبارك ونساند من أجل المدنية والحرية ومنظومة حقوق الإنسان ... ولكن هذا الهدف لن يتحقق إلا إذا تأنسنت العولمة واعترفت بحقوق الشعوب الضعيفة في الحياة والاندماج في حركة التاريخ ... إلا إذا عولجت أسباب الإرهاب من عنصرية واستغلال فاحش واستلاب وتدمير لمقومات الحرية والكرامة لعديد الشعوب ... إلا إذا راجعت الثقافة الأمريكية آليات تفكيرها وتحاليلها حول مظالم هذا العصر، وفي مقدمة هذه المظالم قضية العرب الأولى : فلسطين. بمعنى آخر هل سينفذ العرب إلى العقل الأمريكي والغربي بمنطق الإرادة الفاعلة التي تحفظ وجودهم ومصالحهم ؟ وهو المنطق الوحيد الذي تفهمه الصهيونية العنصرية وهي تجر العالم إلى أسوأ احتمالاته وتحاول توظيف الإرهاب الأصولي كما وظفت في السابق ولا تزال جرائم النازية ضد اليهود ...

إن صراع الحضارات لن يحسم بالتحالفات العسكرية والأمنية والتشويه الإعلامي لثقافات الشعوب، بل بمراجعة جذرية للنظام العالمي الجديد على أساس الحوار وثقافة السلم والاندماج الاقتصادي الذي يضمن الحق في التنمية والسيادة لكل الشعوب. أين مقولات «التنوع الخلّاق» و «الالتقاء الشامل» و «الانفتاح الكوني» من معضلات هذا العصر من فقر متنام وانحياز غريب لدولة إسرائيل الإرهابيـــة ؟

هذه أسئلة مشروعة للعقلانية الغربية المنتصرة التي تقود العالم. أما أسئلتنا نحن العرب، فتبقى مفتوحة على دائرة الاحتمالات المشروطة بقدرتنا على صياغتها بوعي استراتيجي يراهن على قيم التضامن والحرية والمناعة الذاتية والمصير المشترك. .

طبيعة الصراع العربي الصهيوني

سيرج سيون *

لا يمكن فهم حل الصراع العربي ـ الفلسطيني إلا بالتذكير بمعطيات أساسية، لأن أي حل لهذه المشكلة لا يمكن أن يوجد خارج المساحة التي شهدت «صناعة المشكلة».

فإذا ما عدنا إلى عام 1917، تاريخ وعد بلفور، لوجدنا في فلسطين شعبا عربيًا من المسلمين والمسيحيين، وبعض اليهود المحليين، إضافة إلى بعض اليهود القادمين من روسيا. مع أموال المصرفيين اليهود في أوروبا الغربية.

وبما أن هؤلاء السكان العرب كانوا يخضعون للحكم العثماني الذي ترك الحبل على الغارب للإقطاعيين، شرط احترام بعض القواعد البسيطة ودفع الضرائب، وبالرغم من أن هؤلاء الفلسطينيين لم يكونوا قد أدركوا بعد القومية الحديثة، فانهم كانوا يعيشون واقعيًا في وضع حكم ذاتي له كوادره، وتبادلاته الاقتصادية. دون أن يطرح وجود اليهود المحليين أية مشكلة، وعندما بدأ وصول اليهود الروس والبولونيين، الحاملين للحلم الصهيوني بدأ الأمر من الغرابة بمكان.

لكن كل شيء قد تغير مع نهايات الحرب العالمية الأولى ومجيء الإنكليز، بعد اقتسامهم المنطقة مع الجهات الاستعمارية الأخرى التي ورثت الإمبراطورية العثمانية.

ومن 1917-1948، مرت ثلاثون سنة من السيطرة، من الرعب، من تصاعد نظام مصادرة الأراضي وطرد السكان الفلسطينيين لصالح بعض عصابات المغتصبين القتلة، ومن أفواج القادمين المتوزعين بين الساذج والطامع والحاقد، من بولونيا من صربيا من رومانيا، من روسيا وليتوانيا، باختصار يهود متعطّشون للمال، وللأرض، للامتيازات المختلفة يميتون في البلاد معتمدين على أن يصفوا موضع التنفيذ، ما يشكل أساس كل استعمار استيطاني : نقل الثروات المحلية من يد العرب الفلسطينيين إلى يد اليهود، تحت أنظار الإنكليز المتآمرين.

وإذا ما أراد الفرنسيون أن يقيموا مقارنة توضح الوضع، فعليهم أن يتخيلوا أن ألمانيا النازية، وبعد أن فرضت قوتها العسكرية على فرنسا، قامت باستقدام عدة ملايين من الألمان، والبولونيين، الروس، وأهل البلطيق، وجعلتهم يشترون الأرض، يستوطنون القرى، يفتحون المدارس والمصارف والمؤسسات، وينظمون النقابات التي تقتصر عضويتها على مواطني الرايخ الثالث، ومن ثم انشأوا ميليشيات اتنية.

في عام 1948، قامت جمعية أمم تسمى «الأمم المتحدة»، بإعطاء نفسها حقًا لا تمتلكه، وهو حق إعلان دولة يهودية في فلسطين.

من الواضح، وبناء على تقدم، أن اليهود لا يملكون الحق في أي شبر من أرض فلسطين تمامًا كما أنهم لا يملكون هذا الحق في مدغشقر أو أبيدجان.

والحق الذي أعنيه هو ذاك الذي يعيشه الناس، ذاك الذي يسكن أرواح وأجساد سكّان هذا البلد، أمّا الحق الآخر، ذاك الذي تمنحه لنفسها المؤسسات الدولية، فهو قابل دائما للتفعيل

* باحث في المركز القومي الفرنسي للبحوث (C.N.R.S.).

وإعادة التفصيل في كل الاتجاهات : وقد لا يكون ذا قيمة كبيرة. خاصة وأن إسرائيل قد برهنت لنا على إمكانية الاستخفاف بكل قرارات الأمم المتحدة، بل ومسحها دون نتائج مؤذية أو عقاب رادع. إن اسرائيل دولة أمر واقع، تفرضها القوة فقط، حيث أنه حتى قرار الأمم المتحدة لعام 1947، قد أصبح لاغيًا، كونه يؤكّد على إنشاء دولتين في فلسطين. فأين هي الدولة الثانية ؟

القانون الدولي إذن شيء من باب الخيال، نستعمله تبعًا للظروف! لكن إذا كان هذا أمرًا معروفًا فإن حق الرجال والنساء في الحياة الكريمة هو أمر غير قابل للتحوير أو التأويل. ولا يجوز لأحد أن ينتزعه منهم، كما لا يجوز له انتزاع حياتهم. إن فلسطين للفلسطينيين، ولا يمكن أن تصبح ملكًا للإيرانيين أو البولونيين، أو الروس الذين هاجروا إليها ونظموا أنفسهم لسرقة أرضها، شجرها، مائها، طرقاتها وبيوت ناسها.

ولا يمكن أن يحصل ذلك إلاّ إذا قتل هؤلاء أهلها جميعًا، وهذا ماأراده جابوتنسكي، شامير، بيغن وشارون، هؤلاء الذي يعيشون في كابوس إبادة اليهود، لا يحلمون إلا بهدف واحد! إبادة العرب كما فعلوا في صبرا وشاتيلا. فاليهود والهتلريون يتقاسمون الأفكار العرقية العنصرية ذاتها، أما التطبيق فمتوقف على الظروف. وهذا ما يحدد موقف الإسرائيليين من أرييل شارون القاتل الجماعي، لأنهم يثقون بأنه أهل لذلك.

لقد قامت سيطرة اليهود في فلسطين على القوة وحدها، وكي نكون أكثر دقة نوضح أن المقصود هو استعمال القوة، لا التهديد بالقوة : قوة المذابح، قوة الاعتقالات، قوة التعذيب، القتل والاغتيالات... هذا عدا الابعاد الفردي والجماعي. من كل ما تحفل به سجلات المنظمات الإنسانية. ذاك أن ما يحرك الجندي الإسرائيلي إنما هو حس عرقي حقيقي يؤدي إلى سادية خاصة ومريضة، يقيمها الضباط والقادة ويشجعون عليها. بل إن العرقية والتعذيب مؤسسات في هذا البلد الذي يحبه اشتراكيون كثيرًا.

لقد تحركت الصحافة لدينا، أمام منظر طفل فلسطيني يقتل مباشرة أمام شاشة التلفزيون، خلال الحرب الأخيرة.. لكن قتل النساء والأطفال هو «تخصص قديم» لهؤلاء «المناضلين اليهود» يبرعون فيه منذ دير ياسين وعام 1948، ما يجعلهم يستحقون بلا شك المرتبة الأولى في كتاب الأرقام القياسية (Guinness book of Mecozds).

ليست فلسطين أبدًا إسبانيا الفرانكوية، حيث يستند النظام إلى ديكتاتوريته بعد حرب طويلة قاسية، ويسود النظام في الشوارع.

فحرب الـ 48، لم تنشر النظام في فلسطين، بل طردت أكثر من نصف السكان، وظل النصف الآخر يعيش تحت رحمة العسكريين اليهود الذين يتحرقون لأن يتبنوا أن يهود الفيتوهات كانوا «أشبه بدجاجة مبلولة» أما هم فالرجال الأشدّاء، القساة، وعليه ظلت الحرب مستمرة، وإن تراوحت بين صعود وهبوط. ومرت بمراحل هجوم على الدول العربية المجاورة، واحتلال أراضيها.

وبما أن إنشاء جيش قوي مسيطر كان يحتاج إلى شبكة ابتزاز دولية، تضخ قدرات العالم، خاصة الغربي، في شرايين إسرائيل، فقد ترسخت صناعة الهولوكوست.

ربحت إسرائيل جميع حروبها من 1948-1982، لكنّ كل انتصار كان دليلاً جديدًا على بطلانها.

نبث ترسانة نووية ؟ أجل. وبعد ؟

فإذا كان الهدف الوحيد الذي يمكن أن تقابل إسرائيل لأجله هو ما تسميه «السلام» ويعني قبول دول المنطقة العربية بوجودها، خاصة الشعب الفلسطيني، فإن أيًا من هذه الحروب لم تقربها من هدفها. صحيح أن ثمة ترتيبات ما قد تمت بينها وبين بعض الدول الغربية خاصة تلك التي سبق وأن تعرضت لعدوانها واحتلالها، لكن ذلك لم يجعلها «مقبولة» أكثر.

ملامح من العنصرية الصهيونية من خلال "زلزال في تل أبيب"

فرج الحوار *

كانت الصهيونية ولا تزال مثار جدل فيما يخص علاقتها بالعنصريّة. ولا يتعلّق الأمر هنا بجدل أكاديمي، فالقضيّة، على هذا المستوى، محسومة بالنّظر إلى المرتكزات الدينيّة والفكريّة للإيديولوجيا الصّهيونيّة، وإنّما يتمثّل الجدل في التّأييد السّياسي المطلق الذي يحظى به الكيان الإسرائيليّ من قبل الولايات المتّحدة الأمريكيّة وأوربا الغربيّة، وفي استبسال هذه الجهات في درء تهمة العنصريّة عنه. وقد وفّقت في مساعيها إلى حدّ جعل الأمم المتحدّة تتراجع عام 1991 (بمعدّل 111 صوتا ضدّ 25 صوتا فقط) عن القرار الذي اتّخذته سنة 1975 باعتبار الصهيونيّة شكلا من أشكال العنصريّة.

وما من شكّ في أنّ للتّواطؤ الغربي مع الكيان الصهيوني أسبابه الموضوعيّة والذّاتية، ليس هنا مجال الخوض فيها. ولكن لا بدّ من أن نشير في هذا المقام إلى أنّ هذا التّواطؤ العمليّ والموضوعيّ يصدر عن نزعة متعالية، مدعومة بتفوّق اقتصادي وعسكري أكيد ومتنام، أجاز الغرب لنفسه بمقتضاها فرض شريعته بوصفها القانون الدّولي العادل الذي يجب أن يقبل به الجميع. وبمقتضى هذه الشّريعة تمّ التّفريط في فلسطين لشراذم اليهود المهاجرة من مختلف بقاع العالم ليقيموا عليها وطنهم القوميّ.

وقد ارتأينا أن تكون مساهمتنا في التطرّق إلى هذه المسألة الخطيرة في شكل قراءة لأثر أدبيّ تونسيّ، هو زلزال في تل أبيب، للشّاعر الميداني بن صالح، نقصرها على الجوانب المضمونيّة في علاقتها بطبيعة الحركة الصهيونية. واختيارنا هذا يصدر عن قناعة لدينا بالدّور الرّئيسي للخطاب الأدبيّ في تصوير المعاناة اليوميّة لضحايا الصّهيونيّة، وفي مقدّمتهم الفلسطينيّون، في ظلّ نظام يقوم على التّفرقة والاضطهاد والتّشريد والقتل، بعيدا عن لغة الأرقام الجافّة، والخطاب الديبلوماسي المتحذلق، والمواقف السياسيّة القائمة على النّفاق والرّياء والمحاباة، وقلب المفاهيم، وتزييف القيم. وثمّة سبب ثان لهذا الاختيار يتمثّل في أنّ معاينة الأثر المذكور لواقع الصّراع العربيّ الإسرائيليّ يكاد يكون مطابقا لواقع الحال رغم مرور حوالي ثلاثين عاما على صدوره، علما بأنّ زلزال في تل أبيب نُشر لأوّل مرّة سنة 1972، وصدرت منه طبعة ثانية عام 1981.

I - الصّهيونيّة كرديف طبيعيّ للعنصريّة

1 - الصّهيونيّة إفراز استعماريّ

ينطلق الشّاعر التونسيّ الميداني بن صالح من حقيقة بديهيّة تجعل للأرض مكانة مركزيّة في صلب الإيديولوجيا الصّهيونيّة، وهي التي قامت على مغالطة مفادها أنّ فلسطين

* أستاذ فرنسية بكلية اداب سوسة

أرض بلا شعب فمن الحقّ أن تؤول إلى شعب بلا أرض. لذلك جعل الشّاعر من الأرض عماد مسرحيّته الشّعريّة زلزال في تل أبيب، منها يستمدّ الأثر نفسه الملحميّ.

فالملحمة عند الميداني بن صالح، كما هو الأمر في نشيد رولان (La Chanson de Roland) على سبيل المثال، لا يمكن أن تنشأ إلاّ في إطار الشّعور بالانتماء القوميّ وبوحدة المصير. وفي هذا السّياق تكتسب الأرض، إلى جانب بعدها الماديّ الجغرافيّ، أبعادا رمزيّة تتحوّل بمقتضاها إلى تجسيد للهويّة والتّراث والتّاريخ، كما يتجلّى ذلك في قول الشّاعر[1] :

إن التراب رسالة الأجيال
وأمانة الأجداد يا أبطال
فالأرض حقل، زرعه الآمال
أو تقبلون خيانة الأجيال ؟؟؟
أو تقبلون تقطع الأوصال ؟؟؟

وعليه، يقرر مؤلف زلزال في تل أبيب أن الحل الأمثل للصراع العربي الإسرائيلي يكمن في الثورة المسلحة التي تتولاها وترعاها دولة الوحدة القومية المرتقبة، تلك التي ستضع حدا لواقع الانقسام والتفرقة. ففي إشارة إلى قرار التقسيم الصّادر عن الأمم المتحدّة وإلى واقع الإنقسام في الوطن العربيّ يقول ردّا عن السّؤال المزدوج التّالي : ما قولكم في فكرة التّقسيم والحدود[2] ؟ :

خيانة لشعبنا العظيم
بل دعوة أهدافها التّهويد
والتّشتيت والتّحطيم
نعم أخي
أهدافها التّهويد والتّذويب
والتّخدير والتّسميم
الأرض لن تحدّها الأسلاك
والخطوط والأنصاب
الأرض إنسان وتاريخ
وجود من سنا التّراب[3]

وقد انبنت فكرة حتميّة الكفاح المسلّح عند الميداني بن صالح على معرفة جيّدة بالطّبيعة الاستعماريّة والاستيطانيّة للمدّ الصّهيوني، وعلى الإيمان الرّاسخ بالقانون الأزليّ الذّي يقرّر، على حدّ قوله، بأنّ [4] :

الأرض لن تعاد بالمرونة
واللّغو واللّيونة
والخطب الصّاخبة المشحونة
وفلسفات كمشة خائنة
مجرمة، ملعونة، مرهونة

وهذا القانون لديه يندرج في ما يعتبره حتميّة التّاريخ، والصّراع، والكفاح[5]. ويعلّل الشّاعر هذه القناعة بانعدام أسباب العدالة في عالم يكرّس التّسلط والقهر كقيم مؤسّساتيّة تتحدّد وفقها مواقفه. فلا عجب إذن أن يقف هذا العالم إلى جانب من ينعتهم الشّاعر بـ كتائب صهيون[6]، والصّهاينة الغاصبين[7]، واللّفيف الهمجيّ الأجنبي[8]،

1 ـ الميداني بن صالح، زلزال في تل أبيب، الدار التونسية للنشر، الطبعة الثانية، 1981، ص 118.
2 ـ ن.م، ص 116.
3 ـ نفسه
4 ـ ن. م، ص 119.
5 ـ ن. م، ص 86.
6 ـ ن. م، ص 60.
7 ـ ن. م، ص 61.
8 ـ ن. م، ص 27.

واللّصوص المجرمين الغرباء[9]، ويضفي كامل الشّرعيّة على احتلالهم لأرض غير أرضهم، واستيلائهم عليها بالكامل بعد أن أجلوا عنها أصحابها الشّرعيين.

من الطّبيعي إذن أن ينتج عن هذا الخلل القيميّ الفادح واقع متدهور يبلغ فيه التّحلل القانونيّ والأخلاقيّ مداه الأقصى. ولعلّ التّجسيد الأمثل لواقع الانحطاط هذا يكمن تحديدا في إطلاق يد الصّهيونيّة لتعبث بمصير شعب بأكمله وبتاريخه وتراثه.

عن هذا الواقع المتردّي يقول الميداني بن صالح[10] :

مأساتنا العميقة

قد كشفت لشعبنا الحقيقة (...)

في عالم ينهار

يحكمه الكبار

يحرسه الكبار

ومجلس... !

للبيع والشّراء

والتّقسيم والكراء والقمار

يا لعنة الأقدار... ؟؟

2 ـ ملامح العنصريّة في الإيديولوجيا الصّهيونية :

والشّاعر يطابق بشكل قاطع بين الصهيونيّة والعنصريّة، موحيا بذلك أنّ التّلازم بينهما يعود أساسا إلى كونهما يقومان على مقولة النّقاء العرقيّ، وعلى المبدإ القائل بضرورة إقصاء الغير وتغييبه، بل وإبادته إذا لزم الأمر. وعن هذا المبدإ الأخير نتج مبدأ ثان يجوز بمقتضاه الاستهتار بحقوق الآخر. وفي مقدّمتها حقّه في العيش على أرض وطنه.

وقد اتّبع الشّاعر في الكشف عن الطّبيعة العنصريّة للصهيونيّة طريقة التدرّج، فبدأ برسم صورة عامّة لهذه الإيديولوجيا، صيغت في شكل تعريف، ركّز فيه على النّسيج الشّاذ للتجمّع الصّهيوني ممّا يجعله أقرب إلى التّنظيم الإجرامي منه إلى النّظام الإجتماعي. ويتّضح ذلك في قوله[11] :

الصّهيونيّة أحقاد

سوداء لها الغزو شعار

وجموع لصوص ماكرة

لفظتها شتّى الأقطار

قطعان وحوش غادرة

سلبتنا المسجد والدّار

وفي مرحلة ثانية يصرّح الشّاعر بالطّبيعة العنصريّة للصهيونيّة في شكل حكم قاطع يساوي فيه بينها وبين ظاهرتي الاستعمار والإرهاب كظاهرتين مكمّلتين لها، فيؤكد هذه المعادلة مرّة أولى إذ يعلن أنّ الصّهاينة هم [12] :

جيوش الغدر، والمكر،

دعاة العنصريّة

ويلحّ عليها ثانية، مع الذّهاب بها إلى مداها الأبعد، في قوله [13] :

ازرع الألغام كي نَهدم ما شيّده الإرهاب والغدرُ

وما حاكتهُ أحقادُ بني صهيون، أعداءُ بلادي

ووحوش العنصريّة

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ العلاقة المزجيّة التي أقامها الشّاعر بين بني صهيون والوحوش هي صورة بلاغيّة لا تكمن

9 ـ ن. م، ص 67.
10 ـ ن. م، ص 75.
11 ـ ن. م، ص 109.
12 ـ ن. م، ص 123.
13ـ ن. م، ص 68.

غايتها في نفي الإنتماء الإنسانيّ عن الصّهاينة وإلحاقهم بدنيا الحيوان فحسب، وإنّما الهدف منها هو التّشنيع، بصفته تفرّدا في السّلبيّة، بحيث تصبح الصّهيونيّة التّجسيد الأمثل والأبشع للعنصريّة، على الإطلاق.

ويؤكّد الشّاعر هذا الحُكم في موضع آخر من مسرحيّته الشّعريّة ليبيّن الطّبيعيّة الإجراميّة للعنصريّة بشكل عامّ، وللعنصريّة الصّهيونيّة بشكل خاصّ، فيقول[14] :

اقرأ لنا يا فاتك الحبيب

وصيّة الشّعب الذي يواجه الإرهاب والتّعذيب

وسطولصّ حاقد، وعنصريّ مجرم

مغامر غريبْ

ولكنّ ذروة التّنديد بالطّبيعة الوحشيّة واللاّإنسانيّة للعنصريّة الصّهيونيّة تكمن، من دون أدنى شكّ، في المطابقة بينها وبين النّازيّة، وذلك في قول الشّاعر[15] :

جماعة من أشجع الأبطال... (...)

قد جرّبوا القتال ...

والنّفي والسّجون، والعذاب ...

على يد الصّهاينة

وفرق نازيّة جلاّدة... مشبوهة ...

دون ضمير خائنة ...

ولا جدال في أنّ لهذه المطابقة أبعادا إيديولوجيّة بديهيّة، لعلّ أبرزها وأهمّها على الإطلاق تجريد الصّهيونيّة من دور الضحيّة الذّي لم تزل تتذرّع به لتبرير جرائمها البشعة وهمجيّتها المقيتة. وغاية الشّاعر هنا تتمثّل تحديدا في فضح الابتزاز الذّي تمارسه الإيديولوجيا الصّهيونيّة لتستأثر بدور الضحيّة بصفته امتيازا أبديّا لها لا يجوز أن يتمتّع به غيرها. وهو امتياز من شأنه أن يجعلها فوق جميع الأعراف والقوانين، وأن يجعل من جرائمها الكثيرة والمتكرّرة مجرّد إجراءات أمنيّة ودفاعيّة ضروريّة ضدّ ما تنعته بالعنف والإرهاب. وهو نفس العذر الذي يعتمده الكيان الصّهيونيّ اليومي ليبرّر اغتياله للمناضلين الفلسطينيين.

II ـ الصّهيونيّة كرديف للإجرام

1 ـ الفرضيّة المركزيّة

إنّ هذه المطابقة بين الصّهيونيّة والنازيّة، على أهميّتها، لا تمثّل إلاّ الجانب السّطحي في استراتيجية التّعرية التّي اعتمدها الميداني بن صالح للظّاهرة الصّهيونيّة، وذلك لأنّ المرحلة الحاسمة في هذا التمشّي تكمن في الكشف عن الجرائم الصّهيونيّة والتّأكيد على بشاعتها. وقد احتلّ هذا الغرض الحيّز الأكبر من النصّ، وجاء موزّعا في فصوله الثّلاثة وفق منطق حجاجيّ صريح لجأت إليه الشخصيّات للتّدليل على حتميّة اللّجوء إلى الكفاح المسلّح لمواجهة الخطر الصّهيونيّ. فلا عجب إذن أن اتّخذ الخطاب شكلي البيان السّياسي والبلاغ العسكري الميدانيّ.

وينهض الخطاب هنا على فرضيّة مركزيّة مفادها .أنّ الصّهيونيّة، في ذاتها وبالنّظر إلى أهدافها الآنيّة والبعيدة، هي تكريس للجريمة والإجرام، باعتبار أنّها لا يمكن أن تضمن لنفسها الوجود والاستمرار إلاّ بإنكار وجود الآخر، واجتثاثه من جذوره، وحرمانه من حقّ الحياة عند اللّزوم بدعوى الأحقيّة والأفضليّة المستندة إلى شرعيّة عرقيّة ودينيّة، هي إلى الأساطير أقرب منها إلى الحقائق التّاريخيّة.

14. ن. م، ص 70.
15 ـ ن. م، ص 47.

2 ـ استعراض الجرائم الصّهيونيّة

لذلك ميّز الخطاب، في تناوله للجرائم الصّهيونيّة، بين الجريمة الأمّ وما نجم عنها من نتائج. ونعني بالجريمة الأمّ اغتصاب أرض الشّعب الفلسطينيّ، ومصادرة تاريخه، وتزييف ونسف مقوّمات ومعالم حضارته، والاعتداء بالتّدليس والهدم على مقدّساته، فقال في هذا المعنى[16] :

(...) فجّروا الدّيار
وشوّهوا الآثار
وخرّبوا القباب والأسوار
وهدموا البيوت والأحيا
وأبدلوا الأسما
وغيّروا هندسة البنا
وخرّبوا الكنائس
واختلسوا الآثار والنّفائس
وشوّهوا المساجد
وهدموا القباب والمشاهد

وقد كان لهذه الجريمة الكبرى نتائج ومضاعفات ركّز الشّاعر على البعض منها دون الآخر بالاستناد إلى أهمّيتها، فجعل من الصّهيونيّة أداة فساد وتخريب يطال شرّها الطّبيعة والإنسان على حدّ السّواء، فقال في هذا المعنى [17] :

قد سمّموا العيون والآبار
وأحرقوا الحقول والأشجار
وفرّقوا الإخوان والأجوار

وأضاف إلى هذه الجريمة جريمة دينيّة وفكريّة، مفادها أنّ أعوان الصّهيونيّة [18] :

(...) زيّفوا القرآن
والإنجيل
والأفكار

وقد خصّ الشّاعر جريمة تشريد الشّعب الفلسطينيّ، وإبعاده عن وطنه بالجانب الأكبر من اهتمامه، بوصفها التّعبير الأبرز عن الطّبيعة العنصريّة للصهيونيّة في مجافاتها لأبسط قواعد الحقّ والعدل وفي اعتمادها لمنطق قانون الغاب في التّعامل مع ضحاياها، فقال في هذا المعنى، مساويا بين المغتصبين وأولياء الأمور في البلاد العربيّة [19] :

تشريد شعب
شعبنا صار شريدا كلّه اليوم ...
فسُكناه خيام وكهوف وملاجي
كلّه اليوم شيوخ وصغار ونسا
يفرشون الأرض من غير غطا
ويعيشون على بعض فتات من عَطا
(...) والرّجال...
في سجون الطّغمة الأوثان أشباه الرّجال
(...) زرعوا الأرض فسادا، وسموما، وخصاما،
أغلقوا كلّ الحدود ...
بكلاب الصّيد، بالأسلاك، بالألغام، بالجند ...
ليرتاح اليهود ...

ويبرز التّعذيب والتّمثيل بجثث الضّحايا كدليل قاطع على وحشيّة وهمجيّة الصّهيونيّة. والنصّ يطنب في وصف هذه الظّاهرة، ملحّا على الجزئيات بطريقة مثيرة للقرف، فيقول على لسان المدعوّ كنعان [20] :

16ـ ن. م، ص 110.
17ـ نفسه.
18 ـ نفسه.
19 ـ ن. م، صص 39 - 40.
20 ـ ن. م، صص 27 - 28.

أصابعُ الأشبال من أبنائنا قد أصبحت مقطوعة
مبتورة
والبعض من أطفالنا ...
بطونهم مبقورة
وجثث الأحرار من ثوّارنا
قد شوّهت ...
وأصبحت مسحولة، مجرورة
وأحرقت ...
ومزّقت ...
في كلّ ساحات الملاجي أصبحت أشلاؤها منثورة

ويختتم الميداني بن صالح استعراضه لآثام الصّهيونيّة وكبائرها بالتّنصيص على أنّ العنصريّة فيها هي سياسة مكرّسة، نابعة عن طبيعة منحرفة، وليست انحرافا وقتيّا قابلا للإصلاح فالعنصريّة جزء لا يتجزّأ من الإيديولوجيا الصّهيونيّة القائمة على منطق انعزاليّ منغلق لا يقرّ بحقّ الوجود إلاّ لليهود، ويبيحُ إلحاق كلّ أنواع الأذى بجموع الأغيار، وخاصّة منهم من يقف حجر عثرة في سبيل تحقيق الهدف الأسمى للصّهيونيّة، ممثّلا في إسرائيل الكبرى. وفي هذا الإتّجاه يقول الميداني بن صالح [21] :

واتّبعوا سياسة التّهويد (...)
(...) سياسة الإفناء والتّشتيت والتّشريد

3 ـ المواجهة بين الحضارة والهمجيّة

وإمعانا في إدانة الصّهيونيّة، كأداة عنصريّة إجراميّة، قام الميداني بن صالح بالمقابلة بينها وبين ضحاياها ليجعل من المواجهة بينهما مواجهة بين الهمجيّة والحضارة. وهو يفنّد بذلك المزاعم الصّهيونيّة بأحقّيتها التّاريخيّة في أرض فلسطين بتأكيده على حقيقة أنّ بني إسرائيل القدامى لم يكونوا غير قبائل من البدو الغزاة، وأنّ أثرهم في تاريخ المنطقة ممّا لا يعتدّ به، هو، على أيّة حال، لا يقوم دليلا على صحّة المزاعم الصّهيونيّة.

في هذا الإطار يؤكّد الشّاعر على الطّبيعة الهمجيّة للصّهاينة، فينعتهم بشتّى الأسماء والصّفات، ويقول عنهم إنّهم لصوص البدو جيش المجرمين[22]، والغزاة والأشرار[23] ، والصّهاينة [24] ، وشُذّاذ اليهود [25] ، وكتائب صهيون [26] ، وجيش الصّهاينة الغاصبين [27] ، واللّصوص المجرمين الغرباء [28] ، وبني صهيون [29] ، وعُصبةُ الإجرام والأشرار [30] ، وعصابة الأشرار [31] ، و[المجرمون والقراصنة] [32] ، وجيوش الغدر والمكر [33] ، و[الدّخلاء] [34] ،

21 ـ ن. م، صص 110- 111.
22 ـ ن. م، ص 26.
23 ـ ن. م، ص 30.
24 ـ ن. م، ص 47.
25 ـ ن. م، ص 48.
26 ـ ن. م، ص 60.
27 ـ ن. م، ص 61.
28 ـ ن. م، ص 67.
29 ـ ن. م، ص 68.
30 ـ ن. م، ص 73.
31 ـ ن. م، ص 101.
32 ـ ن. م، ص 119.
33 ـ ن. م، ص 123.
34 ـ ن. م، ص 126.

وبذرة الأشرار [35]. ولا بدّ من الانتباه هنا إلى أنّ الشاعر تجنّب الخلط بين اليهود والصّهاينة، فجاءت الإشارة الوحيدة إلى اليهود في زلزال في تل أبيب مسبوقة بعبارة "شُذّاذ" الّتي تفيد التّبضيع وتحيل على الطّابع المنحرف والضّال للمقصودين منهم بهذا النّعت.

ونعت الصّهاينة بالعصابة واللّصوصيّة، وتأكيد الشّر كطبيعة ثابتة لهم، يؤكّد مرّة أخرى الطّابع الهمجيّ لتجمّعهم، ويجرّد "إنجازاتهم" من أيّ بعد تأسيسيّ باعتبارها أعمالا تخريبيّة قائمة على البُهتان والباطل. ولذلك لا يتردّد أحد أبطال ملحمة الميداني بن صالح في الإعلان عن النّتيجة الحتميّة للصّراع العربيّ الإسرائيليّ بقوله [36] :

بقاؤهم يا إخوتي
بأرضنا محال
دولتهم مجرمة
مصيرها الزّوال

ومردّ هذا الاعتقاد لدى الميداني بن صالح إلى حقيقة تاريخيّة مقرّرة مفادها أنّ الهمجيّة نقيض للحضارة، وخطر متربّص بها على الدّوام، ولكنّها محكومة بالفشل والزّوال لافتقارها لأهمّ مقوّمات الفعل الإبداعيّ، ممثّلة في تشرذمها، وغياب الشّعور بالانتماء الحقيقيّ لديها، وفوق ذلك كلّه افتقادها للعمق التّاريخي الذّي يكوّن الأساس الضروريّ للفعل الحضاريّ المنتج لقيم إيجابيّة أصيلة.

وفي مقابلة المغتصب والمبتزّ والمدلّس الصّهيوني يقف ضحاياه، المؤمنين بأنّ ترب فلسطين هو أرض الجدود [37]، وممثّلهم الأبرز في زلزال في تل أبيب هو العمّ حرب، وهو أحد ضحايا نكبة سنة 1948، فهو رمز للذّاكرة وللضّمير الفلسطينيين وهو الشّاهد على الجريمة البشعة الّتي ارتكبت في حقّ شعبه، وهو الحافظ لها من النّسيان والاندثار.

عن هذه المحنة يقول حرب في مفتتح الأثر [38] :

لقد أبعدت يا كنعان عن أرضي وداري
وشجيراتي، وأهلي، وصغاري
لأعيش التّية، والغربة، جوعان شريدا
عاري الجسم طريدا
وسط الصّحراء منفيّ ومعزول
وفي ذي الخيمة السّوداء ساكن

وعن حياته في الفترة الّتي سبقت النّكبة، يقول حرب [39] :

كنت بالأمس على الأرض الحبيبة
في فلسطين الخصيبة
كان لي حقل ودار...
(...) كنت بالأمس القريب ...
أفلح الأرض، وحقلي طيّب الغرس خصيبُ
(...) وشُجيراتي حبالى بعناقيد الثّمار
تزرع النّور بعيني شعاعا من تباشير النّهار

وغنيّ عن القول أنّ الاسترسال في الذّكريات في هذا الموضع وغيره لا يصدر عن شعور مشروع بالحنين إلى الماضي السّعيد والرّغبة اللاّواعية في الهروب إليه من فاجعة الحاضر، وإنّما هو يضطلع، إلى جانب ذلك، بـدور التّسفيـه للمقولات الصّهيونيّـة الّتي تدّعي أنّها أحيت

35 - ن. م، ص 130.
36 - ن. م، ص 126.
37 - ن. م، ص 103.
38 - ن. م، ص 26.
39 - ن. م، صص 31 - 32.

الأرض الفلسطينيّة بعد أن كانت مواتـا، في محاولة منها للتّدليل على أن لا صاحب لهذه الأرض، وأنّها صاحبة الفضل في تعميرها وبعثها، مجدّدة بذلك زعم كلّ القوى الاستعماريّة إذ تجعل من العدوان والاحتلال مهمّة تحضيريّة (Mission civilisatrice) وإنسانيّة.

وإنّه لمن الأهميّة بمكان أن نشير، بهذا الخصوص، إلى تواتر الأفعال الدّالة على الأعمال في حديث الشّيخ عن أرض أجداده، وكلّها أفعال تدلّ على الرّعاية والإخصاب من قبيل سقى وحبا وزرع وشيّد وحضن، وغيرها ممّا في معناها [40]. ولكنّ الدّليل الحاسمَ على أصالة هذا الانتماء وعمقه يكمُنُ في علاقة الحبّ التّي تشدّ الأرض وأصحابها إلى بعضهما البعض برباط قُدّ من البذل والعرق والدّماء، وتجسّد معالم ومآثر تاريخيّة لا سبيل إلى إنكارها. ويبرز هذا المعنى جليًّا في قول حرب [41] :

كنت للتّرب محبًّا، وبه كنت شغوفا،
وله كنت عشيقا ومغازل ...
بفؤوس، ومساح، ومناجل ...
ذكرياتي ... أسطرٌ تقرأ ما بين الدّوالي ...
والسّواقي، والمبازل ..
.كم سقينا التّرب إيمانا وإخلاصا دمانا
وحبيناه عطانا ..
هو ذا التّاريخ عنّا خير شاهد بمنارات هدانا
وبآلاف المساجد

وكتأكيد على هذا الانتماء العضويّ إلى الأرض، وكتدليل على عمقها التّاريخي وأصالتها، يُطلقُ الشّاعر على أحد الشّخصيات الشابّة اسم كنعان، اسم الجدّ المؤسّس، كرمز على الاستمرار والتّواصل بين الماضي والحاضر وكتحقيق لشرعيّة الوجود على أرض فلسطين في مقابلة الدّعاوي الصّهيونيّة بملكيّتها لهذه الأرض بمقتضى وعد إلهيّ أزليّ.

إنّ اسم كنعان هو مقابلة للأساطير الصّهيونيّة بالحجّة التّاريخيّة الموضوعيّة وتسفيه لها. ويعضد هذا المعنى ويشدّد عليه إضفاء اسمي عيسى ومحمّد على شخصيّتين أخرتين كرمزين دينيين وحضاريين متكاملين، فيما تشترك بعض الأسماء الأخرى، نخصّ بالذّكر منها صابر ونضال وفاتك وحرب، في التّنصيص على حتميّة خيار الثّورة المسلّحة.

ويلحّ الشّاعر في إطار هذه المواجهة بين الهمجيّة والحضارة على التّمايز في القيم التّي يصدر عنها كلا الطّرفين، مؤكّدا على التّناقض الهيكلي بين الإيديولوجيا الصّهيونيّة وقيم الخير والجمال والمحبّة والتّسامح، جاعلا هذه القيم حكرا على ضحاياه. ويتّضح ذلك في قوله [42] :

أجدادنا قد أوقفوا الزّمان ..
لأنّهم قد آمنوا بالأرض والإنسان
واحترموا التّوراة، والإنجيل، والقرآن
وحطّموا العروش والأوثان

ويلحّ حرب، في نفس هذا السّياق، على أنّ أرض أجداده هي [43] :

(...) قدس، نبوات، صليب وهلال
(...) ومنارات طوال
(...) أرنا فيض من النّور مريح

40 - ن. م، ص 34.
41 - ن. م، صص 33 - 34.
42 - ن. م، ص 34.
43 - ن. م، ص 34.

من تراتيل المسيح
وهي نبع عبقريّ...
دائم الدّفق، شذيّ، أزليّ
من هدايات محمّد...
وعطاءات النّبي العربيّ

وهو يركّز بذلك على هذا الفضاء باعتباره مجالا للتّعايش السّلمي والتّواصل البنّاء المتسامح بين مختلف العقائد مبرزا بذلك الطّابع الإقصائيّ المبتزّ للصّهيونيّة في محاولاتها المتكرّرة لتشويهه بنيّة السّطو عليه وتهويده، وهو ما يضيف إلى مثالب الصّهيونيّة السّابقة واحدة أخرى مجسّدة في التّعصب المقيت.

بقي أن نشير في خاتمة هذا البحث أنّ الميداني بن صالح لم يكتف باستعراض معالم الجريمة الصّهيونيّة في فلسطين العربيّة، وإنّما تجاوز ذلك إلى التّأكيد على الأسباب التّي كفلت لها البروز والانتشار والنّجاح، وهو ما يضفي عليها طابع الجريمة الكونيّة التّي تشترك فيها أطراف شتّى. وقد وردت في تضاعيف النصّ مسمّيات مختلفة لهذه الأطراف، مجتمعة ومنفردة، وكلّها نعوت لها بالفساد والمكر والغدر والخيانة والعمالة والجبن، فضلا عن العراقة في الإجرام. وإنّه لمن المفارقات العجيبة، في هذا الإطار، أن يكون نصيب رموز السّلطة العربيّة من الإدانة أكبر بكثير من نصيب الصّهاينة أنفسهم، وأنصارهم التّقليديّين من الدّول الغربيّة ، حيث يكتفي النصّ في هذا الصّدد بالإشارة إلى الكبار ومجلس البيع والشّراء والتّقسيم والكراء والقمار [44].

ونحن نعتقد أنّ تفسير هذه الظّاهرة لا يعود إلى رغبة الشّاعر في تحميل الحاكم العربيّ مسؤوليّة استشراء الخطر الصّهيونيّ، فهذا لديه من قبيل الحقيقة البديهيّة، وإنّما يعود في نظرنا إلى كون هذا الحاكم، بالنّظر إلى أعماله وممارساته، هو للصّهيونيّة صنوا، يشترك معها في كلّ مثالبها ومخازيها، ولا يقلّ عنها عنصريّة - وفي هذا تكمن المفارقة - تجاه نفسه وأمّته وتراثها، وهو بهذا الاعتبار حليفا موضوعيّا لها وخادما تابعا ذليلا لأهدافها العنصريّة التّوسعيّة.

وعليه، فإنّ فواعل ملحمة الميداني بن صالح يلاحقون كلّ رموز السّلطة في شتّى تمظهراتها ويعدّدون مثالبها تحت مسمّيات شتّى، نذكر منها الفساد، والاستئثار بالسّلطة، والتّبعيّة السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة، والعمالة، فيقول من ضمن ما يقول في هذا المعنى [45] :

الملك الجزّار
وجدّه السّمسار
والسّاسة التّجار وعصبة الإجرام والأشرار
سلبوا من شعبنا حقّ الكلام...
(...) مأساتنا مأساة ساسة
(...) تاجروا باسم القضيّة
جعلوا من شعبنا البائس كبشا،
وفداء ومطيّة
ساسة قد حسبوا كلّ الجماهير عبيدا، وجواري
عهدهم ظلام، وإجرام، ورعب، وطواري

وعلى ذلك تصبح الجرائم الصّهيونيّة نتيجة طبيعيّة وحتميّة لهذه الأوضاع المرضيّة التّي أدّت تباعا إلى الهزيمة فالتّطبيع فالاستسلام الدّليل المهين تحت غطاء السّلام، بصفته "هدفا استراتيجيا" لا محيد عنه.

44 - ن. م، ص 75.
45 - ن. م، صص 73 - 74.

المراجعة التاريخية وأهميتها

إبراهيم ناجي علوش *

مراجعو التاريخ
وتساقط أدونيس وإدوار سعيد ومحمود درويش

أسطورة المحرقة «الهولوكوست»

المؤرخون المراجعون في أوروبا والولايات المتحدة، وهم غير المؤرخين المراجعين في الكيان الصهيوني، مجموعة من المثقفين والعلماء والمناضلين الذي يذهبون مذاهب إيديولوجية مختلفة ويجتمعون على موقف مشترك هو دحض الأساطير المؤسسة للصهيونية وعلى رأسها المحرقة، أو «الهولوكوست» اليهودية.

المؤرخون المراجعون لا يقولون أن اليهود لم يذبحوا في الحرب العالمية الثانية في أوروبا، ولكنهم يفندون المزاعم الصهيونية التي تدّعي بأن قتل اليهود ليس له مثيل في التاريخ البشري، وبأن قتلهم جاء ضمن سياق برنامج نازي ألماني منهجي لإبادتهم. فعلى العكس من ذلك، أثبت العلماء المراجعون بطلان الادعاءات الصهيونية حول قضاء مئات الآلاف من اليهود في غرف غاز مزعومة محكمة الإغلاق. كما كشف الباحثون المراجعون زيف الأرقام التي تقدمها مؤسسات مثل مركز سيمون وايزنتال الصهيوني في الولايات المتحدة حول الذبح الخيالي لستة ملايين يهودي، وأوضح الكتّاب المراجعون كيف مات بضع مئات الآلاف من اليهود في الحرب العالمية الثانية كما مات غيرهم، في حرب وصل عدد ضحاياها إلى خمس وأربعين مليون قتيل، منهم اثنين وعشرين مليون سوفياتي مثلا، ما عدا الجرحى والمشردين والمشوهين. دفع المؤرخون المراجعون مقابل موقفهم هذا أثمانًا غالية، كما دفع من قبلهم كل من وهب حياته لنشر الحقيقة، فتعرضوا لعمليات اغتيال، وللطرد من العمل في مراكز أبحاثهم وجامعاتهم، ولدفع غرامات مجحفة، ولحملات تشهير، ولحصار اجتماعي، واضطهاد سياسي مريع، لأنهم تجرأوا على المس بالأساطير الصهيونية التي تبرر وجود دولة «إسرائيل» والسياسات التي تنتهجها هذه الدولة. كل هذا طبعا في الغرب الذي يتبجح بالتزامه بمبادئ حقوق الإنسان والحيوان والنبات، والذي غالبا ما يغطي تدخلاته في العالم الثالث بعباءة الدفاع عن هذه الحقوق. ولكن ما يحق للصهاينة لا يحق لغيرهم، والمؤرخون المراجعون كانوا ومازالوا بصدد القيام بما لا يقل عن انتفاضة في ميدان التاريخ للقرن العشرين، لذلك حق عليهم أن ينالهم ما ينالهم من سخط الصهاينة وحكومات الدول الغربية.

إن حساسية أسطورة «المحرقة اليهودية»، وحق أن نسميها «المخرقة اليهودية»، تنبع من عوامل كثيرة أهمها :

1 - إن إثارة ما يسمى بالمحرقة أو «الهولوكوست» بشكل يومي وواسع في وسائل الإعلام والترفيه والتعليم الغربية، رغم مرور أكثر من خمس وخمسين عاما على ما زعموا، يطرح بشكل ماثل ضرورة إيجاد ملجأ آمن لليهود في مكان

* باحث أردني

ما من هذا العالم. حتى أن الاعتراف بالمحرقة أصبح يعادل الاعتراف بضرورة وجود «إسرائيل»، وليس فقط حقها بالوجود.

2 - إن المبالغة بشأن ما يسمى بالمحرقة، والمغالاة في هذه المبالغة، وجميع هذه الترهات عن الأهوال التي لاقاها اليهود بشكل فريد من بين غيرهم من الأمم (لاحظوا الفرضية الخاطئة هنا بأن اليهود قومية أو شعب متجانس، وليس دين مثل الإسلام أو المسيحية أو البوذية تنضوي تحت لوائه مجموعة من الشعوب والقوميات)، تقدم كلها مبررات للحركة الصهيونية ولدولة «إسرائيل» لتجاوز كل الأعراف والقوانين والشرائع الدولية والدينية والدنيوية، تحت حجة أن أي شيء يفعلونه من اغتصاب فلسطين إلى مجازر صبرا وشاتيلا إلى محمد درة، قليل قياسا بما لاقوه من ظلم. ومن أراد أن يفهم ردة فعل الرأي العام الغربي الضعيفة تجاه ما يرتكبه الصهاينة، فإن عليه أن يبدأ بهذه المسألة، مسألة موقع المحرقة الأسطوري كما كرسه الصهاينة في العقل الجمعي الغربي.

3 - إن المحرقة المزعومة أصبحت كنزًا لا يفنى بالنسبة للحركة الصهيونية من حيث كونها أداة لابتزاز الدعم العاطفي والمالي والسياسي لدولة الكيان الصهيوني ولمواقف الحركة الصهيونية. إذ لو لا أموال التعويضات لما قامت دولة «إسرائيل»، ولما استمرت الحركة الصهيونية. وما زالت عمليات الابتزاز باسم ضحايا اليهود في المحرقة المزعومة مستمرة.

ولا يعتقدن أحد بأن أسطورة المحرقة مهمة بالنسبة للحركة الصهيونية وحدها، فهي لا تقل أهمية بالنسبة لمراكز صنع القرار السياسي والاقتصادي في الغرب لتبرير السياسات الداعمة للصهيونية أمام شعوبها، إذ لا يجوز أن نبري قوى الهيمنة الخارجية من الجرائم التي ترتكبها لتحقيق مصالحها في بلادنا تحت حجة أن الصهيونية ساقتها إلى هذه السياسات وأنها مغلوب على أمرها. فالعكس هو الصحيح، فأسطورة المحرقة تساعد حكومات الغرب وشركاته الكبرى على تبرير سياساتها الإجرامية في بلادنا أمام شعوبها، ومن هنا تأتي خطورة المؤرخين المراجعين.

المهم، عقد المؤرخون المراجعون العزم على القيام بمؤتمر لهم في بيروت بين 31 آذار و 3 نيسان عام 2001، فاجتمعت عليهم كل الحركة الصهيونية وحكومة الولايات المتحدة والحكومات الأوروبية وبعض الحكومات العربية بهدف وأد مؤتمر تم اختيار مكانه لإبداء التضامن مع الشعب اللبناني بعد تحرير جنوبه، ومع الانتفاضة الفلسطينية. ومع أن لا علاقة للدولة اللبنانية بهذا المؤتمر، باعتبار الجهات التي ترعاه جهات غير رسمية، فإنّ وزارة الخارجية الأمريكية والحكومات الأوروبية فرضت على الحكومة اللبنانية أن تمنع المؤتمر بالقوة، وكانت حكومة السيد رفيق الحريري مطواعة، سهلة القياد، لينة تحت الضغوطات، فمرّغت بذلك سجلها ولطخت وجهها الوطني بالوحل.

لكن هذا الهوان ليس أسوأ ما في الأمر، فقد تعودنا على سلوكيات الأنظمة العربية، ولا يجوز أن نتعود عليها. إن أسوأ ما في قصة إلغاء مؤتمر المؤرخين المراجعين المؤيدين للقضية العربية في بيروت هو البيان الذي أصدرته حفنة من المثقفين العرب الطامحين بالعالمية واللاهثين وراء جزيرة جائزة نوبل والمدعين الدفاع عن حرية الرأي والتعبير. هؤلاء أصدروا بيانا هللت له وسائل الإعلام الغربية والصهيونية، طالبوا فيه الحكومة اللبنانية بالتدخل لمنع مؤتمر المراجعين

«المعادي للسامية وغير المقبول»، حسب اللوموند الفرنسية يوم 2001/3/15.

إن هذا المؤتمر سيدافع عن النازية وجرائمها ضد اليهود، باسم الضحايا الفلسطينيين والعرب وأن هذا المؤتمر يهدف لتزوير التاريخ، هكذا قال جوزيف سماحة في صحيفة الحياة. أما المثقفون الانتهازيون الواردة أسماءهم في ذيل البيان فهم الشاعر محمود درويش والكاتب إدوارد سعيد والشاعر أدونيس والمؤرخ محمد حربي من الجزائر والكاتبان فايز ملص وفاروق مردم بيه من سوريا وإلياس خوري وصلاح ستيتية وجيرار خوري ودومينيك أده من لبنان وجمال الدين بن شيخ من الجزائر ومحمد برادة من المغرب والياس صنبر وخالدة سعيد ادعوا في توقيعاتهم الانتساب لفلسطين ... فيا للعار.

بين الإبداع الأدبي والسجل السياسي

أربعة عشر مثقفًا عربيًا إذن، على رأسهم أدونيس ومحمود درويش وإدوار سعيد، سارعوا إلى إدانة المؤتمر الذي كان سيعقده المؤرخون المراجعون في بيروت في نهاية أذار/مارس 2001، وطالبوا الحكومة اللبنانية بمنع عقده قائلين إنه مؤتمر «معادي للسامية»، وعلى حرية الرأي والتعبير ألف سلام مع العلم بأن تهمة العداء للسامية الموجهة للمؤرخين المراجعين لا تنبع إلا من عدم قبولهم لأسطورة المحرقة التي تستخدمها الحركة الصهيونية لابتزاز الدعم المالي والمعنوي والسياسي من الحكومات والشركات الغربية والرأي العام الغربي، ولتبرير وجود «إسرائيل»، ولتبرير وجودها فوق أي قانون.

تهمة معادة السامية بحد ذاتها طبعا جزء من لعبة التضليل الصهيونية، وهي غير دقيقة على الإطلاق عندما توجهها الحركة الصهيونية لأعدائها، فالعرب مثلا من الأقوام السامية، فكيف يمكن أن توجه تهمة العداء للسامية لمن يؤيدونهم، كما توجه اليوم للمؤرخين المراجعين ؟ كما أن اليهود الغربيين، أو الأشكناز، من الخزر القادمين من آسيا الوسطى، اعتنق ملكهم اليهودية لأنه وجد مملكته تحيط بها الخلافة العربية الإسلامية من الشرق، والروم المسيحيين من الغرب، فلم يرغب بأن يخضع لأي منهما، فأعلن مملكته مملكة يهودية لأسباب سياسية، بشكل حديث نسبيا، أي بعد الرسالة الإسلامية بمئات الأعوام، وبقي شعب تلك المملكة الخزرية على اليهودية، والناس على دين ملوكهم، كما يقال. واليهود القادمون من روسيا وبولونيا، واليهود الذين زعم أنهم ذبحوا في ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وبيريز ورابين وباراك ومن لف لفهم، كلهم من الأشكناز، لا علاقة لهم بالأقوام السامية لا من قريب ولا من بعيد، كما توضح المراجع العلمية الموثقة، ومنها مثلا كتاب «القبلية الثالثة عشر»، للباحث ارثر كوستنر، الذي ترجم مؤخرا إلى العربية، ولم تطأ أقدام أجدادهم فلسطين يوما لا كغزاة ولا كعابري سبيل، ولا تربطهم صلة رحم بالعبرانيين أو اليهود الشرقيين، وحين جاؤوا إلى فلسطين مع المشروع الاستعماري في القرن العشرين، بنوا دولة جعلوا من اليهود الشرقيين فيها، أي اليهود العرب، مواطنين من الدرجة الثانية. فهؤلاء اليهود الأشكناز القادمين مع الاستعمار هم الذين يصح أن يقال فيهم أنهم معادون للسامية، لأنهم قتلوا العرب الساميين وطردوهم من أرضهم، ولأنهم جعلوا من اليهود الساميين فعلا، أي اليهود العرب، مواطنين من الدرجة الثانية. أما المؤرخون المراجعون، فمعادون للصهيونية، ومن موقع علمي ينطلق من استخدام العلم وتطبيقاته لدحض الأساطير التي تقوم عليها الصهيونية.

مهما يكن من أمر، فلنفترض أن كل ما يقال عن المؤرخين المراجعين في الغرب، من عدائهم المزعوم «للسامية»، إلى عنصريتهم الدفينة، صحيح مائة بالمائة، أو ليس لدى مثقفينا الأربعة عشرة معركة يخوضونها أهمّ من هذه ؟ وعلى افتراض أن ما يسمى بالمحرقة قد وقع فعلاً، وأن المؤرخين المراجعين ينكرونها، عنوة، ويتعرضون لأشد اضطهاد من جراء ذلك، فيصرون على موقفهم من قبيل العناد والحمق والجهل، فأي الأمرين أشد خطرًا على الفلسطينيين والعرب اليوم : أمر «المحرقة» التي ربما حدثت قبل أكثر من نصف قرن فانتهى أمرها، سواء اعترف بها المؤرخون المراجعون أم لم يعترفوا، أم أمر استخدام ما يسمى بالمحرقة من قبل الحركة الصهيونية لتبرير احتلال فلسطين، ولابتزاز الرأي العام الغربي الآن ؟ وهل يستفيد العرب أم يتضررون من المساهمة في محاصرة الذين يستخدمون العقل والعلم لتدمير الأساس الأسطوري الذي تقوم عليه دولة الاحتلال اليوم ؟! وفي النهاية، الاحتلال قضية راهنة، أما «المحرقة» فتاريخ مزور يهدف إلى تبرير ظلم راهن، وقد وقع مثقفونا الأربعة عشر، وعلى رأسهم محمود درويش وإدوارد سعيد، في فخ تبرير هذا الظلم الراهن. وهم في سعيهم الجاد لنيل جوائز نوبل، وفي لهاثهم وراء «العالمية»، وفي كدهم لإغواء الغرب، لم يتورعوا عن السماح للحركة الصهيونية باستخدامهم لتزييت آلتها الإعلامية، ولم يترددوا في تقديم أسمائهم خرقا لتلميع أحذيتها السياسية.

فليكن واضحًا، إن كان ثمة حاجة للإيضاح، إن النقد الموجه أعلاه للسادة محمود درويش وإدوارد سعيد وباقي الموقعين على البيان المعادي لحرية الرأي والتعبير، الذي يطالبون فيه الحكومة اللبنانية بالتدخل لمنع مؤتمر المؤرخين المراجعين من الانعقاد في بيروت، هو نقد سياسي موجه ضد سلوك سياسي محدد، بغض النظر عن هوية من يمارس هذا السلوك، وعن نشاطه الثقافي أو الإبداعي، وبغض النظر عن أعماله الفكرية أو الشعرية. ولا بدّ لنا في سياق نقد هذا الموقف السياسي، والمتساوق مع المشروع الصهيوني، أن نفصل مثلا ما بين قصائد محمود درويش الأولى أو أعمال إدوارد سعيد في النقد الأدبي، والموقف السياسي المدان الذي يستغل فيه المثقف اسمه لتقديم تنازلات خطيرة على الأسس والمبادئ، من أجل تحسين موقعه كمثقف. وفي النهاية، فإن المساهمات الثقافية، مهما بلغ تميزها، لا يمكن أن تجعل الموقف والسلوك السياسي لصاحبها فوق النقد، على العكس من ذلك تبقى أهمية أية شخصية أو حزب أو منظمة نابعة في السياسة من الدور الذي تلعبه في خدمة مصلحة الأمة، ومن الدرجة التي تتناغم فيه مواقفها مع الخط المبدئي الواضح في السياسة وفي القضايا العامة. لا وجود للبقرات المقدسة، ولا بدّ أن يتم الحساب بناءا على مقياسين :

1 – أين يقف المرء تجاه القضايا الأساسية المطروحة في الساحة ؟

2 – ما هو سجله السياسي ؟

قد يكون محمود درويش شاعرا تطرب الأذن لقريحته. ولكنّ هذا لا يغير الموقف من دوره في فتح أبواب التطبيع على مصراعيها عندما ساهم بكسر حاجز العداء النفسي مع صهاينة من حزبي المابام والماباي في أوروبا الشرقية في أواخر الثمانينات في حوارات أجراها مع هذين الحزبين اللذين كان لهما الدور الأساسي في تأسيس الكيان الصهيوني، كما أنه التزم سياسيا بالعمل تحت مظلة ياسر عرفات !! فقصائد درويش يجب أن تقيّم أدبيا وشعريا،

وسلوكه السياسي يقيّم سياسيا.

وما يصح على الشاعر محمود درويش إبداعيا يصح على غيره من الموقعين على البيان المشؤوم ضد المؤرخين المراجعين. إدوارد سعيد مثلا وضع مؤلفات متميزة مثل «الثقافة والإمبريالية»، و «الاستشراق»، يمكن تقييمها من منظور إيديولوجي بشكل نقدي، ولكنه أيضا اشتهر بدعوته لتقبل الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وللتعايش مع العدو، وأدان العمليات الاستشهادية، والعمل العسكري عامة، وشارك في العديد من النشاطات التطبيقية، ودعا العراق للالتزام بقرارات الأمم المتحدة وهو يتعرض لخطر العدوان مجددا عام 1998، وشن حملة شعواء على المفكر روجيه غارودي، يشكل البيان الأخير ضد المؤرخين المراجعين الاستمرار الطبيعي لها.

النقطة التي لا يعيرها البعض مقدارا كافيا من الأهمية وهم يهيمون إعجابا بالموقع الذي وصل إليه بعض هؤلاء المثقفين العرب في الغرب، هي أن الموقع الثقافي يرتبط باعتبارات سياسية، تتعلق بالموقف من الصهيونية أساسا، فمن لان تجاه الصهيونية، يمكن أن يُنظر بعين الاعتبار لكفاءته، والمعضلة تبقى عند هؤلاء المثقفين : إيجاد طريقة للتعامل مع الصهيونية ترضي الغرب، ولا تسقطهم أمام الشعب، فيصبح الحل لديهم نشر ثقافة الهزيمة والتسوية والتطبيع ...

عريضة مزوّرة؟

كما تعرفون، كان من المفترض أن ينعقد مؤتمر للمؤرخين المراجعين في بيروت يوم 30 آذار/مارس، ولكن الحكومة اللبنانية منعته بسبب الضغوطات التي مورست عليها من قبل الدول الغربية في وقت كانت تحاول فيه إعادة جدولة ديونها الضخمة. وقد ساهمت عريضة مذيلة بتوقيعات أربعة عشر كاتبا ومثقفا عربيا، على رأسهم محمود درويش وأدونيس وغيرهم، بتقديم الغطاء السياسي والثقافي لمنع مؤتمر المؤرخين المراجعين في بيروت، تحت حجة أنه معاد للسامية، وهي التهمة التي توجه دائما لكل من يعادي الصهيونية. فكانت هذه العريضة الموجهة للحكومة اللبنانية من أجل حثها على منع عقد مؤتمر مراجعي التاريخ هي الواجهة التي اختفت خلفها عملية قمع حرية التعبير وعملية التساوق مع مطالبة الحركة الصهيونية العالمية بمنع مؤتمر المؤرخين المراجعين.

ولكن، تبين فيما بعد أن العريضة التي وجهت للحكومة اللبنانية كانت مزوّرة حسب تصريح للدكتور إدوارد سعيد لصحافية أردنية سألته عن موضوع توقيعه على العريضة الآنفة الذكر. الدكتور إدوارد سعيد قال لها أن النص الذي قرء للموقعين على الهاتف، كان يختلف عن النص الذي نشرت مقتطفاته في جريدة اللوموند يوم 15 آذار/مارس، ووسائل الإعلام الأخرى، وأضاف إدوارد سعيد أنه لا يملك نسخة حتى الآن من أي من النصين، وأن الموقعين على العريضة لا يعرف معظمهم أنه سيوقع طلبا لحكومة عربية بمنع حرية التعبير.

هذا السبق الصحفي قامت به الصحافية سماء ماجد أبو شرار، وقد سألت إدوارد سعيد عن موقفه من المشكلة لأنها لم تكن لتصدق بأن إدوارد سعيد يمكن أن يوقع بيانا يطالب بمنع مؤتمر فكري، وهو الأمر الذي يشكل انتهاكا لحرية التعبير، حتى ولو اختلف مع آراء وتحليلات المؤرخين المراجعين. وفي النهاية، لا تحتاج الأنظمة العربية للكثير من التشجيع في هذا المجال.

فيما يلي، تجدون رد إدوارد سعيد على تساؤلات سماء أبو شرار، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه خوّلها في ردّه باقتطاف

ونشر هذا الرد بكليته أو بأجزائه.

حرصا على موضوعية المعالجة، أقوم فيما يلي بترجمة رد إدوارد سعيد حرفيا، بدون أي تعديلات، لعل الذين أيدوا منع مؤتمر المؤرخين المراجعين يتعظون مما جاء فيه، رغم قناعتي التامة بأن

الحري بمن أضيفت أسماؤهم على عريضة لا يؤيدونها أن يعلنوا على الملأ موقفهم من ذلك. فكل من جاء اسمه في أسفل هذه العريضة المشينة يتحمل مسؤولية ما جاء فيها ما لم يعلن موقفه منها علنا، وللتاريخ ...

نص رسالة إدوارد سعيد الموقعة بتاريخ 2 نيسان/إبريل 2001 :

«ليس لدي ولم أر أبدا المذكرة. فقد تم الاتصال بي على الهاتف، وأخبرت بأنه ليس هناك وقت لإرسال نسخة لي لكي أراها. طلب مني أن أوافق على النص من أجل توقيعه، ففعلت، بشرط، أن لا تكون هناك أية مطالبة لأية حكومة بصدد منع المؤتمر. فأنا لا أؤمن أولا بمخاطبة الحكومات، ولا أؤمن ثانيا بمطالبة الحكومات بمنع أي شيء، فما بالك بمطالبتها بمنع المؤتمرات والكتب وما شابه!

وبما أني كنت شخصيا ضحية لهذا النوع من القرارات الحكومية، فإنني لا يمكن أن أضع نفسي في موقف من هذا النوع. لقد كنت واضحا في هذا الشأن. ولكني فوجئت عند ظهور البيان وهو يحمل طلبا لحكومة الحريري بمنع المؤتمر. فقد كان كل ما وافقت على توقيعه هو بيان يدين عقد هكذا مؤتمر في بيروت.

أكرر، لم أطلب من أية حكومة أن تمنع المؤتمر، ولا يمكن لي أن أتقدم بمطلب كهذا. وقد أضيف هذا المطلب ضد رغبتي وبدون معرفتي.

إني أعارض ناكري «المحرقة» بقوة، ولكنني أعارض بالقدر نفسه من القوة، حرمان أي إنسان من حرية التعبير بمرسوم حكومي.

لقد كان هذا الأمر نقضا رهيبا للعهد، وقد قامت مجموعة صغيرة من «المثقفين» (المزدوجين حول مثقفين من إدوارد سعيد) العرب الفرانكوفونيين، بكل بساطته، بخيانة ثقتي. وحتى هذا اليوم لم تكن لديهم اللباقة الكافية ليرسلوا لي نسخة من البيان الذي يفترض أنني وقعته.

بإمكانك استخدام بعض أو كل ما جاء من المعلومات الواردة هنا ...

مع تحياتي

إدوارد سعيد».

[نهاية رسالة الدكتور إدوارد سعيد]

ولكن هل تشكل رسالة إدوارد سعيد الآنفة الذكر إعلانا بسحب توقيعه على العريضة المذكورة التي تطالب الحكومة اللبنانية بمنع مؤتمر المؤرخين المراجعين؟ هناك من يقول لا، باعتبار أن إدوارد سعيد أكد على موقفه المناهض للمؤرخين المراجعين فيها. ولكن مناهضة المؤرخين المراجعين، وهو موقف نختلف فيه معه، شيء لا يتساوى بالضرورة مع مطالبة الحكومة اللبنانية بحرمانهم من حقهم في التعبير، وهو المطلب الأساسي في العريضة، والشيء الأساسي الذي يعارضه إدوارد سعيد، أن لم يسحب توقيعه رسميا عن العريضة، فقد قام على الأقل بسحب غطائه المعنوي عنها، وهو المثقف ذو الوزن الكبير عربيا ودوليا، فلا بدّ لنا إذن، أن نحييه على موقفه هذا، في الوقت الذي ندعوه فيه للمزيد

ونواصل الحوار معه حول المؤرخين المراجعين، فاتهام المؤرخين المراجعين باللاسامية هو الذي يشجع الحكومات الغربية والحركة الصهيونية على اضطهادهم، وإدانة عقد مؤتمرهم في بيروت، وهو الذي يقدم الذريعة لمنع هذا المؤتمر.

على كل حال، كان الدكتور إدوارد سعيد، وبغض النظر عن مواقفه السياسية الأخرى، أكثر تفاعلا وتأثرا بموجة السخط العارمة التي تلت ظهور بيان المثقفين الأربعة عشر الذي يطالب الحكومة اللبنانية بمنع مؤتمر المؤرخين المراجعين.

في صحيفة الوطن السعودية، قام أدونيس ومحمود درويش بالتأكيد على موقفهم من العريضة والإصرار عليه، مما يشكل إيغالا في التساقط ...

ندوة رابطة الكتاب الأردنيين واللوبي الصهيوني

انتقلت المعركة ضد المؤرخين المراجعين خلال الأسبوع الممتد بين 7 و 13 نيسان/ابريل 2001 إلى أرض الأردن، فقد حدثت مجموعة تطورات خلال ذلك الأسبوع على جانب كبير من الأهمية. وخلاصة هذه التطورات أن رابطة الكتاب الأردنيين قررت عقد ندوة عن مراجعي التاريخ في مقرها في عمان يوم الأحد الموافق 8 نيسان/ إبريل، فقامت جهات أمنية باستدعاء المتحدثين في تلك الندوة ومدير الجلسة يوم 7 نيسان/إبريل، وأبلغتهم من خلال محافظ عمان، السيد طلعت النوايسة، بضرورة تأجيل الندوة إلى ما بعد عودة جلالة الملك من زيارته في الولايات المتحدة، إذ يمكن أن تتسبب الندوة بإحراجه هناك.

وقد تم إبلاغ رئيس الرابطة، السيد فخري قعوار، بقرار التأجيل نفسه من خلال وزير الثقافة، السيد محمود الكايد، الذي قال أنه يتصرف بناءا على تعليمات من رئاسة الحكومة من واشنطن مباشرة.

التزمت الرابطة بقرار التأجيل، واحتجت في الآن عينه على تدخل مسؤولين من وزارة الداخلية في شؤونها الثقافية، وعلى استدعاء متكلمين في ندوتها، بعضهم أعضاء في رابطة الكتاب، دون أن يكونوا قد أخلوا بالقانون بأي شكل من الأشكال، هذا مع العلم أن ندوة رابطة الكتاب عن المؤرخين المراجعين كانت ستعقد تحت عنوان «ماذا جرى لمؤتمر المؤرخين المراجعين في بيروت ؟»، وهو عنوان لا يتصل بالنظام في الأردن من قريب أو بعيد. كما أن رابطة الكتاب كانت ترفع طرح موقف ثقافي عربي أصيل من بيان الأربعة عشر مثقفا عربيا الذي طالب الحكومة اللبنانية بمنع مؤتمر المؤرخين المراجعين في بيروت. فما الذي يجعل جهات رسمية أردنية تتدخل لفرض تأجيل ندوة رابطة الكتاب الأردنيين ؟ وبأي معنى يمكن أن تشكل هذه الندوة إحراجا في الولايات المتحدة ؟ فإذا كان الإحراج نابعا من قيام مواطنين أردنيين بممارسة حقهم الدستوري بالتعبير عن الرأي ضمن إطار القانون، فأن مجرد طرح موضوع ندوة رابطة الكتاب من قبل المسؤولين الأمريكيين أو غيرهم يشكل تدخلا غير مقبول في السيادة الأردنية. أما إذا كان الإحراج نابعا من موقف المثقفين الأردنيين الإيجابي من المؤرخين المراجعين وموقفهم السلبي من المثقفين العرب الأربعة عشر الذين قيل أنهم وقعوا البيان المشؤوم ضد مؤتمر المؤرخين المراجعين، فإن الإحراج لا مبرر له، باعتبار أن المؤرخين المراجعين.

يعقدون الندوات والمؤتمرات في الولايات المتحدة دون أي قيود قانونية، رغم الاضطهاد وعمليات الاعتداء التي تقوم بها المجموعات الصهيونية ضدهم هناك.

المشكلة في ندوة رابطة الكتاب الأردنيين إذن لا تتعلق

بالإحراج، بل تتعلق باللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة والضغوطات التي يمارسها على الأردن مباشرة أو من خلال حكومة الولايات المتحدة. وهذا الأمر بالتحديد هو الذي يعطي المؤرخين المراجعين أهميتهم بالنسبة لنا. فهم يعملون على قطع دابر الابتزاز الصهيوني للرأي العام الغربي الذي يمكن اللوبي الصهيوني من ممارسة ضغوطات من هذا النوع مستثمرا عقدة الذنب الجماعية الناتجة عن معاناة اليهود المزعومة في المخرقة [بالخاء]

المهم، انتشى اللوبي الصهيوني طربا بسبب فرض تأجيل ندوة رابطة الكتاب الأردنيين في عمان، فأصدرت واحدة من أهم مؤسسات هذا اللوبي في الولايات المتحدة، وهي مؤسسة سيمون وايزنتال القائمة على متحف المحرقة، المسمى متحف التسامح، رسالة ودعوة مفتوحة من خلال الإنترنت إلى رابطة الكتاب الأردنيين. ويقول التصريح الصحفي الصادر عن المركز المذكور بتاريخ 11 نيسان/إبريل 2001 : «نحن نرحب بقرار السلطات [الأردنية] بإجهاض هذا التجمع»، في إشارة لندوة رابطة الكتاب الأردنيين في عمان.

يضيف التصريح الصحفي الصادر عن المركز، على لسان الحاخام أبراهام كوبر Cooper العميد المساعد لمركز سيمون وايزنتال الذي قاد الجهود لإلغاء مؤتمر المؤرخين المراجعين في بيروت على ذمة التصريح الصحفي نفسه : «نلاحظ بأن رابطة الكتاب الأردنيين تخطط على ما يبدو لإدانة المثقفين العرب البارزين الذين أعلنوا موقفا ضد إنكار الشواة [المحرقة - المترجم]، وأنهم يخططون لإعادة تنظيم ندوة عمان. عوضا عن ذلك، فإننا في مركز سيمون وايزنتال، وكنا قد تشرفنا باستضافة الملك الراحل حسين في متحف التسامح في لوس انجلوس، ندعو رئيس رابطة الكتاب الأردنيين لإرسال وفد لزيارة مؤسستنا، وللقاء الناجين من تلك الحقبة الرهيبة وجها لوجه. إذ بنما توجد لدينا مواقف متباينة تجاه السلام في الشرق الأوسط، فأن أصحاب النوايا الحسنة يبب أن يكونوا قادرين على العمل معا لرفض المراجعة التاريخية واللاسامية، على حد تعبير الحاخام أبراهام كوبر.

ويبدو أن أبراهام كوبر أعتقد أن المثقفين العرب كلهم قابلون للتطويع، وأنهم يمكن أن يعاونوه في حملته ضد المؤرخين المراجعين، كما فعل المثقفون العرب الأربعة عشر، الذين تجاوبوا معه في دعوتهم الحكومة اللبنانية بمنع مؤتمر المؤرخين المراجعين في بيروت. ولكنه قرع الباب الذي لا يجيب هذه المرة، وإن أجاب، فإنه يجيب بما يرفض كل منطق التطبيع مع الصهاينة.

أرسل المؤرخون المراجعون رسائل إلى رابطة الكتاب الأردنيين يطالبون فيها أن تقبل الرابطة دعوة أبراهام كوبر بشرطين : الأول، أن تدعى وسائل الإعلام، الثاني، أن يضم وفد رابطة الكتاب الأردنيين ثلة من المؤرخين المراجعين. المؤرخون المراجعون علماء وباحثون ومؤرخون، تم تهميشهم في الغرب وتعرضوا لأشد الاضطهاد، فهم يتحرقون شوقا لمنازلة أدعياء المحرقة المزعومة بالعلم والحجج والتوثيق على مرأى ومسمع وسائل الإعلام.

لكن حسابات رابطة الكتاب الأردنيين غير حسابات المؤرخين المراجعين، فمعركة المؤرخين المراجعين هي معركة علماء مضطهدين يدافعون عن الحقيقة ويحاربون تزوير التاريخ، أما رابطة الكتاب الأردنيين، مثلها مثل كل المثقفين والمناضلين الشرفاء في الوطن العربي الكبير،

فتعتبر أن معركتها تمتد على مساحات أكبر بكثير. وعندما تقتلع شجرة زيتون في الضفة الغربية أو شجرة ليمون في غزة، أو يغتال طفل فلسطيني برصاصة غادرة في وضح النهار، أو عندما تصادر أرض أو يهدم بيت، أو عندما يمنع مؤتمر للمؤرخين المراجعين في بيروت، أو عندما تنهار الدفاعات النفسية والثقافية في وجه الغزاة، فأن الرابطة تعتبر ذلك كله جزءا من معركة واحدة ما زالت مستمرة منذ قرن. لذلك جاء رد رابطة الكتاب الأردنيين، دون فتح حوار مع الصهاينة، حتى لرفض دعوتهم، وكان الرد عمليا لا مكتوبا، إذ قامت الرابطة بتحديد موعد جديد لعقد ندوتها، وهو يوم الأحد 22 نيسان/إبريل عند السادسة والنصف في مقر الرابطة في عمان. أما المتحدثون فهم الذين تم استدعاؤهم المرة الماضية : حياة عطية، عرفات حجازي، ود. إبراهيم علوش، أما مدير الجلسة، فهو نفسه د. هشام غصيب. أما بيان الرابطة الذي يبدأ بالجملة التالية : «تدين رابطة الكتاب الأردنيين صدور بيان باسم 14 مثقفا عربيا يدعو الجهات الرسمية اللبنانية لمنع مؤتمر المراجعين ...»، فقد تمت ترجمته وتوريعه على الإنترنت قبل دعوة أبراهام كوبر بساعات.

من هم المؤرخون المراجعون، ولماذا يجب أن تعنينا «المحرقة» اليهودية ؟

بين الأسطورة والحقيقة

أثار إلغاء مؤتمر المؤرخين المراجعين في بيروت، الذي كان سينعقد في آخر آذار من عام 2001، والتأجيل القسري لندوة رابطة الكتاب الأردنيين مرتين متتاليتين ، تساؤلين :

1) من هم المؤرخون المراجعون ؟

2) ولماذا تعنينا قضية ما يسمى بالمحرقة اليهودية ؟

ولم تكن هذه كل التساؤلات التي أثارتها خلال شهر نيسان 2001 جهود الحركة الصهيونية الحقيقة لمنع مؤتمر المؤرخين المراجعين في بيروت أو ندرة رابطة الكتاب عن المؤرخين المراجعين في الأردن، أو بيان المثقفين العرب الأربعة عشر، الذي دعا الحكومة اللبنانية إلى منع مؤتمر المراجعين في بيروت مقدما بذلك غطاءا ثقافيا عربيا للجهود الصهيونية ولقمع النظام العربي للثقافة والمثقف.

1 - من هم المؤرخون المراجعون ؟

تدعي الحركة الصهيونية، من خلال وسائل الإعلام الضخمة التي تسيطر عليها، أن المؤرخين ليسوا إلا حفنة من الأصوليين المسيحيين المعادين للسامية. ولكن الحقيقة هي أن المراجعة التاريخية ليست إيديولوجية أو تيارا مذهبيا أو دينيا. إذ يوجد بين المؤرخين المراجعين مسلمون ومسيحيون وماركسيون وحتى يهود، ويوجد بينهم عرب وأوروبيون وأمريكان. فالمراجعة التاريخية ليست عصبية عرقية أو مذهبية، بل موقف انبثق عن منهج في التحليل تدعمه الأدلة والأساليب العلمية حول قضية تاريخية محددة هي ما يسمى بالمحرقة اليهودية.

وقد تعرض المؤرخون المراجعون على اختلاف أصنافهم، بسبب تبنيهم لهذا المنهج في تحليل ما يسمى «المحرقة» أو الهولوكوست، لاضطهاد شديد وعزل اجتماعي وطرد من الوظائف وسجن وغرامات باهظة وعمليات اغتيال.

واليوم، أصبح التعبير عن آراء مؤيدة للمراجعين جريمة يعاقب عليها القانون في العديد من الدول الغربية التي تدعي خلال ذلك أنها تدافع عن حرية الرأي.

2 - هل ينكر المؤرخون المراجعون أن يهودا ماتوا في الحرب العالمية الثانية ؟

لا، لا ينكر المؤرخون المراجعون أن يهود ماتوا في الحرب العالمية الثانية. لكنهم يقولون إن بضع مئات الآلاف من اليهود هلكوا في حرب بلغ عدد ضحاياها خمس وأربعين مليون نسمة. وقد استخدم المؤرخون المراجعون العلوم الدقيقة مثل الفيزياء والكيمياء ليثبتوا أن اليهود لم يبادوا بشكل منهجي في غرف غاز مزعومة كما تدعي الرواية الرسمية حول الهولوكوست.

وقالوا أن المحارق كانت تستخدم للتخلص من جثث الموتى من جنسيات مختلفة، وليس اليهود فقط، بعد موتهم، لتجنب الأوبئة. لكن محارق الموتى شيء يختلف تماما عن غرف الغاز المزعومة. وتشير الدلائل العلمية أن غرف الغاز لم توجد أبدا. وتدل أبحاث المؤرخين المراجعين أن معظم الذين ادعى الصهاينة أنهم قضوا في غرف الغاز، ماتوا في الواقع بسبب مرض التيفوس، مثل الطفلة آني فرانك التي زوروا مذكراتها وجعلوا منها أسطورة مقدسة لا تمس في الغرب ... فالمحرقة اليهودية صنمٌ صنعته الحركة الصهيونية في الثلث الأخير من القرن العشرين، والمؤرخون المراجعون في هذا السياق هم محطموا الأصنام.

المؤرخون المراجعون إذن لا ينكرون أن يهود ماتوا في الحرب العالمية الثانية، ولكنهم يستخدمون العلم في تكذيب الرواية الرسمية عن المحرقة في ثلاثة جوانب محددة هي :

أ) عدد اليهود الذين ماتوا في الحرب العالمية الثانية.

ب) الطريقة التي مات بها هؤلاء.

ج) التمييز المزعوم وفردية موت اليهود في التاريخ البشري بأسره.

3 - لماذا تعنينا قضية «المحرقة» اليهودية ؟

كثيرا ما يعرب الفلسطينيون والعرب والمسلمون عن إحباطهم باللامبالاة التي يقابل فيها الرأي العام الغربي المعاناة الفلسطينية والعربية على أيدي الحركة الصهيونية. والواقع أن الصهاينة نجحوا بتقديم أنفسهم للرأي العام الغربي كشعب لقي من الويلات في «المحرقة» ما يعطيه حق ارتكاب أي عمل ضد أي شخص في أي وقت بدون أي وازع. وغالبا ما يلوم العرب أنفسهم على التقصير الإعلامي الذي يعتقدون أنه يكمن في عدم قدرتهم على إيصال صورة صحيحة عن معاناتهم إلى الرأي

العام الغربي. لكن الغرب لا تنقصه المقدرة على معرفة ما يعانيه العرب على أيدي الصهاينة، فهو يعرفه، لكنه يقلل من أهميته لأن صورة «المحرقة» قابعة أبدأ في خلفية عقله الجمعي ووسائل إعلامه، لذلك تتضاءل المعاناة العربية الحقيقية أمام المحرقة اليهودية المزعومة، وهنا تكمن المشكلة الأساسية.

وكشخص عاش وعمل ودرس وعلمَّ وكتب في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ثلاثة عشر عامًا، كنت من العرب الذين يجيبون حين يسمعون «المحرقة» تساق دفاعا عن الحركة الصهيونية : لماذا يجب أن ندفع ثمنها نحن ؟! فلا أحد، حتى اليهود أنفسهم، يتهمون العرب بأنهم هم الذين ارتكبوا المحرقة. وقد كنت أقود السيارة مرة عبر ولاية اركنسا، ولاية الرئيس السابق كلينتون، باتجاه ولاية أوكلاهوما، فوجدت بلدة صغيرة هناك اسمها فلسطين،

وهناك بلدات كثيرة في الولايات المتحدة بهذا الاسم، فدخلتها ووجدت حولها أراض زراعية شاسعة، ثم بضعة آبار من النفط، فكتبت مقالة دعوت فيها الرئيس كلينتون أن يعطي اليهود فلسطين الموجودة في ولايته إذا كان يحبهم إلى هذه الدرجة، لعلهم يرحلون عن فلسطين العربية، لكن مسائل الجغرافية السياسية ليست بهذه البساطة، و«المحرقة» أقوى من المنطق ...

إن أساطير «المحرقة» مهمة جدًا بالنسبة للحركة الصهيونية، وبالتالي بالنسبة لنا، للأسباب التالية :

أ) إن الإدعاء القائل بأن اليهود أبيدوا بشكل منهجي من قبل الألمان في الحرب العالمية الثانية أصبح حجة لا تناقش حول ضرورة إيجاد ملجأ آمن لليهود في دولة خاصة بهم. «فالمحرقة» تعني الحاجة لوجود «إسرائيل»، وهذا معنويا أقوى من الاعتراف، بحقها بالوجود. وعندما لا يكتفي الصهاينة بالاعتراف القانوني، بناءا على قرارات الأمم المتحدة الظالمة أو غيرها، بحقهم في الوجود، فإنهم يطالبون فعليا بأن تعترف الأنظمة العربية بالحاجة اليهودية لوجود «إسرائيل». باختصار، إن «المحرقة» تبرر اغتصاب أرض فلسطين أمام العالم، والمطلوب الآن أن ينتقل العرب من الاعتراف بهذا الاغتصاب على مضض، بالقوة، إلى الاعتراف بالحاجة اليهودية إلى ممارسة هذا الاغتصاب من خلال اجترار أساطير «المحرقة»، فالمحرقة هي جوهر الاعتراف الثقافي بحق العدو بالوجود ...

وكما قال الكاتب اليساري الصهيوني يوري أفنيري، ولا فرق بين اليمين واليسار في الكيان الصهيوني، أن اليهود مثل رجل قفز من مبنى يحترق فوقع على رأس رجل يسير في الشارع، واليهود وقعوا على رؤوس الفلسطينيين، فهم «ضحايا»، والفلسطينيون ضحايا الضحايا، ولذلك لا يتعاطف العالم معهم، كما تعاطف مع الأفارقة في جنوب إفريقيا، فلا مجال لمقارنة الإبادة [المزعومة] لملايين اليهود في : المحرقة، بالاقتلاع [الحقيقي] لبضع مئات الآلاف من الفلسطينيين من أرضهم ...

الأهمية السياسية لأسطورة المحرقة

المراجعة التاريخية إذن ليست مؤامرة لإنكار «المحرقة» بل طريقة لوضعها ضمن إطارها العلمي، وبالتالي لوضع قيام «إسرائيل» ضمن إطارها العلمي، فالمسألة راهنة سياسيا، وليست مجرد قضية أكاديمية تخص المؤرخين. وإذا كان الإدعاء القائل بأن اليهود أبيدوا بشكل منهجي من قبل الألمان قد أصبح حجة لا تناقش حول ضرورة إيجاد ملجأ آمن لليهود في دولة خاصة بهم، وبالتالي الحاجة إلى وجود «إسرائيل» في نظر الرأي العام العربي، كما جاء سابقا، فإن هنالك فوائد سياسية راهنة للجوانب الأخرى من أسطورة «المحرقة» أيضا.

ب) إن الإدعاء القائل أن اليهود أبيدوا بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ البشري برمته، وهو ما يسمى بفرادة موت اليهود، أي أن اليهود ليسوا فقط شعب الله المختار كما يزعمون، بل أن موتهم نفسه غير موت بني البشر باعتبار أنهم فقدوا حسب زعمهم ستة ملايين على أيدي النازيين، هو الأمر الذي يستطيع أن يجعل من موت أي صهيوني اليوم في الصراع العربي – الصهيوني أكثر أهمية من استشهاد أي فلسطيني أو عربي أو مسلم. نلاحظ طبعا هذه الازدواجية بوضوح في طريقة تعامل الإعلام الغربي مع موت الصهاينة وطريقته في التعامل مع قتل الصهاينة للعرب، وغالبا ما تعزو هذه الازدواجية لاعتبارات سياسية محضة، ولكن الازدواجية

لا تقتصر على الإعلام الغربي، بل تتعداها عامة وليس دائما، إلى المواطن الغربي نفسه الذي تبرمج ثقافيا، من خلال جانب فرادة موت اليهود في أسطورة «المحرقة»، على التعامل مع موت اليهود بحساسية فريدة من نوعها.

ولا يتقصر الأمر على ذلك، فأسطورة فرادة موت اليهود في «المحرقة» وشدة معاناتهم فيها بشكل لا نظير له في التاريخ، تقدم المسوغات الأخلاقية لدولة «إسرائيل» وللحركة الصهيونية العاملة لانتهاك كل الأعراف الدينية والدنيوية المعروفة للبشر وقوانين الأمم المتحدة بدون معارضة المواطن الغربي، وحتى بتعاطفه. وهذا الأمر هو الذي يضيء الجانب الثقافي في تعاطف، أو على الأقل سكوت، المواطن الغربي على قيام «إسرائيل» بقصف العراق وتونس ولبنان، وحيازة الأسلحة النووية، في الوقت الذي يمدد فيه الحصار على العراق بحجة عدم سماحه بالتفتيش عن أسلحة أقل شأنا.

ج) إن الإدعاء القائل أن بلدان وشعوب الغرب تتحمل مجتمعة ذنبا جماعيا تاريخيا على جريمة «المحرقة» المزعومة، وترسيخ عقدة الذنب الجماعية هذه في أذهان الغربيين من خلال وسائل الإعلام والترفيه والمناهج المدرسية، هو الجذر الأساسي لدعم الرأي العام الغربي والمناهج المدرسية، وهو الجذر الأساسي لدعم الرأي العام الغربي لدولة «إسرائيل» والحركة الصهيونية. وقد كان هذا الشعور الغربي العام بالذنب الجماعي ظاهرة اجتماعية - سياسية حديثة نسبيا تبلورت بعد حرب عام 1967، وليس بعد الحرب العالمية الثانية، حسب الكاتب اليهودي الأمريكي نورمان فينكلشتين في كتابه عن استغلال «المحرقة» لأغراض سياسية الذي صدر عام 2000 تحت عنوان «صناعة الهولوكوست».

ويقول نورمان فينلكشتين في كتابه أن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة كان يتجنب إثارة «المحرقة» في وجه ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة تساوقا مع الاستراتيجية الأمريكية العالمية في تجنيد ألمانيا وباقي دول أوروبا الغربية في مواجهة الاتحاد السوفياتي.

المهم، أصبحت عقدة الذنب الجماعية مصدرا مهما للدعم المالي والعسكري والتقني والسياسي الذي لم تكن «إسرائيل» لتقوم أو تستمر بدونه، وقد كتب غيري عن هذا الجانب في أسطورة «المحرقة»، لذلك لن أسهب فيه، باستثناء الإشارة إلى أن عقدة الذنب الجماعية تجاه اليهود والحركة الصهيونية ليست صنيعة الحركة الصهيونية وحدها، بل هي حاجة سياسية للحكومات الغربية نفسها التي تدعم «إسرائيل» لتحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية ... ففي الدول الغربية التي تتمتع بهامش نسبي من الديمقراطية يجب أن يتقولب المواطن على دعم «إسرائيل» والحركة الصهيونية قبل الذهاب إلى صناديق الاقتراع، و «المحرقة» تصبح هنا الرافعة الثقافية لوعي سياسي لا يتساوق مع مصالح الحركة الصهيونية فحسب، بل مع مصالح النخب الحاكمة في الغرب أيضا.

ونخلص من كل ما سبق عن أهمية «المحرقة» السياسية إلى السبب الذي يجعل المؤرخين المراجعين بخلفياتهم الإيديولوجية المتنوعة يشكلون مثل هذا الخطر الجدي على الحركة الصهيونية وحلفائها : أنهم يستخدمون العلم والعقل في التشكيك بكل جانب من جوانب «المحرقة» المزعومة، فيحرقونها ببرد المنطق وماء الأقلام، ثم يبددونها بعد كشف هياكلها السياسية الصهيونية كالرماد المنثور.

إن المؤرخين المراجعين، إذن يهددون ببتر الشريان الذي

تتغذى منه الحركة الصهيونية في الغرب، ولذلك يحاصرون ويتعرضون لعمليات الاغتيال والتجويع. ولكن جهودهم ومواقفهم تجعلهم حليفا لا غنى عنه للفلسطينيين والعرب والمسلمين، حليفا خليقا بالدعم والمساندة والتشجيع منا ومن كل المدافعين عن الحقيقة والعدالة في العالم. وكما قال لي أحد أنصار المؤرخين المراجعين في أوروبا : «لن تتحرر فلسطين حتى تتحرر عقول الأوروبيين من المحرقة».

بالمقابل، نجد بعض المثقفين العرب وقد خدعهم أنصار الصهيونية بفكرة مفادها أن جعل القضية الفلسطينية تلقى القبول في الغرب يتطلب منهم الاعتراف بالنسخة الصهيونية لأسطورة «المحرقة»، ويتطلب منهم المشاركة باضطهاد المؤرخين المراجعين. ولكن هذا سلوك انتحاري من وجهة النظر السياسية، فالاعتراف بالادعاءات الصهيونية عن «المحرقة» يمهد الطريق لما يلي الاعتراف بها، مثل :

أ) القبول باغتصاب فلسطين وبمشروعية الغزو اليهودي لها من خلال قبول الرواية الصهيونية عن المبرر الذي «اضطر» اليهود للمجيء إليها.

ب) القبول ضمنيا بالغطاء الثقافي للدعم السياسي والمالي والمعنوي الذي يقدمه الغرب للحركة الصهيونية، الأمر الذي يعيق الجهود المخلصة للعديد من العرب الناشطين في الغرب من أجل كسب التأييد للقضية الفلسطينية.

ج) القبول ضمنيا بأحد دوافع الحصار على العراق، فالعراق يعتبر أولا وأخيرا خطرا على «إسرائيل»، وتختلط ذكرى تدمير العراقيين القدامى لمملكة إسرائيل البائدة قبل آلاف الأعوام، وأسطورة «المحرقة» في هذا السياق، مع الصواريخ التي وقعت على تل أبيب في حرب الخليج الثانية، لإعطاء صورة قاتمة عن شعب يهودي تحت خطر دائم يتطلب رده استمرار الحصار على العراق بعد أكثر من عشر سنوات على خروجه من الكويت. وعندما يقول الساسة الغربيون أن العراق يشكل خطرا على جيرانه، من تعتقدون أنه المقصود بهذا القول أكثر من «إسرائيل» ؟

بالتالي، ليس من المجدي للإنسان العربي أن ينال القبول الفردي في الغرب عن طريق الاعتراف بالرواية الصهيونية عن «المحرقة»، لأن ثمن هذا القبول الفردي سيكون الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، وهذا الثمن لا قبل للشرفاء به.

القادة والرموز

- المؤرخون المراجعون : لمحة عامة عن القادة والرموز.

ليس روجيه غارودي واحدا من أهم الكتّاب المراجعين، مع أن كتابة «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» يعتبر الجسر الذي أتت عبره المراجعة التاريخية إلى العالمين الغربي والإسلامي. وتكاد لا تجد ذكرا لروجيه غارودي بين المراجع والمصادر التي يستخدمها الكتاب المراجعون في أبحاثهم. لكن روجيه غارودي رغما عن ذلك يبقى شخصية مهمة في حركة المراجعة التاريخية لأنه أولا قام بتلخيص وتبسيط كتابات المراجعين الأكاديمية المعقدة الموجودة في مجلداتهم الضخمة، ومعظمهم من المتخصصين، ولأنه ثانيا سمح من خلال هذا التبسيط والتلخيص بتعريف القارئ العربي والمسلم بالمراجعة التاريخية. ولكنه لم يقدم جديدا في مجال المراجعة، ولم يضم تلخيصه كل مهم فيها، حسب رأي معظم المراجعين.

ولكن التعريف شيء، والمعرفة شيء آخر، والمقدمة شيء،

والمتن شيء آخر. فهنالك بين المراجعين أشخاص ومعاهد تعمل في هذا المجال منذ عقود، وهم يعتبرون روجيه غارودي طارئ جديدا على هذا الحقل، دون أن يقلل ذلك من تقديرهم لدوره في إيصال المراجعة إلى الجمهور العربي والإسلامي. بيد أن النبع الذي نهل منه روجيه غارودي فعلا، والذي ينهل منه العديد من المراجعين، هو أستاذ الأدب الدكتور روبرت فوريسون، الذي تعرض لاضطهاد حقيقي بسبب مواقفه في فرنسا، والذي تعرض لاعتداءات جسدية كادت تؤدي به، وللطرد من العمل والحرمان من راتبه التقاعدي. روبرت فوريسون، وأبوه فرنسي وأمه اسكتلندية يعتبر أهم كاتب مراجع على قيد الحياة اليوم، ورغم كبر سنه، فإن صلابته وتعمقه في المراجعة جعله عن حق إمامتها.

وهنالك أيضا معهدان، واحد في سويسرا، واسمه معهد الحقيقة والعدالة، ورئيسه الدكتور يورغن غراف، الهارب حاليا من بلاده، بسبب حكم قضائي صادر ضده بالسجن بسبب مواقفه المراجعة، وهنالك معهد المراجعة التاريخية في الولايات المتحدة، ورئيسه الدكتور مارك وبر. هذان المعهدان يعتبران أهم معهدين للمراجعة التاريخية في العالم، ولكن هنالك معاهد ومراكز أخرى مثل معهد كارتو في الولايات المتحدة الذي يعتبر انشقاقا عن معهد المراجعة التاريخية في الولايات المتحدة، وبينهما ما صنع الحداد، من التشكيك إلى المحاكم إلى التهم بالاختلاس. وقد حاولت فهم طبيعة الخلاف بينهم، فوصلت إلى أن معهد كارتو تمكن بطريقة ما من الاستحواذ عن مبالغ يقول معهد المراجعة التاريخية إنها تعود له، مما كاد يؤدي بالمعهد الأخير إلى الإفلاس، ولكنه عاد ووقف على قدميه كبؤرة أساسية للمراجعة التاريخية في الولايات المتحدة والعالم، وقد أشرف على أكبر مؤتمر عالمي للكتاب المراجعين في ولاية كاليفورنيا في أيار/مايو من عام 2000.

ومع أن بعض أنصار المراجعة التاريخية قد يلومني على ذكر هذا الخلاف المؤسف بين معهدي المراجعة التاريخية في الولايات المتحدة، الذي يتخذ الكثير من المراجعين، على سبيل المثال يورغن غراف، رئيس معهد الحقيقة والعدالة السويسري، موقفا حياديا إزاءه، فأني أثرت الإشارة إليه، لا لأن هذا النوع من الخلافات ليس حكرا على المراجعين بل ينتشر في معظم الحركات الفكرية والسياسية فحسب، بل للتأكيد على مقدار التنوع واختلاف التوجهات بين المراجعين أنفسهم. فالمراجعة التاريخية ليست إيديولوجية أو حركة سياسية، بل طريقة في معالجة مسألة محددة هي «المحرقة»، والحرب العالمية الثانية وآثارها السياسية وغير السياسية. فعلى حد قول فوريسون : «إن المراجعة محاولة لتفحص وتصحيح ما هو مقبول عامة بغرض التثبت بدقة من طبيعة شيء أو حقيقة واقعة أو قيمة أو أصالة ومصداقية وأهمية نص أو وثيقة».

من بين كبار المراجعين مثلا المؤرخ البريطاني ديفيد ايرفينغ الذي تعرض لمحاكمة وحكم حزائي مقداره مئتا ألف دولار عام ألفين بسبب مواقفه، والذي منعت له محاضرة في بريطانيا في أيار/مايو من عام (2001). رغم ذلك، فإن فوريسون يعتبر ايرفينغ، مثل غارودي، غير صلب بما فيه الكفاية، ويعتبر أنه يحاول الترويج للمراجعة بطرق «ديبلوماسية» تضعف من موقفها العلمي والمبئي.

وهنالك بين المراجعين علماء مثل الكيميائي الشاب الألماني غيرمار رودلف الهارب من بلاده منذ 1996 بسبب حكم قضائي بسجنه 14 شهرا بعد قيامه بتحليل مختبري

لمعسكرات الاعتقال النازية في أوشفتز وباركينا أثبت فيه تهافت نظرية «غرف الغاز». وبين العلماء منهم، هناك الدكتور الأمريكي أرثر بوتز، بروفيسور الهندسة الكهربائية وهندسة الحاسوب، الذي وضع مجلدا جامعا مانعا، يدحض فيه أسطورة «المحرقة» اعتمادا على العلم الهندسي والفيزياء والكيمياء.

ومن بين الكتّاب المراجعين اليهود، هناك الكاتب الصحفي جون ساك الذي وضع كتابا عن قيام اليهود بقتل ما بين ستين وثمانين ألف ألماني في معسكرات اعتقال في بولندا بعد الحرب العالمية الثانية، مما أثار حفيظة الصهاينة عليه.

مقابل جون ساك، هناك المراجع الكندي، أرنست زوندل، وهو ألماني الأصل، ويبدو من كتاباته أنه متعاطف مع النازية، وأن دوافعه كمراجع تتعلق بمحاولة تبرئة ألمانيا من تهمة «المحرقة» الموجهة إليها. وقد تعرض أرنست زوندل للمحاكمة مرتين في كندا، ذهب بعدها إلى الولايات المتحدة حيث يعيش مع زوجته انغريد الألمانية الأصل أيضا، وهما هناك من قيادات المراجعين، ويبدو أن ثمة روابط تربطهما باليمين المتطرف في أوروبا وأمريكا، والله أعلم.

وهناك أيضا المؤرخ المراجع روبرت كاونتس، وهو ضابط سابق في الجيش الأمريكي وكاهن مسيحي أصبح يجوب البلدان للتبشير بالمراجعة التاريخية، وهناك العربي المسلم أحمد رامي الذي يعتبره المراجعون من رموزهم، ولن أتحدث عنه بل أنصح الأخوة القراء بالذهاب إلى موقعه على الإنترنت وهو : http://abbc2.com والموقع يضم أقساما بالعربية.

وهنالك اليساريان الفرنسيان سيرج تيون، وبيار غييوم، والأخير هو ناشر كتب روجيه غارودي عن المراجعة، ويعادي هذان المراجعان النازية بالتأكيد، وقد تعرضنا لاضطهاد شرس واعتداءات مثلهما مثل باقي المراجعين.

الخلاصة، إن المراجعة موقف فكري وسياسي يضم شخصيات ومؤسسات من مشارب فكرية وإيديولوجية مختلفة، متضاربة أحيانا، ويجمعها معنا عداءها للصهيونية، وزيف «المحرقة»، ويجمعها مع بعضها الاضطهاد الوحشي الذي يتعرض له كل من يتمسك بها.

ما يهمّنا في أبحاث المراجعين التاريخيين

- هل يجب أن نوافق على كل شيء يقوله المؤرخون المراجعون ؟

والجواب على هذا السؤال، بدون مقدمات، هو لا بالقطع. فالمراجعة التاريخية مشروع بحثي قيد التنفيذ، وصل إلى بعض الاستنتاجات العلمية والتاريخية ذات الأبعاد السياسية الخطيرة، ولكنه لم يكتمل بعد، خاصة في ظل ظروف القمع الرهيبة وشح الموارد التي يعيشها الكتّاب المراجعون.

كما أن الكتّاب المراجعين ينطلقون من خلفيات عقائدية مختلفة تمتد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ومن دوافع متشابكة تمتد من الالتزام المبدئي بحرية البحث العلمي ونتائجه إلى الرغبة بكشف وسائل الابتزاز الصهيونية للرأي العام الغربي من خلال الجوانب المختلفة في أسطورة «المحرقة» إلى الرغبة بتبرئة ألمانيا النازية من التهم الموجهة إليها إلى معاداة الصهيونية. وإذا كنا قد نختلف مع بعض المراجعين في بعض منطلقاتهم، وإذا كنا ننطلق في معاداة الصهيونية من منطلقات أوسع بكثير من الطريقة التي تتلاعب بها بأسطورة «المحرقة»، فإن هذا لا يقلل من أهمية المراجعة التاريخية، ولا يقلل من أهمية الأبعاد السياسية لاستنتاجاتها. فالمراجعون بمنطلقاتهم المتعددة، يساهمون عمليا بكسر

هيمنة الحركة الصهيونية على الغرب، وهذا هو السبب الذي يجعلهم عرضة للمطاردة والاضطهاد.

وهم يفعلون ذلك من خلال استنتاجاتهم العلمية والتاريخية. فما يهمنا من المراجعة هو أسلوبها العلمي ونتائج أبحاثها والأبعاد السياسية لهذه النتائج، وليس خلافا مع منطلقات بعض، وليس جميع، الذين يتبعون منهج المراجعة التاريخية. فما يهم هنا هو الاصطفاف الموضوعي للقوى في ساحة الصراع، وليس الوصول إلى اتفاق إيديولوجي كامل مع كل مراجع حول كل مسألة على جدول البحث، لا بل أن عدم الوصول إلى هكذا اتفاق لا يمنع، ولا يجوز أن يمنع، على مستوانا العربي اتفاق مناضلين إسلاميين وقوميين ويساريين على مقاومة الصهيونية في بلادنا.

على الرغم من ذلك، فإن ثمة ثغرة سياسية أساسية في أبحاث معظم المراجعين الذين أطلعت على كتاباتهم، ولا أقول أنني أطلعت على كل كتاباتهم، وهي أنهم لا يعطون أهمية كافية للدور الذي تلعبه النخب الحاكمة في الغرب لفرض أسطورة «المحرقة». والمسألة يمكن وضعها بالشكل التالي:

إذا اتفقنا مع المراجعين أن موت اليهود في الحرب العالمية الثانية لم يكن فريدا من نوعه ولا غير مسبوق، وإذا اتفقنا معهم أن غرف الغاز وهم لم يتمكن أحد من إثبات وجوده حتى الآن وأن رقم الستة ملايين مبالغ فيه حتى الثمالة، وإن مئات الآلاف من اليهود ماتوا مع غيرهم بسبب الجوع والمرض خلال أو بعد عمليات ترحيلهم الجماعية، والدلائل تشير إلى أن كل هذه الاستنتاجات صحيحة، وإذا اتفقنا معهم بالتالي أن اليهود لم يأتوا بمئات الآلاف بعد الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين هربا من «المحرقة» المزعومة، فإن السؤال الذي بقي هو: لماذا أتوا إلى فلسطين إذن؟ لماذا جاءت بهم الحركة الصهيونية إلى بلادنا لتأسيس مستعمرة يهودية فيها.

المراجعون يعرفون أيضا أن الدول الغربية كانت تفتح وتغلق أبواب الهجرة اليهودية إليها، أي إلى الدول الغربية نفسها، في محاولة لجعل اليهود يذهبون إلى فلسطين. فلماذا تفعل بريطانيا وبقية الدول الغربية ذلك؟

والإجابة على هذا السؤال المهمل من معظم الكتّاب المراجعين حسب علمي هو أن الغرب بدأ يفكر بتأسيس دولة يهودية في فلسطين منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر كإجراء احترازي لمنع قيام دولة عربية موحدة بعد دخول محمد علي باشا من مصر إلى بلاد الشام وإلى الجزيرة العربية. فالمصالح الاستراتيجية العليا لبريطانيا وللرأسمالية الغربية أنذاك كانت تقتضي تأسيس قاعدة في فلسطين تشكل جسرا بشريا غريبا ما بين الجناح الأسيوي والجناح الإفريقي للوطن العربي. وقد كشف الدكتور عبد الوهاب الكيالي في كتابه «تاريخ فلسطين الحديث» مراسلات الفيكونت بالمرستون في بريطانيا مع سفيره في اسطنبول حول هذه المسألة بالذات، وكشف آخرون مراسلات بالمرستون مع اللورد روتشيلد بالاتجاه نفسه.

إن الحاجة لقاعدة استعمارية في فلسطين وجسم بشري غريب فيها، أي الحاجة إلى «إسرائيل» أصبحت ماسة اليوم أكثر مما كانت في النصف الأول من القرن التاسع عشر. بالتالي، إن حشد الدعم الشعبي لدولة «إسرائيل» في المجتمعات الغربية المتمتعة بقدر نسبي من الديمقراطية، وتبرير كل العون المالي والعسكري والسياسي المقدم لها، يقتضي أن يعتنق الرأي العام الغربي بالضرورة الوجوه

المختلفة من أسطورة «المحرقة» بحماسة. وهذا يجب أن يحدث ليس بسبب سطوة الحركة الصهيونية فحسب، بل لأن النخب الحاكمة في الغرب تشتق فوائد استراتيجية وجغرافية وسياسية من إنشاء وإبقاء قاعدة «إسرائيل» العسكرية في فلسطين.

أما نسب كل الدعم المقدم من الغرب للحركة الصهيونية و «إسرائيل» لنفوذ وسطوة الصهيونية في الغرب، فيتجاهل تاريخا كاملا من الاستعمار، وقوانين حركة رأس المال في المجتمعات الغربية نفسها، واستراتيجيات فرّق تسد واستراتيجيات الاستغلال الاقتصادي التي يمارسها الغرب. في الواقع إن نسب كل الدعم الغربي للصهيونية للتأثيرات الصهيونية على الغرب قد يقود المرء إلى ارتكاب خطأ سياسي من نوع آخر وهو إيهام أنفسنا أن التساوق مع السياسات الاستعمارية الجديدة للحكومات الغربية في بلادنا قد يساعد على تخليصها من التأثيرات الصهيونية عليها.

الخطأ السياسي الأول هو بالطبع ذاك الذي ارتكبه بعض الموقعين على عريضة المثقفين العرب التي تطالب الحكومة اللبنانية بمنع مؤتمر «المراجعة والصهيونية» في بيروت. وهذا الخطأ يتلخص بالتوهم أن التساوق مع ادعاءات «المحرقة» أو التطبيع مع العدو الصهيوني قد يساعد على كسب الغرب إلى جانب القضية العربية.

في الحقيقة، إن الخطأين وجهان لعملة واحدة، عملة عدم إدراك العلاقة العضوية بين الصهيونية من جهة، والإمبريالية والاستعمار من جهة أخرى. والخلاصة إننا لسنا من مروجي الكراهية والبغضاء ضد أحد، ولكن الحركة الصهيونية والغرب حينما أتيا باليهود إلى فلسطين لإقامة مستعمرة فيها عرضوهم للخطر الشديد، فهما الخطر الحقيقي الذي يجب أن يحذره اليهود. ولسنا نحن الخطر، بل نحن شعبٌ لن يبخل بشيء من أجل استعادة أرضه، وسيستعيدها إن شاء الله ..

❄
❄ ❄ ❄
❄

العلاقة الصهيونية النازية
1933 - 1941

حياة الحويك عطية *

الموضوع المحدد لهذه الورقة هو تناول العلاقات الصهيونية - النازية في الفترة الواقعة ما بين عامي 1933 و1942. أي منذ وصول هتلر إلى السلطة في 30 يناير 1933 وحتى 1941 وإذا كان مما لا شك فيه أن هذه العلاقة قد مرت بإشكاليات متعددة متناقضة تندرج من التماهي الايديولوجي إلى العداء مرورا بالتعاون الوثيق وفق اتفاقات رسمية موقعة واتفاقات ضمنية مبرمجة، منها ما أعلن ومنها ما ظل طي ملفات التاريخ، بعد هزيمة الرايخ الثالث، واستسلامه بدون شروط، مما جعل أطنان الوثائق محظورة على الباحثين لسببين رئيسيين :

حرص المنتصر على تثبيت روايته الرسمية للتاريخ.

وحرص الذين تعاونوا بشكل أو بآخر مع المهزوم، على إخفاء هذا التعاون كي لا يلحقهم ما لحقه من تجريم، وكي يكون بإمكانهم الوقوف في مقدمة جوقة الاتهام والإدانة للإفادة من مكاسب الانتصار ودعم المنتصر.

وكون هذا الاتهام وهذه الإدانة، لم يقتصرا على الجانب الحدثي السلوكي في إدارة السياسة والحرب، وإنما تعدى ذلك بشكل أساسي إلى الايديولوجيا نفسها، فلا بد من البدء بمقدمة تقوم على مقارنة سريعة بين الايديولوجيتين الصهيونية والنازية (وتمر بالفاشية أيضا)، قبل الدخول في عملية الاستعراض التاريخي للفترة الحرجة المحددة أعلاه.

مع ملاحظة أن المقدمة، ولكونها لن تقدم إلا فكرة سريعة عن موضوع يحتاج الكثير الكثير من الإضاءات والكشف والتدقيق.

في كتاب بعنوان "un juif libre" صادر عام 1976 يقوم الباحث ميشال راشلين بمقارنة مقتطفات من كتاب كفاحي ومن التوراة، ليخلص إلى تطابقها.

وفي كتاب آخر بعنوان "L'histoire du méchant Dieu" صادر عام 1988 يتابع باحث آخر هو بيير غريباري المقارنة ذاتها ليخلص إلى القول :

«شئنا أم أبينا، والنصوص هنا واضحة تماماً : أن قانون موسى هو قانون عرقي، بل إنه (وعلينا ألا نتردد في القول)، القانون الكلاسيكي الأكبر من هذا النوع، النص الأقدم، والأكثر عنفا الذي يبشر بعرقية ايديولوجية تبدأ من المقاربات الأولى وحتى أقصى حدودها.

صحيح أن البشر لم ينتظروا التوراة ليقتتلوا، ولكن ما من نص جعل المذابح فرضاً دينيًا بسبب عدم نقاء عرق الآخر. فاليهودية هي حقا العنصرية ذات الحق الإلهي».

* باحثة من سوريا

وفي هذا يقول هانز ف.ك. غونثر : «إن وعي الدور ـ المهمة أو الرسالة لدى هتلر هو مشدود بقوة ذات طبيعة شرقية».

كما يقول ناحوم غولدمان :

«ثمة هوية أساسية لدى الألمان النازيين واليهود هي مواجهة المصير المشترك كمهمة إلهية».

وعندما سئل المنظر العرقي جوليوس سترايشر في محكمة نورغبرغ، عما إذا كان قد شارك في وضع القوانين العرقية التي وضعت في مؤتمر الحزب النازي عام 1935، أجاب : «نعم إنني كنت أكتب منذ سنوات مطالبًا بمنع اختلاط الدم اليهودي بالدّم النازي، وقلت أن علينا أن نأخذ العرق اليهودي أو الشعب اليهودي نموذجًا... فالقوانين اليهودية هي التي اتخذت نموذجا (لقوانين نورنبرغ)... إنه أصل اليهودية التي استطاعت بفضل قوانينها العرقية أن تستمر طوال قرون في حين انقرضت جميع الأعراق والحضارات الأخرى.

وفي هذا السياق يلاحظ حاييم كوهين الذي كان قاضيًا للمحكمة العليا في إسرائيل : «إن سخرية القدر قد أرادت أن تكون الطروحات العرقية والبيولوجية التي تبناها النازيون وكانت وراء قوانين نورنبرغ، هي نفسها التي يبنى عليها تحديد صفة اليهودية في دولة إسرائيل».

ويتوجب التوقف هنا لملاحظة أمرين :

1 ـ التماهي الواضح، في جواب سترايشر بين مصطلحي : العرق والشعب. مما يترجم الايديولوجيتين : النازية والصهيونية. في حين إن مصطلح الشعب في جميع النظريات غير العنصرية يعني ذلك الكيان الذي تذوب فيه جميع الأعراق في وحدة لا تقر بالتمييز.

2 ـ اعتبار عدم اندماج اليهود : استمرارًا واعتبار اندماج الأعراق الأخرى في مزيج حضاري مجتمعي (وهذا ما نفهمه نحن بالقومية) : انقراضًا.

وهذا ما يذكر بمقولة لباحث يهودي معاد للصهيونية هو غومبلو ويتش، الذي اعتبر أن كل مشكلة اليهود تكمن في أنهم «لم يعرفوا أن يذوبوا ويندمجوا كالفينيقيين»، مقولة جعلت ثيودور ليسنغ الصهيوني يقول عنه بأنه «نموذج لكره الذات».

وإذا ما اعتبر قائل أن هذا المفهوم العرقي هو واضح لدى اليمين الصهيوني، في نظرية كاملة تعنونها مقولة جابوتنسكي الشهيرة :

«إن مصدر الإحساس القومي موجود في دم الإنسان، في نمطه الفيزيائي ـ العرقي، وفيه فقط... إن الرؤية الروحية للإنسان تحددها أساسا بنيته الفيزيائية، لهذا السبب لا نؤمن نحن بالاندماج الروحي.

إنه من غير القابل للتصور، من الوجهة الفيزيائية، أن يتمكن يهودي ولد في أسرة ذات دم يهودي نقي، من أن يتأقلم مع الرؤية الروحية لألماني أو فرنسي. يمكن له أن يغرق في سائل جرماني. لكن نواج بنيته الروحية تظل أبدا يهودية».

فإن اليسار الصهيوني لا يختلف كثيرًا عن هذه الرؤية، حيث نجد بن غوريون يدين الاندماج بقسوة بل ويحتقر اليهود المندمجين «وذلك ما يؤكده ويتبناه شيمون بيريز في كتاب لروبرت ليتل صادر عام 1996 بعنوان : "Conversation avec Shimon Peres" ، مما يتماهى تمامًا مع النظرية النازية التي كانت تصنف اليهود إلى نوعين : اليهود المندمجين هؤلاء أعداء النازية، واليهود الصهاينة وهم الحلفاء الممكنون.

مما عبر روبرت ويلتش رئيس تحرير جودش راندشو

(المجلة اليهودية) في افتتاحية عدد 4 نيسان 1933، بالقول : «لقد قدمت النازية فرصة تاريخية لتأكيد اليهودية واستعادة الاحترام الذي فقده اليهود بالاندماج. إنهم مدينون لهتلر وللنازية».

وواره سلو فريداندر ي كتاب صادر عام 1997 بعنوان "L'allemagne nazie et les Juifs" » عن دار سوي في فرنسا. ليضيف :

«لقد كان مفهوم العرق، المحدد مجموعة ميزات فيزيائية وذهنية، تتناقل داخل المجموعة بقوة التقاليد بل والجينات، قد استعمل من قبل اليهود أنفسهم من موشيه هس إلى مارتن بوبر، خاصة في ثلاث محاضرات ألقاها بوبر في براغ عام 1911 ونشرت تحت عنوان «ثلاث خطب في اليهودية» واستمر هذا المفهوم في ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية. حيث نجد لودويغ هولاندر رئيس الجمعية المركزية للمواطنين الألمان ذوي الديانة اليهودية (zentralverin) يؤكد عام 1928 في مطالعة الصعوبات التي تواجهها الطائفة اليهودية، إن اليهود قد شكلوا عرقًا، منذ المرحلة التوراتية، بسبب أصلهم المشترك، لكنه يتساءل عما إذا كان هذا المفهوم مازال ينطبق على اليهود المعاصرين مجيبًا : ما يزال النسب قائما. وبتعبير آخر ما تزال المميزات العرقية موجودة حتى ولو خففت القرون من حدتها. إنها ما تزال حاضرة في الملامح الفزيائية والذهنية».

كذلك يورد فريدلاندر منشورًا أصدره عام 1932 الكاتب الصهيوني غوستاف كروجانكر بعنوان (حول مشكلة القومية الألمانية الحديثة) يؤكد فيه أن المرد الصهيوني على الليبرالية هو تلبية لفرائض الدم، ويجب أن يسمح بفهم عميق للتطور السياسي الحاصل في ألمانيا.

وإذا كنا نتوقف عند هذا المنشور لكونه صادرًا بام 1932 أي في العام السابق لوصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا، بعد أن مررنا بـ 1911 و1928 فإن المجال لا يتسع لاستعراض نظريات موشيه هس الذي أشار إليه فريدلاندر، والذي عاش في القرن التاسع عشر (1812-1875)، ودعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين بدعم من نابوليون الثالث، والمعروف بعبارته الشهيرة : «إن ما يصنع التاريخ هو صراع الطبقات والأعراق» وبتأكيده على التعارض الجذري بين العرق الآري والعرق السامي.

كذلك لا يتسع لاستعراض علاقات هرتزل بغياتسلاف بلهيلف وزير القيصر اللاسامي عام 1903.

أو لاستعراض العدد الكبير من الدراسات والكتب حول العرقية اليهودية، من مثل : «اليهود كعرق» للدكتور انياسي موريسي جودث اليهودي البولوني (القرن 19) أو «مشكلة العرق» لاينياس زولشان اليهودي النمساوي (1909). أو كتب هاكل، غوبينو أو الأمريكي موريس فرشبرغ «العلاقات العرقية المميزة لليهود» (1912) أو «اليهود كعرق أو كمجموعة ثقافية» لليهودي الألماني فريتز خان إلى كتابات اليهودي البروسي ارثور روبين (1930) الذي استقر في فلسطين بام 1907 وأصبح مديرا للاستيطان في المنطقة الصهيونية العالمية منذ عام 1926. وسنعود إليه عند تناول اتفاقية الهافارا.

في نقطة أخرى يؤكد زئيف ستيرنهيل، الباحث الإسرائيلي، في كتاب صدر عام 1996 أيضا بعنوان : Aux origines d'Israel, Entre Nationalisme et Socialisme إن الصهاينة العماليين الذين كانوا يديرون الوكالة اليهودية لم يكونوا اشتراكيين ديمقراطيين، بل قوميين - اشتراكيين متأثرين بالقومية الألمانية Volkisch وبنظرية سوريل حول الأسطورة.

وهذا ما يؤكده حديث هؤلاء عن «قوة الأسطورة» وعملهم

عليها، بدءًا من ثيودور هرتزل الذي استعرض سلبيات كثيرة لفلسطين (كوطن قومي لليهود) لكنه استطرد أنها كلها لا توازي قوة الأسطورة.

الأسطورة التي لا تقوم عنصريتها فقط على نقاء العرق، رفض الاندماج، والعزل العرقي. وذلك ما سنعرض في الاستعراض التاريخي، بل وأيضا على مبادئ : الإبادة العرقية، والترانسفير.

فإذا كان الحل النهائي النازي قد عنى كما أثبت المؤرخون : ترانسفير اليهود خارج الرايخ الثالث، أو نقلهم إلى المعتقلات. دون أن يعني الإبادة الممنهجة، حيث مات من مات في هذه المعتقلات بشكل لا إنساني مثلهم مثل سائر المعتقلين.

فإن الترانسفير اليهودي الصهيوني الممنهج ضد سكان فلسطين، والإبادة الجماعية لهم، تمتد منذ يشوع إلى شارون، مرورا بكل قادة إسرائيل.

«فسمع الرب لقول إسرائيل ودفع الكنعانيين محرومهم ومدنهم» (عدد 3/21).

«فضربوه هو وبينه وجميع قومه حتى لم يبق له شارد وملكوا أرضه» (عدد 35/21).

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبا كثيرة من أمامك... ودفعهم الرب إلهك وضربتهم فإنك تحرمهم... لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم» (تثنية 5-1/2).

وإذا كان حجر الأساس، المبرر لكل هذه المفاهيم الإنسانية هو الإيمان بفكرة التفوق، النابعة من مبدأ الختيار الإلهي الذي يصنف الناس إلى فوق ودون، فإن التفوق الاري، المرفوض مبدئيا وتطبيقيا إن هو إلاّ تجل حديث للتفوق اليهودي القديم الحديث.

من التوراة إلى الحاخام كوهين في كتابه «التلمود الصادر عن Payot في باريت عام 1986، حيث يقول : «يمكن توزيع سكان العالم إلى قسمين : إسرائيل والأمم الأخرى مجتمعة. إن إسرائيل هي الشعب المختار : عقيدة رئيسية».

إلى آخر تصريحات المسؤولين والحاخامات الصهاينة في إسرائيل وخارجها.

العلاقة التاريخية 1933-1942 :

ستقتصر هذه الورقة، كما هو عنوانها على العلاقة الصهيونية ـ النازية حيث أنه كانت هناك بعض المواقف اليهودية المختلفة، والتي لن نتناولها لسببين :

ـ تحديد الموضوع، وضيق المجال.

ـ إنها لم تكن ذات فاعلية تذكر، ولم تفضي إلى نتائج ذات أهمية في سير العلاقة وفي النتائج السياسية. بدءا من عام 1933 الذي تتحدد أهم محطاته بالقائمة التالية :

30 يناير : وصول هتلر إلى المستشارية.

5 أذار : حصول الحزب النازي على أكثرية في البوندستاغ.

13 آذار : إعلان مقاطعة ألمانيا من قبل المجلس اليهودي الأمريكي.

1 نيسان : تشريع إعادة تنظيم الوظائف العامة.

7 نيسان : تشريع إعادة تنظيم الوظائف العامة.

نيسان : رحلة تتشلار منفلستين إلى فلسطين.

21 حزيران : صدور ميموراندوم.

14 تموز : صدور قانون الجنسية.

7 آب : توقيع الهافارا.

30 آب : اعتراض الجمعية المركزية.

أكتوبر 33 : افتتاح خط بحري مباشر بين هامبورغ وحيفا لنقل المهاجرين بإشراف حاخامية هامبورغ.

لم يكن تعيين هتلر في منصب المستشارية كافيًا لسيطرة سياسة حزبه إلا بعد حصول الحزب على أكثرية في البوندستاغ في 5 آذار 1933، وبعد ذلك بثمانية أيام فقط، (40 يوما من وصوله هو) طرح جوزيف تونتيوم أحد قادة المجلس اليهودي الأمريكي مقاطعة ألمانيا، ولم تكن الفكرة جديدة كونها طرحت أيضا قبل ذلك بعامين.

وظهرت تلبية سريعة للفكرة في بريطانيا حيث ظهرت على واجهات المحلات شعارات مقاطعة للبضائع وللسياح الألمان.

لكن رئيس اتحاد صهاينة ألمانيا، ورئيس الجمعية المركزية للألمان ذوي الديانة اليهودية، أعلنا معارضتهما لسياسة المجلس اليهودي الأمريكي، وخرجت مظاهرات ترفع هذا الاحتجاج في ألمانيا، لتقابلها في اليوم التالي مظاهرات أخرى في عدة مدن أميركية.

ورد هتلر بطريقة تدريجية، أولا بتنظيم يوم رمزي لمقاطعة المؤسسات التجارية اليهودية. لكنه لم يكن ينوي أكثر من ذلك، حرصا على عدم التسبب فيما يضاعف الأزمة الاقتصادية في بلاده، وعندما تعرضت شبكة تيتز التجارية الكبيرة اليهودية للإفلاس، أمر بصرف قرض كبير لإنقاذها.

لكن مقاطعة البضائع الألمانية تنامت في الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، تشيكوسلوفاكيا، رومانيا، وبلونيا.

وإزاء هذا التأزم كان هناك موقفان : موقف الجمعية المركزية لليهود والألمان ذوي الديانة اليهودية. برئاسة لودويج هولاندر الذي كان يرفض الصهيونية، ويرفض أية ادعاءات تقول أن اليهود عرق مختلف.

ويؤمن بالانتماء إلى الأمة الألمانية، ويعارض أية تدابير ضد ألمانيا.

وموقف المنظمات الصهيونية، الذي تحدد علنا بصدور ميموراندوم 21 حزيران، عن المنظمة الصهيونية في ألمانيا (Z.V.F.D)، والذي يقول عنه المؤرخ فرنسيس نيقوزيا :

«يبدو وكأنه يدعو إلى تعاطف مع نظام هتلر، ويطرح كون الصهيونية متوافقة مع مبادئه».

وقد جاء فيه :

«لا تبني الصهيونية أي وهم حول صعوبة الوضع اليهودي، الذي يتمثل أساسًا في بنية اجتماعية غير طبيعية، ووضع ثقافي فكري غير متجذر في تراث خاص. لقد استشرقت الصهيونية منذ وقت طويل، أن ظواهر تراجع وتخلف لم تتأخر عن الظهور بسبب الميل إلى الاندماج، وتعتقد الصهيونية بأن انبعاث الحياة القومية للشعب، الذي يحصل اليوم في ألمانيا، مع التشديد الذي يتم على جذوره المسيحية؛ وطابعه القومي، هو ما يجب أن يحصل داخل المجموعة القومية اليهودية، وبالنسبة للشعب اليهودي أيضا : أن الأصل القومي، الدين، حس المصير المشترك، وحس فرادته وتفوقه يجب أن تتخذ معنى حاسما في الوقت الذي يبنى فيه مستقبله...

ونحن نعتقد أن ألمانيا الجديدة، تحديدا، هي التي تستطيع بفضل إرادة مصممة أن تجد حلاً لمسألة يجب أن يحل لدى سائر شعوب أوروبا... إن اعترافنا بالقومية اليهودية يقدم لنا أسس صداقة مع الشعب الألماني وحقائقه الواقعية القومية والعرقية، ولأننا تحديدا، لا نردي لا نتمنى تخريب هذه المعطيات الأساسية (فنحن أيضا ضد الزيجات المختلطة،

ونريد الحفاظ على نقاء الجماعة) فإننا نرفض كل تداخل في المجالات الثقافية... ولبلوغ هذه الأهداف العملية، تأمل الصهيونية في الحصول على تعاون حكومة حتى ولو كانت معادية لليهود. ذلك أنه لا مجال للمشاعر في حل المسألة اليهودية، بل لمعالجة مشكلة حقيقية يهم حلها جميع الشعوب، وفي هذا الوقت الشعب الألماني خاصة... إن الدعاية لصالح مقاطعة ألمانيا، كما تتم الآن وبطرق مختلفة، هي في جوهرها دعاية مناهضة للصهيونية».

وإذا كانت تصريحات كثيرة مشابهة قد تلت هذا الميموراندوم، سنعرض لها في حينها، فإن روبرت ويلش كان قد كتب في افتتاحية «المجلة اليهودية» (جودش رانشو) يوم 4 نيسان 1933 (مجلة Z.V.F.D) «إن النازية تقدم فرصة تاريخية لإعادة تأكيد الهوية القومية اليهودية، وسيستعيد اليهود الاحترام الذي فقدوه بسبب الاندماج، وسيطلقون انبعاثهم القومي الخاص. إن اليهود مدينون لهتلر...».

في 7 نيسان، تم إقرار قانون إعادة تنظيم الوظيفة العامة بهدف إبعاد الخصوم من صفوف الجهاز الحكومي بدءاً بالشيوعيين. غير أن ما عرف بـ «الفقرة الآرية» كان يستهدف اليهود، غير أن التطبيق العملي لم يطلعهم كثيرا لسببين :

1 ـ أن عددم كان قليلا في الجهاز الحكومي.

2 ـ تدخل جمعية قدماء المحاربين اليهود الذي أدى إلى استثناء جميع الذين قتل آباؤهم أو أولادهم في الحرب الأولى. وجميع اليهود الذين يعملون في خدمة الدولة منذ أول آب 1914.

وهكذا كان مصير القوانين التي تتالت بعدئذ حول : زيادة عدد الطلاب اليهود في المدارس أو بخصوص المحامين والأطباء أو الملكيات الزراعية أو المؤسسات الثقافية.

ولتكلل كلها بقانون الجنسية الذي حمل عنوان : «قانون إلغاء التطبيع والاعتراف بالمواطنة الألمانية» الذي كان يهدف إلى إلغاء التجنيس الحاص بين 9 نوفمبر 1918 و30 يناير 1933. وكان يستهدف بشكل خاص يهود أوروبا الشرقية. لكن ذلك لم يؤثر في التصريحات الإيجابية من كلا الطرفين.

لكن : ما هي العلاقات السياسية التي كانت وراء هذه الإعلانات المؤيدة المتحمسة؟

ما الذي كان يدور في الخفاء بين النازيين والصهيونية؟ وتحديدا بين هؤلاء ومكتب الشؤون اليهودية في الاستخبارات الألمانية؟

رحلة منغلستين

في ربيع (1933)، التقى أربعة أشخاص في محطة برلين، ليستقلوا القطاع إلى تريست، ومنها إلى ظهر الباخرة مارثا واشنطن، وهي باخرة كانت تحمل المهاجرين اليهود إلى فلسطين. الغريب في الأمر هنا يكمن في تشكيلة الفريق. زوجان يهوديان «تتشلر»، مرسلان من قبل الاتحاد الصهيوني في ألمانيا، وزوجان نازيان، (فإن ميلغن) مرسلان من قبل أجهزة الحكومة النازية. أما هدف هذه الرحلة التي دامت ستة أشهر، فقد كان القيام بتحقيق كامل قدر الإمكان، حول إمكانيات توطين يهود ألمان في فلسطين. ويتفق معظم المؤرخين على أنه لم تكن لأدولف هتلر أية سياسة متكاملة محددة حول المسألة اليهودية، حتى ليلة الكريستال المشهورة ليلة 10/9 نوفمبر 1938، وإقرار تشريع حول غير الآريين، بعد ذلك بأسبوع.

هذا الموقف غير المحدد ترك الحرية شبه الكاملة لمكتب الشؤون اليهودية في الاستخبارات الألمانية (S.S) لتجريب

مختلف السياسات الممكنة. وفي سياق ذلك جاءت رحلة البارون ليود بولد التي نسيت كليا اليوم .

وذلك رغم أن ميلغنستين لم يكن شخصًا هامشيًا أو غير جاد. فهو عضو في (N.S.D.A.P) وضابط كبير في الأجهزة السرية. كما أنه قد سبق وكلّف قبل عام (1933) بتقديم تقرير دقيق حول الهجرة اليهودية باعتبار أن الحكومة لم تتوصل إلى حل مرضي إلى هذه القضية. مما مكّن الاستخبارات من أن تمتلك، وقبل سواها من أجهزة السلطة، عناصر ملموسة ودقيقة جعلتها تمسك بزمان المسألة اليهودية من عام (1934) إلى عام (1936) باعتبارها التنظيم الوحيد الذي يمتلك معلومات دقيقة حول هذا الموضوع. كان ميلغنستين مهندسا ولد في براغ عام (1902)، واهتمّ منذ مرحلة الدراسة، بالمسألة اليهودية، وشارك في اجتماعات الفئات اليهودية المختلفة. ثم التحق بصفوف الاستخبارات الألمانية باعتباره واحد من الخبراء النابغين في موضوع اليهودية وكصهيوني متحمّس، كان من أول من رأوا أهمية وجود المنظمات الصهيونية، وخاصة المراجعة منها، داخل صفوف المجموعة اليهودية.

كتب ميلغنستين في حينه سلسلة من اثنتي عشرة مقالة موثقة تمامًا، تحت عنوان «نازي يترحل في فلسطين»، وذلك في الصحيفة البرلينة اليومية Der Angriff التي كان يشرف عليها الدكتور غوبلز. وفي هذه المقالات يعرب بن إعجابه الشديد بالصهيونية وبالروح الرياضية لدى المستوطنين اليهود الأوائل. ويخلص إلى استنتاج مفاده «أن الوطن القومي لليهود في فلسطين سيكون علامة على وسيلة لشفاء جرح قديم يعود إلى عدة عصور هو : المسألة اليهودية». وقد ضربت، تخليدا لذكرى هذه الزيارة ميدالية خاصة بطلب من غوبلز شخصيًا كانت تحمل على أحد وجهيها إشارة السويستيكا (أي الصليب المعقوف) وعلى الوجه الآخر نجمة داوود. بعد ذلك ببضعة أشهر، عين ميلغنستين في قسم الشؤون اليهودية في وزارة الأمن النازية. وذلك ليقوم بدعم أكثر فعالية لجهود الصهاينة المتعلقة بالهجرة. «لقد أصبحت أجهزة الاستخبارات، كما كتب برنا، الجزء الأكثر صهيونية في الحزب النازي. في حين كان النازيون الآخرون يتحدثون عن ضعفها إزاء اليهود. وقد ازداد حماس البارون فإن ميلغنستين للقضية الصهيونية بعد زيارته إلى فلسطين. مما دفعه إلى دراسة العبرية وجمع الأشرطة الناطقة بهذه اللغة. وأصبح على رأس الدائرة اليهودية في جهاز الأمن النازي وعندما قام صديقة (اليهودي) كورت توتشلر، الذي رافقه إلى فلسطين، بزيارته في مكتبه الجديد عام (1934)، استقبله وفق الطقوس الفلكلورية التقليدية اليهودية. وكانت على جدران مكتبه خرائط تبين التطور السريع للصهيونية في ألمانيا».

ومن سخرية القدر أن ميلغنستين هو الذي عين ألولف ايخمن في قسم الشؤون اليهودية في جهاز الأمن. وعندما جرت محاكمة ايخمن في إسرائيل بعد ذلك بسنوات، باعتباره «منظم الحل النهائي»، كان عليه أن يشهد «بأن ميلغنستين كان رجلاً معتدلا ومنصفا مخلصًا في جهوده لإيجاد حل عادل للمسألة اليهودية».

على إثر هذه الرحلة وإثر مناقشات عديدة أعلنت صحيفة الأجهزة السرية (Das Schawarze Korps) رسميًا دعمها للصهيونية. يلم يعد بعيدًا الوقت الذي تصبح فيه فلسطين قادرة على استقبال أبنائها الذين فصلوا عنها أكثر من ألف عام وترافقهم تمنياتنا الطيبة وتمنيات الدولة».

كان هذا التطور في العلاقة، مترافقًا مع تطور تفاقم الحصار الاقتصادي الدولي على ألمانيا، مما ولّد فكرة مقايضة كسر

المقاطعة مقابل تفعيل وتنظيم الهجرة إلى فلسطين، هذه الفكرة والتي أودت في النهاية إلى ما يعرف باتفاق الهافارا.

البداية كانت فكرة لسام كوهين مدير شركة المستوطنات (هانوتا) في فلسطين، عرضها على قنصل ألمانيا هنريتش وولف، لتحقيق «فائدة مزدوجة» للطرفين. تقضي بأن تقوم الشركة بكسر الحصار الاقتصادي على ألمانيا، مقابل تنظيم هذه الأخيرة لهجرة اليهود إلى فلسطين، لا إلى مكان آخر، بحيث يودع المهاجرون أموالهم في ألمانيا فتشتري بها هانوتا بضائع ومعدات زراعية، ليس فقط للمستوطنات وإنما لإغراق السوق العربي، وتعيد للمستوطن ما أودع مستفيدة هي من الأرباح.

وعندما وافقت ألمانيا، أعلنت المنظمة الصهيونية العالمية موافقتها على المبدأ لكنها أسفت لأن الاتفاق عقد مع شركة خاصة.

ودار خلاف أنهاه الألمان بأن جمعوا سام كوهين ومساعده في هانوتا، مع مندوب اتحاد صهاينة ألمانيا، وشخصين قدما من فلسطين هما مدير البنك الانكلو فلسطيني ومدير الاستيطان في المنظمة الصهيونية العالمية أرتور روبين، وانتهى الأر باضطرار كوهين للتنازل وتأسيس وحدة تحت إدارة اليعازر هوفمن وذلك بعد تدخل حاييم أرلوزوروف مبعوث بن غوريون، الذي يؤكد توم سيغيف أنه ذهب للتمهيد للاتفاق وعاد قبل توقيعه ليغتال على يد الصهاينة المراجعين.

وفي يوم 7 آب 1933 تم التوقيع الرسمي على الاتفاق، في وزارة الاقتصاد الألمانية من قبل ممثلي الوكالة اليهودية، وارتور روبين ممثلا المنظمة الصهيونية العالمية من جهة، ومسؤول كبير في الرايخ الثالث من الجهة الأخرى.

وبعد تبادل الرسائل الرسمية بين الطرفين أنشئت لهذا الغرض شركة باسم بالترو في برلين، وأخرى باسم فراصكومباني في تل أبيب.

كما أنشئ خط بحري مباشر بين مينائي هامبورغ وحيفا، بإشراف حاخامية هامبورغ، استطاع أن يؤمن من بام 1933 إلى عام 1939 هجرة ستين ألف يهودي أي 10٪ من الطائفة (73٪ كانوا يفضلون أوروبا الشرقية/حتى عام 1938).

ونقل 140 مليون دولار، وذلك باعتراف الياهو بن اليسار، وفيلسنفيلد الذي كتب يقول :

«كان للنشاط الذي حركته الهافارا الأثر الأكبر على تطور البلاد، بل إن عددا من أهم المصانع والشركات الآن يدين بوجوده لها».

ويمكن فهم ذلك إذا ما عرفنا أنه كان على كل مهاجر أن يودع مبلغ ألف ليرة سترلينية على الأقل في حساب خاص في برلين (أي ما يساوي دخل أسرة بورجوازية لمدة ثلاث سنوات) كما يسمح له بإرسال بضائع تساوي قيمتها 20 ألف فرنك.

كان التعاون الألماني الصهيوني يستند إلى اتفاق موقع في آب (1933)، باسم اتفاق هافارا (الترانسفير)، عقد إثر عدة اجتماعات بين الحكومة الألمانية وحاييم أرلوزوروف الأمين العام للوكالة اليهودية، وهي الفرع الفلسطيني للمنظة الصهيونية العالمية. وبموجب هذا الاتفاق أنشأت شركتان : Havara Company في تل أبيب وBaltreu في برلين. وكان كل مهاجر يهودي ألماني يودع ألف ليرة استرلينية على الأقل في حساب خاص في ألمانيا (1000)، هي المبلغ الذي يشترطه الانجليز للسماح بالإقامة في فلسطين، وكان يشكل تقريبا دخل أسرة بورجوازية ألمانية لمدة ثلاث سنوات. كما يسمح

بإرسال بضائع تساوي قيمتها عشرين ألف فرنك وأحيانا أكثر، عن طريق البحر.

هذا المال المودع في برلين كان يتسعمل لشراء (بضائع ألمانية، آلات، أدوات، مضخات، مواد بناء، أسمدة... الخ) تنقل إلى فلسطين لتعيد شركة يهودية في تل أبيب بيعها هناك. أما دخل هذه المبيعات فيستعمل لتمويل اليهود الذين يصلون إلى فلسطين. كانت مصلحة ألمانية في ذلك تتمثل في كون الصهاية يقومون بخرق الحصار ضد البضائع الألمانية ويقومون بتوزيعها بأنفسهم، كما تتمثل مصلحة هؤلاء في الخروج من العزلة وفي إجبار المهاجرين على الذهاب إلى فلسطين دون سواها.

ناقش المؤتمر الصهيوني المنعقد في أب عام 1933، في براغ، موضوع الهافارامناقشة طويلة بحضور مندوبين ألمان. رفضت خلالها المنظمة الصهيونية العالمية اقتراحا بالمساهمة الفعالة في الحصار المفروض على ألمانيا. وأحيل اتفاق الهافارا إلى المؤتمر الصهّيوني التالي المنعقد في آب وأيلول (1935) في سويسرا، حيث تمت الموافقة عليه وتصديقه : وفي مؤتمر لوسيرن انتقل نظام الهافارا إلى الرقابة المباشرة للجنة التنفيذية الصهيونية، من ضمن نقل جميع العمليات التي كانت حتى ذلك الحين مناطة بالبنك الانغلو ـ فلسطيني. وقد سمح للمنظمة الصهيونية العالمية بفتح مراكز تدريب مهني وزراعي للمرشحين للهجرة في ألمانيا. كما نظمت دروس بالعبرية في المدن الكبرى وأصدرت صحيفة صهيونية باسم (Judishe Rundschau) مهمتهاصإيصال الخطاب الصهيونيي إلى الأسر والمنازل. ولم تتوقف الهافارا عن العمل مع إعلان الحرب. والمهم أن ما ظل مجهول حتى الآن هو أن عدة دول أخرى قد قدمت نظام الهافارا، من مثل بولونيا عام 1937 تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وإيطاليا عام (1939).

كانت أعمال الهافارا، في معظمها، عبر شركات تأمين قائمة في ألمانيا وفي «فلسطين». فقبل ترك ألمانيا، يودع المهاجر اليهودي أمواله لدى شركة تأمين ألمانية، وتقوم بدورها باستعمال هذه الأموال في شراء التجهيزات والبضائع الألمانية وإرسالها إلى فلسطين. ومن ثم يقوم الزبائن الذين نظموا طلبيات هذه البضائع الألمانية في فلسطين، بدفع أثمانها إلى شركة تأمين محلية، تعيد إلى المهاجرين اليهود الواصلين من ألمانيا المبالغ التي دفعوها هناك. كان النظام معقدا وثقيلا، لكنه مربح بالنسبة لجميع الفرقاء : فالرابخ يتخلص بواسطته من يهوده، ويكسر الحصار الذي فرضته عليه المنظمات اليهودية الأمريكية، ويشغل مصانعه. في حين أن الصهاينة أنفسهم يتمكنون بواسطته من اختيار نخبة اليهود الصهاينة لإرسالهم إلى فلسطين كهدف إلزامي. ذلك أن الصهاينة كانوا قد تصدوا عدة مرات لمنع إمكانيات هجرة يهود ألمانيا وأوروبا الشرقية عندما لم يكن البلد المقصود هو فلسطين. وبتلك الطريقة تم نقل حوالي مئة وثلاثين مليون دولار، وهو مبلغ ضخم ساعد في التنمية الاقتصادية للدولة العبرية فيما بعد. كما وصل عدد اليهود الذين هاجروا من ألمانيا (1933) و(1939)، بفضل نظام الهافارا، إلى660 ألف يهودي أي حوالي 10٪ من مجموع يهود ألمانيا. و15٪ من مجموع يهود فلسطين عام (1939). وكانت هذه الهجرة تتم في ظروف ممتازة. حيث يروي توم سيغيف مثلا أن المهاجرين اليهود الذين صرفوا من أعمالهم، ظلوا يتقاضون تعويضات البطالة من صندوق مالية الرايخ الثالث حتى وهم موجودون في فلسطين.

لم تكن الوكالة اليهودية المسؤولة عن الهجرة إلى فلسطين

والتي يسيطر عليها الصهاينة تهتم بالوضع الصعب الذي عيشه يهود ألمانيا، بل أن اهتمامها كان ينصب على إمكاناتهم وقدرتهم على العمل... الخ، «أن المادة البشرية القادمة من ألمانيا تصبح أسوأ فأسوأ ـ تعلن الوكالة اليهودية مستنكرة في عام (1934) ـ ليس لديهم الرغبة في العمل ولا الكفاءة، وهم بحاجة إلى مساعدة اجتماعية». كذلك يذكر توم سيغيف أن المنظمة «أرسلت عام (1935) إلى برلين قائمة بأسماء الأشخاص الذين يتوجب ألا يسمح لهم بالذهاب إلى فلسطين». كما يكشف سيغيف عن أن مسؤول العمل الاجتماعي في الوكالة اليهودية قد طلب عدة مرات أن تعاد بعض هذه «الحالات» من المرضى أو المحتاجين إلى ألمانيا النازية كي لا تصبح عبئًا على (اليوشفيم) أي مجموعة الرواد. كما أن الوكالة اليهودية اشتكت من استقبال عدد كبير من رجال الأعمال الذين لديهم أطفال في حين أنه يجب إعطاء الأفضلية للعازبين. وفي عام (1935) تقرر أن تعطي أذونات الهجرة بحيث «لا يكون هناك أي مجال للشك بأن هؤلاء المهاجرين يمكن أن يشكلوا عبئا على البلاد (..) وكل من ينصرف إلى التجارة أو إلى أي نشاط أخر لا يتلقى إذن الهجرة بأي حال من الأحوال، إلا إذا كان أحد الصهاينة المتحمسين».

ومن عام (1933-1935) رفضت المنظمة الصهيونية العالمية ثلثي طلبات الهجرة التي قدمها يهود ألمانيا، مفضلة إعطاء الأولوية وبشكل منهجي، للشباب، ويصف بريل كازنيلسون صحاب جريدة دافار الصهيونية العمالية هذا «المعيار المجرم الذي تبنته الصهيونية» بقوله : «لقد كان يهود ألمانيا متقدمين في السن مما لا يسمح لهم بإنجاب أطفال في فلسطين، كما أنهم لم يكونوا يملكون المهن والحرف التي تساعد في إنشاء مراكب صهيونية، إضافة إلى أنهم لا يتحدثون العبرية وليسوا صهاينة. وبدلا من هؤلاء اليهود المعرضين للإبادة استقدمت المنظمة الصهيونية العالمية ستة آلاف شاب من الذين تلقوا تدريبات محددة في الولايات المتحدة الأمريكية وانجلتراصودول أخرى ليس فيها أي خطر. بل أن الأسوأ من ذلك أن المنظمة الصهيونية العالمية لم تكتف بعدم البحث عن أي مبادرة لإنقاذ يهود ألمانيا، بل أن مسؤوليها قد عارضوا بشكل قاطع جميع الجهود التي كانت ترمي إلى إيجاد ملجأ لليهود الهاربين».

مما يلتقي مع ما أورده روجيه غارودي عن كتاب بار زوهار : «بن غريون النبي المسلح» من أن رودولف كاستنر فاوض ايخمن على أن يسهل هذا الأخير هجرة 1684 يهوديا نافعا إلى إسرائيل مقابل إقناع كاستنر لـ 46 زلف يهودي هنغاري بأن نقلهم إلى أشويتز مجرد تغيير لمحل الإقامة.

كما يؤشر إلى الفضيحة التي حصلت أثناء محاكمة ايخمن حيث طالب القاضي بمحاكمة كاستنر لأنه تدخل في نورنبرغ بشهادة كاذبة لإنقاذ أحد محاوريه من النازيين ولأنه أخفى أن تدخله كان باسم الوكالة اليهودية والمجلس اليهودي العالمي.

وفي 55/7/14 كتب الدكتور موشي كارين في آرتس مطالبًا بتجريم كاستنر لكن يدعوث احرونوث كانت قد أوضحت : «إذا حوكم كاستنر فإن الحكومة كلها ستتعرض للانهيار، نتيجة لما ستكشف عنه هذه المحاكمة.

وانتهى الأمر باغتيار كاستنر على سلم قصر العدل. ثم أصدرت المحكمة حكمًا ببراءته.

قوانين نورنبرغ

بعد النشاط المتسارع في تطبيق الهافارا، وفي عام 1934 كتب الحاخام جوهاتسيم برينز، الذي أصبح فيما بعد نائبًا

للمنظمة الصهيونية العالمية محييا «الثورة الألمانية» قائلا :

«نريد استبدال الاندماج بقانون جديد : الاعتراف بالانتماء إلى العرق اليهودي والأمة اليهودية. إن أمة مبنية على نقاء العرق لا يمكن إلا وأن تكون محترمة ومؤيدة من قبل اليهودي، الذي يعلن انتماءه إلى شعبه الخاص وإذ يعلن أنه كذلك فلا يمكنه بالتالي أن يدين بالولاء والانماء لدولة. هذه الدولة لا تريد يهودا إلا أولئك الذين يعلنون انتماءهم إلى أمتهم الخاصة، لا تريد يهودا مادحين وزاحفين. عليها أن تطلب منا الإيمان والولاء لمصالحنا الخاصة. لأن الذي يمجد أصله ودمه هو وحده الذي يستطيع أن يحترم ويمجد الإرادة القومية للأمم الأخرى».

هذه الرغبة، لبتها في العام التالي 1935، قوانين نورنبرغ، وهي القوانين المعروفة بـ : قانون علم الرايخ.

قانون المواطنة

قانون حماية الدم والشرف الألمانيين.

وأول ما يلاحظ أنه قد حرم على اليهود رفع علم الرايخ، لكنهم كانوا الجماعة الوحيدة التي سمح لها برفع علمها الخاص.

كما يلاحظ أن قاسمًا مشتركًا جمع بين رؤية هتلر، والألمان، والصهاينة لهذه القوانين.

فحيث نقلت صحيفة الحزب النازي أن الفوهرر التقى مسؤولي الحزب ليوضح لهم أن هذه «القوانين القومية الاشتراكية تمثل الطريقة الوحيدة لإقامة علاقات مقبولة مع اليهود... وتقدم لهم في كل مجالات حياتهم القومية (فولكش) إمكانيات لم تتوفر لهم في أي بلد آخر».

كما نجد مؤرخا إسرائيليا (ديفيد بانكييه) يؤكد على أن الألمان أيدوا هذه القوانين لأنها «تتناغم مع السياسة العنصرية» ويتثبت حدودا للأنشطة اللاسامية».

وكذلك يؤكد سول فريدلاندر أن اليهود الألمان اعتقدوا أن هذا التشريع الجديد سيرسي بنية معترفًا بها...

وتنشئ قاعدة جديدة للعلاقة بين الشعب الألماني واليهود الذين يعيشون في ألمانيا».

وفي 26 أيلول صدرت (دار شورازكوربس) جريدة الأجهزة السرية لتقول :

«إن الاعتراف بالمجموعة اليهودية كجماعة عرقية تقوم على الدم لا على الدين تقود الحكومة الألمانية إلى ضمانة الوحدة العرقية لهذه الجماعة. وتجد الحكومة نفسها على اتفاق تام مع الحركة الكبيرة لهذه الجماعة التي تسمى الصهيونية، التي تعترف بتضامن جميع يهود العالم ورفضها لأي مفهوم اندماج. وعلى هذا الأساس تتخذ ألمانيا المبادرة إلى تدابير ستلعب بكل تأكيد دورا ذا دلالة في حل المسألة اليهودية في العالم».

لتأتي ردود فعل الصهاينة الألمان أكثر حماسا فنجد (جودش راندشو) تنشر في اليوم التالي (17 أيلول) افتتاحية حماسية جاء فيها :

«إن ألمانيا... تستجيب لمطالب المؤتمر الصهيوني العالمي إذ تعلن أن اليهود المقيمين حاليًا في ألمانيا هم أقلية قومية. ففي حال الاعتراف باليهود كأقلية قومية يصبح من الممكن من جديد إقامة علاقات طبيعية بين الأمة الألمانية والأمة اليهودية. وتقدم القوانين الجديدة للأقلية اليهودية الفرصة لأن تعيش حياتها الخاصة... باختصار يمكن للشعب اليهودي أن يكون مستقبله الخاص في كل مظاهر حياته القومية... والمشروع

الذي يمضي من حالة الطائفة إلى حالة الأمة سيحظى بالتشجيع، كما ستقدم المساهمة لإرساء علاقات فضلى بين الأمتين».

كذلك تبنت مجلة دايراسرائيليت مجلة اليهود الأرثوذوكس الموقف نفسه وعبّرت عن تأييدها المطلق لمنع الزيجات المختلطة (19 أيلول 1935).

وبالمقابل كانت صحيفة داز شوارسكوبس قد نشرت افتتاحية يوم 15 آذار 1935 جاء فيها : «لم يعد بعيدًا الوقت الذي تستطيع فيه فلسطين أن تستقبل أبناءها الذين فصلوا عنها طيلة أكثر من ألف سنة. فلترافقهم تمنياتنا الطيبة، وحسن نية الدولة».

وبعد شهرين كتب هيدريش في الصحيفة نفسها :

«يدعو الصهاينة إلى مفهوم عرقي تمامًا. ويساعدون عبر الهجرة على بناء دولتهم اليهودية الخاصة، إن تمنياتنا الطيبة وحسن نيتنا الرسمية معهم».

ذلك عبر المنظر العرقي الفرد روزنبرغصعن دعمه الكامل للصهيونية، في حوار مع صيحفة L'echo de Paris عدد 30 أيار 1935.

حيث كان مسؤولو الرايخ ينتظرون من الصهاينة تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين. وفي هذا يورد فرانسيس نيقوزيا، ما كتبه هانزل مريدنثال رئيس اتحاد صهاينة ألمانيا :

«كان الغستابو يعمل كل ما في وسعه لتشجيع الهجرة، خاصة باتجاه فلسطين. وغالبا ما كنا نتلقى مساعدته عندما كنّا نحتاجها لدى حكومات أخرى بهدف تشجيع الهجرة».

وفي السياق ذاته حمل جورج لاندور، حد موقعي الهافارا، رسالة من بن غوريون مؤرخة 21 يناير 1935 تحمل تفويض الوكالة اليهودية له لمناقشة قضايا التدريب المهني للمرشحين للهجرة. وكان هناك حتى ذلك التاريخ أربعين مركز تدريب مهني وزراعي تعمل على ذلك. وبأمر من هيدريش وضعت مزارع تحت تصرف الصهيانة ونظمت دروس بالعبرية في عدة مدن».

وربما يكون لذلك علاقة بالمعايير الانتقائية التي حرصت عليها الوكالة اليهودية في منع أذونات الهجرة بعد أن اشتكت عام 1933 من أن «المادة أو البضاعة البشرية الواردة من ألمانيا تسير من سيء إلى أسوأ».

وبعد أن احتجت هنريبتا سزولد التي كانت تدير وحدة العمل الاجتماعي في الوكالة على وجود المرضى والمحتاجين بين المهاجرين. ومن حين لآخر كانت تطالب بإعادة بعض هذه «الحالات» إلى ألمانيا كي لا يصبحوا عالة على اليشوف».

(توم سيغيف)

في الوقت ذاته، أي بداية 1935 عين مندلستين أدولف ايخمن مسؤولاً عن العمل على الصهاينة في حين كلف شرودر بالعمل على اليهود المندمجين. ويؤكد مؤرخ هينزصوهن أن اخمن لم يكن لا ساميًاصبل كان في أسرته يهود وكان يعاشر فتاة يهودية، ويدين بموقعه في عالم المال لليهود.

وأنه عكف على دراسة الحركة الصهيونية واللغة العبرية بعد تعيينه، وكتب عام 1936 رسالة حول المنظمة الصهيونية العالمية.

وكانت الأجهزة السرية ما تزال مقسومة إلى فرعين (S..D) والغستابو، تجمعهما رئاسة هيدريش مما ترك لاخمن هامشًا من حرية التصرف.

أما مندلستين (رئيسه) فكان يعلن تعاطفه العميق مع الصهيونية وازدراءه للاسامية جوليوس سترايشر، وقد «قام -

كما يقول توم سيغيف - بنشر الصهيونية لدى الجمهور الألماني، وكان ينقل معلومات لتاتسلار (المسؤول الصهيوني الذي رافقه إلى فلسطين) حتى بعد استقرار هذا الأخير في فلسطين.

وعندما ترك مندلستين الجهاز السري (S.D) عام 1936 حل محله ديتر ويزلسنسي الذي لم يكن أقل تعاطفاً مع الصهيونية.

لكن التطور الخطير، الذي يحاول التاريخ الرسمي طمسه هو ما حصل في نهاية 1937 وما أورده توم ستيغيفتفصيلاً في كتاب «المليون السابع» حيث قام عضو بارز في الحزب النازي هو أوتوفون بودلشوينغ، صديق مندلستين، والمفاوض السابق في حيفا، بلفت نظر القسم الثاني في الأجهزة إلى الأهمية التي يمكن أن يمثلها التعاون مع الهاغانا عبر يهودي ألمانيا استقر في فلسطين يدعى ريشرت، وهو على علاقة وثيقة بفوفيل بولكس أحد مسؤولي هذه المنظمة.

هكذا وجهت الدعوة إلى بولكس لزيارة برلين، حيث استقبله ايخمن يوم 16 شباط 1937. وأكد بولكس لمضيفه أن المسؤولين الصهاينة راضون تماما عن السياسة التي تنتهجها الحكومة الألمانية والتي من شأنها تشجيع الهجرة. ووجه هذا المسؤول الإرهابي الدعوة لايخمن وهاجن لزيارة المستوطنات اليهودية في فلسطين. وعندما قدم ايخمن تقريره بذلك إلى رؤسائه قام فرانك سيكس باطلاع هيدريش عليه يوم 17 حزيران 1937 مقترحاً اعطاء ضمانات لبولكس تتمثل في «الضغط على المؤسسات التنظيمية القومية لليهود الألمان، كي تجبر المهاجرين اليهود على الذهاب حصرا إلى فلسطين وليس إلى أي بلد سواها».

دخلا حيفا عبورا، وزارا جبل الكرمل ثم ذهبا إلى الاسكندرية فالقاهرة حيث حاولا العودة بإذن من القنصلية البريطانية للاجتماع بوفد الهاغانا، لكن الانكليز رفضوا إعطاءهما التأشيرة. وكان أن جاء بولكس إلى القاهرة وحصل الاجتماع في مقهى غروبي.

التيارات الأخرى داخل الحكم الألماني والعرب:

ولكن، هل كانت جميع التيارات داخل الحكم النازي مؤيدة للصهيونية؟

هل كان التأييد واضحا لإقامة الدولة؟

إن رجلاً مثل بيلوشوانتي مدير ريفرات دوتشلاند، كان يعتبر أن إنشاء كيان يهودي في فلسطين ولو تحت السيطرة البريطانية، سيكون من شأنه تدعيم قوة المجموعة اليهودية العالمية.

وعندما علم عام 1934 أن مسؤولا صهيونيا ألمانيا هو سيغفريد شيرن قد ذهب إلى باريس لإقناع جابوتنسكي بتخفيف الحصار اليهودي على ألمانيا، وجه رسالة مفصلة لوزارة الخارجية يحتج فيها على السماح لأوساط يهودية ألمانية بالاتصال بأوساط يهودية عالمية لمناقشة أمور داخلية في الرايخ الثالث لا يجوز أن تناقش مع جهات خارجية، وكانت رسالته تعكس تحفظاً عميقاً إزاء الصهيونية.

كذلك كانت هناك أطراف داخل الأجهزة السرية نفسها تعتبر «أن إعلان دولة يهودية، أو قيام فلسطين تحت حكم يهودي سيخلق عدواً جديداً لالمانيا. خصماً سيكون له تاثير على مستقبل الشرق الأوسط» (تقرير أورده كارل شلونس) وأنه سيكون من شأن هذه الدولة أن تؤمن حماية خاصة للأقليات اليهودية في العالم، مؤمنة بذلك حماية شرعية لنشاط اليهودية العالمية».

جهة أخرى ثالثة كانت تعارض التقارب مع الصهيونية هي

«المنظمة المكلفة بالخارج» في الحزب النازي التي أنشئت عام 1930، وحصّلت وضعاً رسمياً عام 1934، وكان من المؤثرات في موقفها، موقف الجالية الألمانية في فلسطين (غير اليهودية) التي كانت تنظر باستياء إلى قدوم الهجرة اليهودية. وكان أكثر ما يزعج هؤلاء الألمان غير اليهود اضطرارهم للمرور عبر (الهافارا تراست اند ترانسفير أوفيس) لإجراء معاملاتهم مع الوطن الأم. وزاد استياؤهم بعد ثورة 1936، عندما قسم الانكليز البلاد بين العرب واليهود والانكليز، ووجدت المستوطنات الزراعية الألمانية نفسها في مناطق اليهود. في حين كان أصحابها يرفضون أن يكونوا في الدولة العبرية المقبلة.

في هذه الأجواء جاءت محاولات العرب لثني الألمان عن تشجيع الهجرة اليهودية إلى بلادهم.

وهذا لا بد من التوقف عند أمر طالما بدا مثيرا للجدل، وطالما استغله الصهاينة ضد العرب عبر شخص الحاج أمين الحسيني.

وهنا لا بد من سوق عدة حقائق :

أولها أنه كان لا بد للحاج الحسيني وهو يقود النضال الفلسطيني من الاتصال بكل القوى الكبرى المؤثرة في الوضع الفلسطيني - الصهيوني، وخاصة الهجرة. وأن ألمانيا كانت قبل الحرب واحدة من هذه القوى، مثلها مثل بريطانيا أو فرنسا أو سواها.

وثانيها أن هذه الاتصالات قد بدأت فعلياً حول اتفاق الهافارا... أي لوقف التعاون النازي - الصهيوني، ولم يكن الحسيني أول من بدأها.

لقد كانت أهم قوة عربية في حينها هي العراق - عضو الأمم المتحدة - وكان وزير خارجيتها يونس السبعاوي، من خريجي ألمانيا، يتقن الألمانية، وهو من ترجم كفاحي إلى العربية ولذلك اعتقد أن بإمكانه أن يتدخل بشكل أكثر فعالية. استدعى السبعاوي سفير ألمانيا لدى بغداد وأبلغه احتجاج بلاده على اتفاق الهافارا ورغبتها في وقفها. ورغم أن السفير وعد خيرا إلا أن شيئا لم يحصل.

بعد ذلك عقد مؤتمر بلودان في سوريا، وضم مئتي مندوب عربي، بحثوا التوراة في فلسطين وكان من بين ما تناولوه اتفاق الهافارا.

إثر ذلك قرر الحاج أمين الحسيني التدخل، فبادر إلى استدعاء القنصل الألماني في القدس، ثم أوفد مساعده يونس بحري، وبعده موفد آخر، تتالت الاتصالات، لكن جميع وعود وقف الهافارا لم تنفذ.

وحيث كان هناك - كما ذكرنا - تياران داخل الإدارة الألمانية بخصوص إقامة دولة يهودية في فلسطين، فقد شجع التيار المعارض لهذا المشروع الحاج أمين، كما حاول هو أن يراهن على هذا الجانب، في محاولة لا مجال هنا لتناول جميع تطوراتها.

انقلاب غوبلز - ليلة الكريستال

لكن سياسة الهجرة هذه تعرضت لضربة كبيرة، عام 1938، على يد متطرفي الحزب بقيادة غوبلز، مما يمكن أن نطلق عليه : «انقلاب غوبلز» لأن المؤرخ الألماني هينز هوهن يرى في اندلاع العنف ذلك «تمرداً من صفوف الحزب على الدور المهيمن للأجهزة السرية في سياسة الرايخ الثالث اليهودية. مضيفا أنه لم يكن من قبيل الصدفة أن غوبلز، معتمدا على سترايشر لم يستشر لا هيدريش ولا هملز. وأن هتلر نفسه وجد نفسه أمام الأمر الواقع.

لقد استغل غوبلز إقدام يهودي بولوني شاب على اغتيال الملحق الثقافي في باريس، احتجاجًا على إجراءات ترحيل اليهود البولونيين من ألمانيا، ليفجّر ليلة 9-10 نوفمبر 1938 التي عرفت باسم ليلة الكريستال حملة عنف رهيبة ضد اليهود.

وجن جنون هملر ورؤسائه فمن أعلن عن رعبه من المجزرة» ومن أعلن أن «ألمانيا» قد خسرت معركة أخلاقية» ومن عبر عن استيائه. الخ.... وتدخل غورينغ لإعلان غوبلز مسؤولا، بعمله الأرعن، عن الإساءة إلى سمعة ألمانيا في الخارج. ومن ثم أمر هتلر غوبلز بالتراجع وأوكل مسؤولية المسألة اليهودية إلى غورينغ وحده.

وفي حين فهم الجميعسأن هذه العملية هي ضربة موجهة لسياسة الهجرة، حسم هتلر الأمر بأن وجه يوم 24 يناير 1939 الأمر إلى هيدريش باستئناف سياسة الهجرة، وبشكل أكثر منهجية وتنظيما بعد إنشاء «الإدارة المركزية للهجرة».

وكان الوضع في فلسطين قد أصبح أصعب منذ 1938، وفي 17 أيار 1939 قررت الإدارة البريطانية منع اليهود من شراء الأراضي، لتقرر في أول أكتوبر وقف الهجرة.

لكن الهجرة من ألمانيا استمرت بشكل سري بفضل تعاون الأجهزة السرية مع الهاغانا، بقيادة الياهو كولومب الذي كان قد أسس منذ 1937 مكتبا للهجرة تحت اسم الموساد (اليابث)، وكانت الأجهزة الألمانية تزيد من دعمها لهذا المكتب كلما زادت السلطات البريطانية ضغطها عليه. وفي صيف 1939 منحت عميل الموساد بينو جينسبورغ الذي كان قد وصل إلى ألمانيا مع عميلين آخرين حق ترحيل اليهود بحرًا إلى فلسطين من مينائي هامبورغ وايمدن. فوضع خطة، كانت تقضي بأن يشهد شهر أكتوبر 1939 هجرة عشرة آلاف يهودي إلى فلسطين. لكن الحرب اندلعت.

وقد كتب جبنسبورغ : «لقد كانت مكاتبنا أمام مكاتب الغستابو، وكانوا يعرفون تمامًا من نحن، وماذا نفعل، ولم تكن اللامشروعية تبدأ إلا على شواطئ فلسطين.

ربما كان الأمر يقتضي التوقف هنا لو لا محطة أخيرة ومثيرة، تعود إلى ما بعد اندلاع الحرب، أي إلى عام 1941 وهي عرض التعاون الجديد المعروف بوثيقة أنقرة.

المعاهدة السرية بين عصابة شتيرن والرايخ الثالث

لا شك أن واحدة من أكثر الحقبات المثيرة للدهشة في التاريخ، ليس فقط في تاريخ الصهيونية المراجعة، بل أيضا في تاريخ الحرب العالمية الثانية، هي عرض التحالف الذي قدمه المسؤولون الإرهابيون اليهود في عصابة شتيرن للمسؤولين القوميين الاشتراكيين في ألمانيا عام 1941للقتال ضد الانجليز. وتستند هذه الحكاية، غير القابلة للتصديق، إلى وثائق وشهادات دقيقة جدا. وربما كانت ستبدو مجنونة أو هامشية لو أن اسحق شامير رئيس وزراء إسرائيل اللاحق والمسؤول العسكري عن فريق شتيرن، لم يكن متورطًا فيها.

«لقد أقنعت التجهيزات العسكرية البائسة للإيطاليين في ليبيا واليونان، جماعة شتيرن، بأن إيطاليا لا تمتلك وسائلها السياسية، على عكس ألمانيا، التي كانت تحصد في سنة 1940 نصرا إثر نصر. هذه الانتصارات أثرت في جماعة شتيرن وجعلتهم يندفعون في مغامرة مجنونة دون مآل : بناء تحالف مع ألمانيا الهتلرية. وحتى شباط 1941، راحت تعمل على تحويل هذا الهدف إلى واقع ملموس مستندة إلى تحليل خاص لوضع اليهودية. فهي ترى أن بريطانيا العظمى هي العدو الحقيقي في حين أن ألمانيا ليست سوى قامع ينتمي إلى سلسلة المضطهدين الذي لاقاهم الشعب اليهودي في تاريخه الطويل. وهنا برز الخطأ الرئيسي لشتيرن : فهم يرون في

النازية حركة تسيرها «لاسامية عاقلة» (تلك التي كان جابوتنسكي يسميها «لاسامية الأشياء»)... لذلك لم يكن تفسير إرسال المندوب عن عصابة شتيرن هو نفتاسكي ليفونشيك إلى بيروت عام 1941، باجتماع باوتو فول هينكنغ، مسؤول قسم الشرق في وزارة الخارجية الألمانية، ينحصر في هدف براجماتي بحت : إنشاء جبهة موحدة ضد انجلترا. ذاك أن النص، وبعد أن يعلن «وحدة المصالح بين أهداف النظام الأوروبي الجديد بحسب الرؤية الألمانية وتطلعات القومية الحقيقية للشعب اليهودي»، يذكر فكرتين قويتين : «التعاون بين ألمانيا الجديدة والحركة العبرية القومية الشعبية الوليدة» عبر مساهمة هذه الحركة في الحرب إلى جانب الرايخ. و«الحل الايجابي الجذري لمشكلة اليهود الأوروبيين بترحيلهم المكثف إلى فلسطين وإنشاء دولة اليهود التاريخية على قاعدة قومية شمولية مع ربطها مع الرايخ الألماني.

جبهة الرايخ ـ الصهاينة ضد الانجليز

منذ بداية 1941 عرض لوبنتشيك، وهو مبعوث سري من قبل جماعة شتيرن التي كان الانجليز يطلقون عليها اسم عصابة شتيرن بسبب اعتداءاتها الإرهابية المتكررة، هدنة عسكرية بين المنظمة العسكرية القومية (أي الأرغون التي لم يكن شتيرن إلا فصيلاً منشقا عنها) وألمانيا. ورغم محاولة إسدال ستار الصمت على هذا الاتفاق إلا أنه بات معروفا تماما فقد حمل عنوان (نص أنقرة) ونقل إلى برلين في 11 كانون الثاني 1941 ليعثر عليه فيما بعدفي أرشيف السفارة الألمانية في تركيا. وهذا نصه الكامل.

«لقد ألح رجال الدولة الرئيسيون في ألمانيا القومية الاشتراكية، دائما، وفي جميع خطبهم وتصريحاتهم، على أن إرساء نظام جديد في أوروبا لا بد وأن يتضمن شرطا مسبقا هو الحل الجذري للقضية اليهودية عن طريق الترحيل. إن ترحيل جماهير يهود أوروبا هو المرحلة الأولى في حل القضية اليهودية. وفي كل الأحوال فإن الوسيلة الوحيدة لبلوغ هذا الهدف هي إسكان هذه الجماهير في وطن الشعب اليهودي، أي فلسطين وإقامة دولة يهودية ضمن حدودها التاريخية. إن هدف جميع سنوات النشاط السياسي وصراع الحركة من أجل حرية إسرائيل والتنظيم العسكري القومي في فلسطين هو حل المسألة اليهودية بهذه الطريقة وتحرير الشعب اليهودي إلى الأبد. والمنظمة العسكرية القومية التي تعرف حسن النية الذي أظهرته حكومة الرايخ الألماني وممثليها، إزاء الصهيونية، وإزاء البرنامج الصهيوني تطرح للعمل النقاط التالية :

1 ـ هناك مصالح مشتركة بين النظام الأوروبي الجديد المبني على المفهوم الألماني، وبين التطلعات القومية الحقيقية للشعب ليهودي، كما تدافع عنها المنظمة العسكرية القومية.

2 ـ ثمة تعاون ممكن بين ألمانيا الجديدة وبين جماعة يهودية متجددة وعائدة إلى جذورها.

3 ـ إن إقامة الدولة اليهودية التاريخية على أسس قومية وشمولية، وارتباطها بمعاهدة مع الرايخ الألماني، يساهمان في حفظ وتدعيم الوجود الألماني في الشرق الأوسط.

على قاعدة هذه الاعتبارات، وفي حال اعتراف حكومة الرايخ الألماني بالتطلّعات القومية لـ «الحركة، لأجل حرية إسرائيل»، فإن المنظمة العسكرية القومية في فلسطين، تعرض أن تساهم بجزء حيوي من الحرب إلى جانب ألمانيا. ويمكن أن يتضمن هذا العرض نشاطا عسكريا، اقتصاديا، أو استخباريا داخل فلسطين ـ وبعض التدابير التنظيمية ـ خارجها. وبالمقابل يتم تدريب يهود أوروبا تدريبا عسكريا ويتم تنظيمهم في وحدات عسكرية تحت إدارة وقيادة المنظمة العسكرية القومية. وفي

حال تحقق جبهة موحدة، تأخذ هذه الوحدات نصيبها في عمليات قتالية لاحتلال فلسطين. إن المساهمة غير المباشرة لـ «الحركة لأجل حرية إسرائيل» في النظام الأوروبي الجديد، الذي ما يزال في مرحلة تحضيرية، ستدعم بقوة الأسس الأخلاقية للنظام الأوروبي الجديد في عين الإنسانية جمعاء، إذا ما اقترنت بإمكانية إيجاد حل جذري للمسألة اليهودية في أوروبا على أساس التطلعات القومية للشعب اليهودي. كذلك فإن التعاون مع حركة تحرير إسرائيل سيكون متوافقا مع خطاب ألقاه مؤخرا المستشار الألماني السيد هتلر، يؤكد فيه دعوته إلى جميع التحالفات التي تهدف إلى عزل انجلترا والانتصار عليها.

تتشكل المنظمة العسكرية القومية من مجموعة من القناصة اليهود في فلسطين ومن الحركة المراجعة (التنظيم الصهيوني الجديد) التي كان للمنظمة العسكرية القومية ارتباط وثيق وشخصي معها عبر شخص جابوتسكي، وحتى وفاته. لكن موقف المنظمة المراجعة في فلسطين المؤيد للانجليز جعل تجديد هذا الاتحاد الشخصي مستحيلا. وأدى إلى قطيعة كاملة بين الاثنين في خريف هذا العام، وإلى استئناف المنظمة العسكرية القومية لنشاطها بعد هذا الانشقاق.

إن هدف المنظمة العسكرية القومية هو إقامة دولة يهودية ضمن حدودها التاريخية وعلى عكس جميع التيارات الصهيونية، ترفض المنظمة الفكرة القائلة بأن التسلل الاستعماسري الاستيطاني هو الوسيلة الوحيدة لدخول البلاد وامتلاكها تدريجيا. كلمة السر لديها هي : التقال والتضحية، كوسيلة وحيدة لتحرير واحتلال فلسطين. ونظرا لطبيعتها العسكرية وموقفها المعادي للانجليز، والذي يجعلها عرضة للقمع الدائم من بل الإدارة الانجليزية، تجد المنظمة العسكرية القومية نفسها مضطرة لممارسة نشاطها السياسي بشكل سري وكذلك، الإعداد العسكري لأعضائها في فلسطين.

لقد تميزت المنظمة التي بدأت أعمالها المسلحة منذ خريف 1936 تميزت بشكل خاص اعتباراً من عام 1939، بعد نشر الكتاب الأبيض الانجليزي، وذلك بتكثيفها لنشاطها الذي تكلل بالنجاح. في إرباك ومقاطعة المحتل الانجليزي. مما جعل جميع وسائل الصحافة في تلك المرحلة، تورد نشاطها، وتشير إلى بث إذاعتها السرية اليومية، وتعلق عليهما.

وقد كان للمنظمة، حتى بداية الحرب، مكاتب سياسية مستقلة في كل من فارسوفيا، باريس، لندن، ونيويورك. وكان مكتب فارسوفيا يهتم بشكل رئيسي بالتنظيم العسكري وتدريب وبناء الشباب القومي الصهيوني. كما كانت تقيم علاقات وثيقة مع الجماهير اليهودية التي كانت تتابع نظامها بحماس، خاصة يهود بولونيا الذين كانوا يساعدونها بكل الوسائل الممكنة. كذلك أصدرت صحيفتين في فارسوفيا.

من جهة أخرى كان مكتب فارسوفيا يقيم علاقات وثيقة مع الحكومة البولونية ومع الدوائر العسكرية التي كانت تراقب بأكبر قدر من الاهتمام والتفهم جهود المنظمة العسكرية القومية. التي قامت عام 1939، بإرسال وحدات سرية من عناصرها من فلسطين إلى بولونيا. حيث كان ضباط بولونيون، يقومون بتدريبهم وبنائهم العسكري في مراكز تدريب خاصة. لكن المفاوضات التي كانت دائرة بين المنظمة والحكومة بالبولونية لأجل تطوير مساعدتها بشكل ملموس، توقفت مع بداية الحرب. وهكذا فإن المنظمة، وبطبعة بنيتها ورؤيتها للعالم هي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحركات الشمولية الأوروبية. أما شل قدرتها القتالية، فلم يكن ممكنا، في أي لحظة، وذلك بسبب تدابير الدفاع الجذرية، إزاء الإدرة الانجليزية والعرب وإزاء الشيوعيين اليهود».

للوصول إلى إنجاح هذه الوثيقة قامت جماعة شتيرن بعدة مناورات تقارب، لدى الفرد روزر، مسؤول أجهزة الاستخبارات العسكرية الألمانية، واتو فون هينغ عضو وزارة الخارجية الألمانية والذي كان يعتبر رئيس الأجهزة السرية في دمشق وعليه تم ترتيب لقاء سري مع هذا الأخير في بيروت. «لم يخف ممثل ألمانيا أوتو فون هينغ، عن المبعوث الصهيوني لوبنتشيك، بأن في بلاده تياراً مؤيدا لإقامة دولة عبرية في فلسطين لم يعد قادرا على أن يؤثر إيجابيا على قرارات الحكومة وأنه، وفي جميع الأحوال، قد فات الأوان على العمل. فقد قررت هيئة الأركان أن تؤمن لنفسها، في صراعها ضد بريطانيا في الشرق الأوسط، مساعدة العرب الذين يعدون بالملايين، وذلك أفضل من مساعدة اليهود الذين لم يكونوا إلا حفنة صغيرة. لكنه، وبالرغم من كل ذلك، وعد بنقل العرض المقترح إلى برلين. دون أن يتلقى لوبنتشيك جواباً أبداً».

سر خبئ لمدة ثلاثين عاما

في 11 كانون الثاني عام 1941، أرسل هذا العرض إلى السفارة الألمانية في أنقره، حيث وجد بعد الحرب. ولا يعرف ما إذا كانت السلطات الألمانية قد ردت عليه وما هي ماهية الرد. علما بأن جماعة شتيرن قد أرسلت إلى فون هينغ مبعوثا آخر هو نافان ياكين مور، مدير جريدة الأغرون وواحد من قادة شتيرن الثلاثة. لكنه اعتقل في سوريا، بعد الهزيمة الفرنسية في تموز 1941 بينما كان يحاول أن يصل إلى تركيا.

لقد حاول البعض التشكيك بصحة وجود هذه الوثيقة، إلى أن قام أحد زعماء شتيرن التاريخيين وهو إسرائيل الداد سناب، بتأكيد وجودها قائلا بأن رفاقه قد أوضحوا للقوميين الاشتراكيين أن "تماثل المصالح بين نظام جديد في أوروبا مبني على الرؤية الألمانية وبين تطلعات الشعب اليهودي في فلسطين ممثلة بالمقاتلين لأجل حرية إسرائيل (ليحي) هو أمر ممكن". كذلك فإن صحيفة هآرتز، قد كشفت النقاب عن وجود وثائق سرية أخرى، ومنها رسالة موجهة في كانون الثاني 1941 من السفير فرانز فون بابيل إلى وزارته في ألمانيا حول الاتصالات مع فريق شتيرن، والتقرير الذي قدمه العميل السري وورنر أوتو فون هينغ. كما أن صحيفة حوتام الأسبوعية قد أكدت أخيرا أن هذه الوثيقة حملت توقيعي اسحق شامير وأبراهام شتيرن، وقدمت إلى سفارة ألمانيا عندما كانت جيوش رومل ما تزال في مصر. ويبدو أن اسحق شامير (الذي كان ما يزال يحمل اسمه الحقيقي، اسحق يزرنسكي) والذي أصبح بما بعد وزيرا لخارجية إسرائيل ومن ثم رئيسا لوزرائها، هو أحد الذي حرروا هذا العرض، وذلك بفعل موقعه في منظمة شتيرن.

ولد شامير عام 1915 في روزني، في بيلوروسيا، حيث كان أبوه قد أسس مدرسة لتدريس العبرية، وبسرعة التحق الإبن بالنضال في صفوف الحركة المراجعة. وصل إلى فلسطين عام 1935، وفي العام التالي أصبح مدرسا عسكريا في "خلايا العمل الصهيوني" في منطقة تل أبيب. ليصبح منذ 1940 أحد أقرب المقربين إلى أبراهام شتيرن. أما بخصوص هذه الوثيقة فقد اضطر شامير مؤخرا إلى الاعتراف بأنه كان على علم كامل بمشروع العرض المقدم للرايخ الثالث في عز فترة اضطهاد اليهود في أوروبا، لكنه أكد أنه كان معارضا لهذا المشروع. غير أن تأكيده لا يقنع أحدا، كونه كان في تلك الفترة واحدا من القادة الرئيسين في المجموعة الإرهابية. وقد عمل باروخ نال، وهو باحث وكان عضوا في مجموعة شتيرن، ثم انفصل عنها، طويلا على معرفة درجة تورط شامير في هذ المفاوضات وتوصل إلى أنه من المقنع قطعيا أنه كان على علم كامل بذلك.

أما المؤرخ ليني برينر فيتحدث كذلك عن "أكذوبة رسمية ناضجة". بدليل أن شامير كان مكلفا، ففي خريف 1941، من قبل شتيرن بتنظيم حملة مساعدة وجمع تبرعات لملء صناديق المنظمة والسماح بتنظيم رحلة لمبعوثيها إلى ألمانيا. ويبدو أن سياسة التعاون هذه لم تتوقف فور موت ابراهام شتيرن وتولي اسحق شامير القيادة. بل أن مصادفة تزامن هذا الانتقال مع حدوث منعطف حاسم في الحرب، جعل موضوع انتصار الرايخ الثالث موضع شك أكثر فأكثر، هي التي دفعت شامير إلى عدم لعب ورقة التعاون هذه، بصفته قائدا للمنظمة.

خلال عام 1941 أوقفت الشرطة البريطانية اسحق شامير، وفي 21 شباط 1942 قتل ابراهام شتيرن. وفي 1 أيلول من العام ذاته هرب شامير من معسكر ميزرا حيث كان معتقلا، وأطلق الحركة من جديد تحت اسم (ليحي) (المقاتلون من أجل حرية إسرائيل). وبهذه المناسبة وكما هو التقليد في المنظمات الإرهابية، عمد شامير إلى إعدام ثلاثة من أعضاء المنظمة الذين لم يكونوا يتجاوزون العشرين : مسؤول الاستخبارات الذي اتهم بالتعاون مع البريطانيين، وعنصر هرب من القتال، وأفضل خبير في الاعتداءات اتهم بأنه بالغ التطرف وخارج عن السيطرة. وعندما أصبح شامير وزيرا للخارجية، أعاد الانجليز إلى الأذهان أنه كان منظم عمليتي اغتيال شهيرتين : اغتيال اللورد من المندوب العام البريطاني في مصر في 6 تشرين الثاني 1944 واغتيال الكونت فولك برنادوت الوسيط الخاص للأمم المتحدة في فلسطين في 17 أيلول 1948 أي بعد أن أصبحت إسرائيل دولة مستقلة.

في عام 1946 اعتقل شامير مرة أخرى، وذلك بعد عملية فندق داود في القدس، نقل إلى أسمرة في أريتيريا ومن هناك هرب إلى جيبوتي في كانون الثاني عام 1947. لكنه أعيد إلى السجن إلى أن أطلق سراحه وزير الخارجية الفرنسي روبرت شومان الذي منحه اللجوء السياسي في فرنسا بطلب من المنظمات اليهودية المتطرفة هناك. وفي آيار 1948 ظهر شامير من جديد في الدولة الإسرائيلية الوليدة، حيث تابع تنظيم وتنسيق العمليات الإرهابية. إلى أن تم حل ليحي بأمر من بن غوريون بعد اغتيال الكونت برنادوت في 17 أيلول 1948. ويذكر أن يالين مور الذي كان المندوب الآخر لفريق شتيرن، كما ذكرنا، قد اعتقل بعد عملية الاغتيال المشينة هذه وحكم بثماني سنوات سجن بتهمة ممارسة الإرهاب. ولم يلبث أن صدر بحقه عفو عملية الاغتيال المشيئة هذه وحكم بثماني سنوات سجن بتهمة ممارسة الإرهاب. ولم يلبث أن صدر بحقه عفو في السنة التالية، إثر انتخابه عضوا في الكنيست. بعد ذلك وضع شامير معارفه في موضوع الإرهاب والخطف في خدمة الموساد، حيث أصبح منذ عام 1955 أحد أهم مساعدي عايزر هاريل رئيس الأجهزة السرية، وفي عام 1965 وهو تاريخ وصوله إلى التقاعد، كان رئيسا لمكاتب الموساد الخاصة بأوروبا، بعد أن تفرغ بضع سنوات لهذا العمل، التحق بحزب حيروت في عام 1970 ليباشر حياة سياسية متسارعة : ينتخب عضوا في الكنيست في كانون الثاني 1973 ثم يصبح رئيسا لها بعد ذلك بسنتين. ثم ناطقا رسميا باسمها عام 1977 قبل أن يحل محل موشيه دايان في وزارة الدفاع في آذار 1980.

❄ ❄ ❄

العنصرية الصهيونية : الأنا والآخر والأسس العقيدية

حسن الباش *

ليست مصادفة أن توصم الصهيونية اليهودية بالعنصرية. وليس تجنبا أن يطلق هذا المصطلح عليها من قبل مفكرين وباحثين وسياسيين وشعوب وأمم شتى فإذا كنا نحن العرب والمسلمين نعيش حالة صراع مع المحتل الصهيوني ونرى عن كثب ممارسة أسوأ أنواع العنصرية فإن كثيرا من الشعوب والأمم الأخرى خبرت عنصرية الصهيونية من خلال دراسة أفكارها وممارسة معتنقيها وتأثيراتها على المجتمعات والأمم. وإن كنا نتهم بالتجني حين نطلق على الصهيونية عنصرية فماذا يُقال عن هؤلاء الذين فضحوها وعروا عنصريتها وهم من أقوام غيرنا وأمم أخرى ؟

لقد أجمع العالم على وصف النازية والفاشية بالعنصرية وكذلك أجمعوا على أن البِيض في جنوب أفريقيا وروديسيا (أي زمبابوي) وناميبيا وغيرها من المناطق مارسوا عنصرية بشعة بحق المواطنين الأفارقة الأصليين.

ولكن حين نتوقف عند دراسة العنصريات جميعها قلما نعثر على عنصرية ذات جذور عقيدية باستثناء العنصرية الصهيونية.

فالنازية لم تستند إلى بُعد ديني تراثي قديم في عنصريتها وكذلك الفاشية وعنصرية البِيض في أفريقيا. إنما كانت الأبعاد والأسس في مجملها نفسية سياسية اقتصادية. ولذا فإن الفرق بين العنصريات جميعها والعنصرية الصهيونية هو أن الأخيرة تستند على أبعاد وأسس توراتية وتلمودية إلى جانب الأسس الفكرية والنفسية والاقتصادية وحتى تتضح الأمور أكثر فأكثر فإننا ملزمون بإيراد النقاط التالية :

أولا : إن العقيدة اليهودية هي عقيدة طارئة على ما جاء من تعاليم لدى النبي موسى عليه السلام. فنحن لسنا ضد تلك العقيدة والتشريعات التي أنزلت على موسى عليه السلام كما وضحها القرآن الكريم. لكننا لسنا مع اليهودية الطارئة التي اخترعت توراتها وتلمودها حسب أمزجة حاخاماتها قبل الميلاد بحوالي خمسمائة عام.

ثانيا : إذا اتهمنا بالعنصرية حين نتحدث عن اليهودية فإن الصهاينة أنفسهم لا يتخلون عن سمة اليهودية وعناصرها وأسسها العنصرية التوراتية التلمودية فاليهودية الطارئة هي عقيدة عنصرية بكل المقاييس وتشهد على عنصريتها نصوص توراتها وتلمودها قبل أن تشهد عليها ممارستها على مر التاريخ.

ثالثا : إذا كان الصهاينة يستغلون موقفنا الواضح من اليهودية أمام الغرب والعالم الآخر بادعائهم أننا ضد الدين اليهودي فإننا لسنا أغبياء حتى نصمت عن قول الحقيقة التي تفرق بشكل دقيق بين العقيدة التوحيدية التي نادى بها موسى عليه السلام كما جاءت في القرآن الكريم وبين اليهودية التحريفية الطارئة على تلك التعاليم وبعد ذلك فإننا حين نتناول العنصرية الصهيونية في أبعادها العقيدية فإننا من دون شك

* باحث فلسطيني

نكون قد تناولنا العنصرية اليهودية التحريفية الطارئة.

وإذا عدنا إلى عالم العنصرية الصهيونية اليهودية فإننا نتوقف عند مظاهر وتجليات عديدة لهذه العنصرية :

1 ـ عنصرية تتجلى في التعامل مباشرة مع الآخر وهي تستند في التشريع اليهودي على الفرق بين اليهودي وغير اليهودي من حيث الخلق والجوهر والجسد والروح.

2 ـ عنصرية تتجلى في السلوك اليومي لليهودي أيام السلم.

3 ـ عنصرية تتجلى في السلوك اليومي اليهودي أيام الحرب.

الآثار والآخر في العقيدة الصهيونية اليهودية :

بين أيدينا نصوص من التوراة وأخرى من التلمود وثالثة من الفكر الصهيوني الحديث إذا وضعناها أمامنا نرى أن خيطا واحدا يربطها ببعضها ربطا دقيقا :

وبداية تحدد هذه المصادر الثلاثة أفكار العنصرية الصهيونية اليهودية، وسلوكها تجاه الآخر في الحالات العادية ومن ثم سلوكها تجاه الآخر في الحالات الاستثنائية، من هو اليهودي حسب النص الديني؟ فحسب نص التوراة المحرفة فإن اليهودي من الشعب المختار الذي انتقاه الله من بين مخلوقات الأرض واصطفاه ليكون صفوة الشعوب والأمم غير اليهود ليسوا بشرا لأنهم ليسوا مخلوقين من قبل الله بمحبة واصطفاه وقد خلقهم الله لأجل خدمة اليهود. فاليهودي مقدس وغير اليهودي نجس وحيوان... والغرباء غلف غير مطهرين فهم أنجاس.

الغرباء وثنيون فتجب إبادتهم وإن لم تحصل الإبادة فيجب معاملتهم بنظرة دونية وقد شرح التلمود من هو غير اليهودي فجاء بأحكام في غاية العنصرية والانحراف.

ورد في التلمود : إن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة فإذا ضرب أمي إسرائيليا فكأنما ضرب العزة الإلهية.

يقول الحاخام شنيورسن : إن الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبق عليه التعبير السائر (لا وجه للشبه) إذ كيف يمكن البحث عن فرق بين شيئين من مستويين مختلفين، ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى تقبع بقية الأمم في الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف.

وهكذا نرى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما. وحسبما جاء في كتاب الجمارا المقدس فإن الجسد اليهودي يختلف كليا عن أجساد الشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم وطينتهم. وإن كنا نرى ثمة تشابها في الأجساد فما ذلك إلا من الظهر الخارجي فقط أما داخليا فالفرق بينهما كبير إلى حد يجعل الجسد اليهودي لا يمت بأية صلة كانت إلى صنف بقية الأجساد لأبناء الأمم الأخرى. وما يصح على الجسم (المادة) يصح أيضا على النفس (الروح) إذ أن أصل أرواح شعوب العالم هي من طبقات النجاسة الثلاث. بينما أصل أرواح بني إسرائيل هو من الروح المقدس ذاتها. ويقول الدكتور أ. تسيفوري في مقدمة كتاب الكوزاري الصادر بتوجيه شعبة التربية التابعة لما يسمى الكنيست الصهيوني والحائز على مصادقة وزارة الثقافة والمعارف في الكيان الصهيوني (وقد منحت التوراة لشعب إسرائيل من دون العالمين لأنه صفوة الشعوب بأسرها ولأن بلاده خير بلدان الدنيا قاطبة ولأن لغة أشرف لغة ينطق بها بشر. شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها. ويرجع ذلك إلى تميز عنصره وتفوق تربيته وجودة مناخ البلاد التي نمى فيها وتطور) ويستند هذا الكلام العنصري إلى قول التوراة (أنا الرب إلهكم الذي ميزكم عن الشعوب وتكونون لي قديسين لأني قدوس أنا الرب وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي).

وجاء أيضا في سفر التثنية (إنك يا إسرائيل شعب مقدس للرب إلهك. إياك اختار الرب إلهك لتكون لي شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ليس من كونكم أكثر من

سائر الشعوب. بل محبة الرب إياكم وحفظة القسم الذي أقسم لآبائكم» «التثنية : 7: 6-8».

وفي التلمود تعاليم عنصرية تفوق التعداد.

فقد جاء في سنهدرين 2 وصفحة 58 (إذا لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض. ولما خلقت الأمطار والشمس ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وباقي الشعوب)[1].

وجاء في قول ميدارس تالبيوت : خلقهم الله في أشكال آدمية لتمجيد إسرائيل إلا أن الأكوم (غير اليهود) خلقوا لغاية وحيدة هي لخدمتهم ليل نهار وهم لا يستطيعون التخلص من هذه الخدمة ومن اللائق أن يقوم على خدمة ابن ملك إسرائيلي حيوانات بأشكال طبيعية. فالحيوانات الكائنة بأشكال إنسانية عليها أن تخدمه.

ويقول الرابي إيدبليس في تعليقه على كيتبوت (ناظم الأناشيد الدينية داود النبي يقارن الأكوم (الغرباء) بالبهائم النجسة في الغابات).

ويفسر الرابي سيلومو إبارشي (راشي) المحقق اليهودي الشهير لقانون موسى الخاص بتحريم أكل الحيوانات الجريحة (بل يجب طرحها للأغراب في طرقاتهم أو وفقا لما جاء في سفر الخروج بأنه يجب طرحها للكلاب (لأنه كالكلب) ترى هل يجب أن نفهم كلمة كلب بحرفيتها؟ على الإطلاق لأن النص في التعبير عن الجثث الميتة يقول أو يمكنك أن تبيعه لأجنبي... هذا ينطبق أكثر فأكثر على أكل الحيوانات الجريحة فهذا مسموح قبل المقارنة فلم إذا يقول الكتاب المقدس إنه يمكن طرحها للكلاب؟ لكي يعلمك أن الكلب محترم أكثر من (النوخري) أي غير اليهودي.

وجاء في سنهدرين على لسان توسينوت : الجماع الجنسي (للغوي) (الغريب) هو كالجماع الجنسي للبهيمة وإن قيمة منيّ الغوي هو كقيمة منيّ البهيمة.

وجاء في تلمود أورشليم ص 94 : إن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان.

وذكر في فصول أخرى من التلمود (أن الكلب أفضل من الأجانب لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم الأجانب. وغير مصرح له أن يعطيهم لحما بل يعطيهم للكلب لأنه أفضل منهم).

ويقول الرابي مناحيم : أيها اليهود إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله وأما باقي الأمم فليست كذلك لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة. وكان هذا رأي الحاخام أرئيل أيضا لأنه يعتبر الخارجين عن الدين اليهودي خنازير نجسة تسكن الغابات.

الرؤية العنصرية الصهيونية للتعامل والسلوك :

يرى الحاخامات أن الغرباء غير اليهود يكذبون بالفطرة أما اليهودي فهو معصوم عن الخطأ والكذب وعلى هذه القاعدة لا يحق لغير اليهود الإدلاء بشهادتهم أمام المحاكم الحاخامية ووضعهم من هذه الناحية نفس وضع النساء اليهوديات والعبيد والصغار لكنه أسوأ في الممارسة.

وفي بعض الحالات تنشأ مشكلة أحياناً عندما تحتاج محكمة حاخامية لمعرفة أمر ما لا يوجد بشأنه شهود سوى من غير اليهود. وأحد الأمثلة الهامة القضايا التي تتعلق بالأرامل. فالمرأة تنال صفة أرملة حسب الشريعة اليهودية، ويصبح بمقدورها الزواج مرة أخرى إذا أثبت شهود عيان وفاة زوجها. لذلك تقبل المحكمة اليهودية الحاخامية قول يهودي أمامها بأنه سمع من شخص غير يهودي (شاهد عيان) الوفاة شريطة أن تقتنع بأن غير اليهودي ذكر الأمر بطريقة عابرة وليس ردا على

(1) محمد عبد الله الشرقاوي، الكنز المرصود في فضائح التلمود، ص 200-201 .

سؤال مباشر لأن غير اليهودي إذا أجاب إجابة مباشرة على سؤال مباشر ليهودي تكون إجابته كاذبة(2).

ويمنع التلمود بفظاظة تقديم هدية لغير اليهودي. لكن مراجع الديانة اليهودية التفّت على هذه المسألة لأن من الشائع تبادل الهدايا بين رجال الأعمال ولذلك وضعت قاعدة فحواها أن اليهودي قد يقدم هدية لأحد معارفه من غير اليهود شريطة ألا يعتبرها هدية بل استثمارا ينتظر أن يدر عليه مردودا من نوع ما وتمنع الصدقات من قبل اليهود للفقراء من أبناء ديانات أخرى.

ويرى التلمود أنه يلزم المرأة أن تعيد اغتسالها إذا رأت عند خروجها من الحمام الشرعي شيئا نجسا كالكلب والحمار أو المجنونة أو الأمي غير اليهودي أو الجمل أو الخنزير أو الحصان.

وفي قوانين الزواج : إذا تزوج يهودي باكوم أي من مسيحية أو من خادمته فالزواج باطل وبشكل مماثل فإنه إذا أقدم الأكوم أو خادمه على الزواج بيهودية فالزواج باطل أيضا.

وتغالي قوانين التلمود العنصري في التعامل مع غير اليهودي حتى في أدق الأمور الاجتماعية والتجارية.

فحسب قانون التعامل يحرم أي تعامل مع الوثنيين قبل أعيادهم بثلاثة. فيقول النص التلمودي : علينا أن لا نعيرهم شيئا مما قد يفيدهم أن نستعير منهم شيئا والأمر ذاته ينطبق على حالة النقود. بل يحرم دفع أجرة لهم أو أخذ أجرة منهم ومع ذلك يؤكد الرابي حاييم يهودا أنه يحلل أخذ أجرة لأن هذا يتعس من يدفع.

ويحرم بيع الوثنيين كل الأشياء التالية : أكواز التنوب. التين الأبيض على أغصانه اللبان. الديك الأبيض ويقول الحاخام حاييم يهودا يمكن بيع الديك الأبيض ضمن ديوك أخرى أما إذا بيع فيجب قطع أحد أصابعه لأن الوثنيين لا يقربون حيوانا فقد منه أحد أعضائه وحرم الحاخام مائير بيع الغرباء أشجار النخيل الجيدة. وقصب السكر وأنواع من البلح.

ويجب ألا تؤجر البيوت للوثنيين في فلسطين بغض النظر عن الحقول. ولكن حتى الأماكن التي يباح فيها التأجير فيجب أن لا يكون ذلك بهدف الإقامة. ويجب عدم تأجير الحمام في أي مكان لأنه سمي على اسم صاحبه الذي هو (إسرائيلي) ويجب ألا توضع الماشية في خانات الوثنيين لأنه يشك بأنهم قد يضاجعونها وللسبب ذاته يجب أن لا تبقى معهم أنثى بمفردها لأنه يشك بأنهم يتطاولون عليها بالفعل القبيح. ولا يجلس معهم ذكر بمفرده لأنه يشك بأنهم قد يسفكون دمه وقد سن الحاخامات قوانين تبيح الغش في التجارة مع كل من هو غير يهودي فيرون أن اليهودي إذا وقع في خطأ عد النقود مع يهودي آخر فمن الواجب إرشاده أما إذا شوهد غير اليهودي وقد ارتكب نفس الخطأ فلا ينبغي لليهودي تنبيهه. وإذا نصب غير اليهودي على اليهودي يجب إرغام الأول على تسوية الأمر مع عدم مقابلته بصورة أشد من عقاب اليهودي في حال مشابهة. ويحظر على اليهود مشاركتهم في احتفالات شعبية لغير اليهود. وهناك تعاليم تهدف منع قيام صداقة إنسانية بين اليهودي وغير اليهودي.

وتبيح نصوص التلمود سرقة اليهود لغيرهم. فالوصية التي جاءت في التوراة لا تسرق. تعني لا تسرق من اليهودي أما ما عده فمحلل سرقته. ويستند ذلك على فهم خاص للربانيين اليهود بأن الأرض ملك لهم. ولهم الحق في التسلط عليها فالسرقة من الأجانب ليست عند اليهود بل هي استرداد لأموالهم ملك لهم. ولهم الحق في التسلط عليها فالسرقة من الأجانب ليس عند اليهود بل هي استرداد لأوالهم ومن المعروف على مدى التاريخ وفي كافة المجتمعات أن اليهود قد اشتهروا بالربا وقد تحدثت التوراة عن الربا لكن المدقق في نصوصها

(2) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، ص 158 .

يجد قوانين تتعلق باليهود وأخرى تتعلق بغير اليهود. وكذلك الدين فله قوانين خاصة بين اليهود وقوانين بين اليهود وغيرهم.

جاء في سفر التثنية : (لا تقرض أخاك بربا، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا) «تثنية 19: 20-23».

ويرى إسرائيل شاحاك : أنه أصبح التمييز المعادي لغير اليهودي بهذا الشأن (الربا) نظريا إلى حد كبير بسبب التخريجات التي تسمح بأخذ الفائدة حتى من مقترض يهودي ومع ذلك يبقى أن تقديم قرض بلا فائدة ليهودي يعتبر عملا من أعمال الإحسان.

ولكن في حالة المقترض غير اليهودي هناك إلزام بأخذ الفائدة. ويتفق العديد من المراجع الحاخامية بما فيها ابن ميمون حول إلزامية استخلاص أكبر قدر من الفائدة على قرض لغير اليهودي(3).

وقد كتب ابن ميمون : أمرنا الله بأخذ الربا من الذمي وألا نقرض شيئا إلا على هذا الشرط (الربا) وبذا نكون قد ساعدناه مع أنه من الواجب علينا إلحاق الضرر به ولو ساعدناه في هذه الحالة (أخذنا منه الفوائد والربا).

وجاء في التلمود غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا وقرر ذلك الحاخام ليفي بن جرسون ومجموعة من الحاخامات.

ويستندون على قوانين التلمود من خلال إيمانهم بأن الله لا يحاسبهم إذا عاملوا الأغراب بما يرونه هم. فلهم الحق أن يأخذوا الفوائد منهم.

وتكثر الآراء والأقوال لكَهَنة اليهود والربانيين. وقد أولوا غير اليهود قوانين كثيرة تبدأ بقوانين القتل ولا تنتهي. وتتداخل هذه القوانين بالعنصرية الواضحة. فكل وثني يعني كل من هو غير يهودي ويعني كل من هو غريب (أو غوييم).

العنصرية الدينية في قوانين القتل :

تعتبر العقيدة اليهودية قتل اليهودي جريمة كبرى لا تغتفر وواحدة من ثلاث جرائم شنيعة (الوثنية والزنا) وتأمر المحاكم الدينية اليهودية والسلطات المدنية بإنزال العقوبة حتى بما تجاوز الأحكام العادية للعدالة بحق أي شخص اتهم بقتل يهودي.

أما اليهودي الذي يتسبب بقتل يهودي آخر بطريقة غير مباشرة فإنه مذنب فقط بما تطلق عليه الشريعة التلمودية تسمية خطيئة ضد شرائع السماء لذا يقع عقابه على الله لا على الإنسان. ولكن عندما تكون الضحية من غير اليهود يختلف موقف الشريعة تماما.

فاليهودي الذي يقتل غير اليهودي هو مذنب فقط بخطيئته ضد شرائع السماء التي لا تعاقب عليها المحكمة أما التسبب بموت غير اليهودي بطريقة غير مباشرة فلا تعتبر خطيئة أبدا.

وإذا وقع القاتل غير اليهودي تحت سلطة التشريعات القضائية اليهودية يجب إعدامه سواء كانت الضحية يهودية أم لا. ولكن إذا لم تكن الضحية يهودية واعتنق القاتل اليهودية فلا يعاقب.

وبما أن مبدأ تحريم قتل اليهودي ينطبق فقط على غير اليهود (الذين لسنا في حالة حرب معهم) كما تنص التوراة. فقد استخلص العديد من المعلقين الربانيين والحاخامات النتيجة التي تناسب منطقهم وهي إمكانية قتل جميع غير اليهود المنتمين إلى شعب العدو أو حتى ضرورة إبادتهم.

وقد سن الحاخام العسكري أفيدان : بعض التشريعات حول قوانين الحرب بقوله : (في حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب أو خلال مطاردة حامية أو غارة. إذا لم يتوفر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا هناك إمكانية لقتلهم. أو حتى ضرورة

(3) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، ص 159-190 .

للقيام بذلك حسب الهالاكاه. بل تحض الهالاكاه على قتل المدنيين الطيبين أي الذين يتظاهرون بذلك)[4].

وقد جاء في التلمود : مباح قتل غير اليهودي. القتل أمر واجب عند التمكن من إجرائه ومن التناقض الصارخ في العقيدة التلمودية بشأن القتل ما نراه في النصوص التالية :

فغير مصرح للكاهن أن يبارك الشعب باليد التي قتل بها شخصا حتى لو حدث القتل خطأ أو ندم الكاهن بعد ذلك.

لكن الحاخام شار يقول : (إن الكاهن يمكنه أن يبارك الشعب بتلك اليد إذا كان المقتول غير يهودي حتى لو حصل القتل بقصد وسبق إصرار. وينتج من ذلك أن قتل غير اليهودي لا يعد جريمة. بل يعد فعلا يرضي الله).

وجاء في كتاب (بوليميك) أن لحم الأميين لحم حمير ونطفتهم نطفة حيوانات غير ناطقة. أما اليهود فقط تطهروا في طور سيناء. والأجانب تلازمهم النجاسة لثالث درجة من نسلهم ولهذا أمرنا بإهلاك من كان غير يهودي.

ويقول التلمود (اقتل الصالح من غير اليهودي ومحرم على اليهودي أن ينجي أحدا من باقي الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين).

وجاء أيضا : إذا وقع أحد الوثنيين في حفرة يلزمك أن تسدها بحجر وزاد الحاخام رشى أنه يلزم عمل الطرق اللازمة لعدم خلاص الوثني المذكور منها.

وقال موسى بن ميمون : الشفقة ممنوعة بالنسبة للوثني فإذا رأيته واقعا في نهر أو مهددا بخطر فيحرم عليك أن تنقذه منها لأن السبعة شعوب الذين كانوا في أرض كنعان المراد قتلهم من اليهود لم يقتلوا عن آخرهم بل هرب بعضهم واختلط بباقي أمم الأرض. ولذلك أيضا قال موسى بن ميمون : إنه يلزم قتل الأجنبي لأنه من المحتمل أن يكون من نسل هؤلاء السبعة شعوب. وعلى اليهودي أن يقتل من تمكن قتله فإذا لم يفعل ذلك يخالف الشرع.

ويرى التلمود أنه إذا قصد اليهودي قتل حيوان فقتل شخصا خطأ أو أراد قتل وثني أو أجنبي فقتل يهوديا فخطيئته مغفورة ومن العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر لأن من يسفك دم الكافر يقرب قربانا إلى الله.

وقد فسر التلمود وصية لا تقتل بأنها ترتبط بالنهي عن قتل اليهودي فقط. فقال ابن ميمون : إنه تعالى نهى عن قتل شخص من بني إسرائيل.

وقد جاء في التلمود أن من من يقتل مسيحيا أو أجنبيا أو وثنيا يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك في السراي الرابعة أما من قتل يهوديا فكأنه قتل العالم أجمع ومن تسبب في خلاص يهودي كأنما تسبب في خلاص الدنيا بأسرها. ولذلك قال موسى بن ميمون : (يصفح عن الأمي إذا جدف على الله تعالى أو قتل يهوديا أو زنا بامرأة يهودية ثم صار يهوديا).

ويقرر التلمود استحقاقات الموت على غير اليهود لأسباب يعيدنها إلى تنزيل قدري من الرب.

فيرى شارحو التلمود أنه إذا سرق أولاد نوح (غير اليهود) شيئا ولو كانت قيمته تافهة جدا فإنهم يستحقون الموت لأنهم قد خالفوا الوصايا التي أوصاهم الله بها. وأما اليهود فمصرح لهم بأن يضروا الأمي لأنه جاء في الوصايا لا تسرق مال الغريب. وفسر العلماء اليهود هذه الوصية بقولهم : إن الأمي ليس بقريب وإن موسى يكتب الوصية (لا تسرق مال الأمي) فسلب ماله لا يكون مخالفا للوصايا لأن السلب غير السرقة !!

وذكر في التلمود أيضا : لا تظلم الشخص الذي تستأجره لعمل ما إذا كان من إخوتك أما الأجنبي فمستثنى من ذلك.

(4) إسرائيل شحاك، الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، ص 134-135 .

الصهيونية
محور التوراة والتلمود

ندرة اليازجي *

تشير الدراسات المقارنة إلى أن التوراة والتلمود يؤلفان كتابا واحدا، وأن مضمونها يشكل القضية الأساسية التي يسعى إلى تحقيقها أحبار اليهود وزعماؤهم، وهي أفضلية الشعب اليهودي على سائر الشعوب ورعاية «الله»؟! لهم في كل الأزمنة والظروف التي تستدعي تدخل العناية الإلهية لإنقاذهم وخلاصهم. ففي الكتابين، نجد الدعوة المزعومة التي تؤكد اختيار «الله»؟ للشعب اليهودي وتكريسهم أبناء له. وبالإضافة إلى ذلك، نجد أن تاريخ هذا الشعب هو تاريخ «الله»؟! بمعنى أن «الله»؟! يشارك اليهود تاريخهم، يحيا معهم في تابوت العهد، يحارب معهم ويدافع عنهم، ويهزم أعداءهم ويعلمهم فنون القتال، ويضع لهم الخطط الحربية التي تساعدهم على كسب المعارك، ويرشدهم إلى أفضل وسائل التدمير - لقد حرق شمشون حقول الفلسطينيين، وها هم اليوم يحرقون حقول الفلسطينيين - ويكذب في سبيلهم ولمصلحتهم إذا اضطرته الظروف إلى إنقاذهم من ورطة أو من مشكلة، ويستاء منهم لأنهم خذلوه في أمر ما، فيغادرهم على نحو عقاب، ثم يندم ويطلب المغفرة، ويعيد بناء مملكتهم إن هي تعرضت للخراب، وهذا يعني أن للّه تاريخا واحدا هو تاريخ الشعب اليهودي. فإن هو اغترب عنهم فإنما يعني أنه اغترب عن ذاته، وإن هو غادرهم فإنما يعني أنه غادر أسرته أو شعبه، وإن هو عاقبهم فإنما يعني أنه عاقب نفسه، وهكذا لا يكون تاريخ خارج تاريخ الشعب اليهودي، أما الشعوب الأخرى محرومة من التاريخ.

يجدر بي، وأنا أحاول تلخيص ما جاء في التوراة والتلمود وأسعى إلى دراسة العلاقة الوثيقة القائمة بينهما، أن أضع ملخصا وجيزا للتلمود، ومن ثم أعود إلى دراسة التوراة التي هي المصدر الرئيسي للتشريع التلمودي. والحق، أن أحبار اليهود اعتمدوا، في تفاسيرهم وشروحهم وتعليقاتهم، على التوراة التي وضعها موسى وكانت عقيدة تتطلب الشرح والتفسير من قبل القائمين على توجيه الشعب اليهودي إلى قضيتهم الأساسية التي تتمثل في اختيار الله لهم ونبذ الشعوب الأخرى.

يعد التلمود كتابا جعله الأحبار والرابيون وثيقة تعليمية وإعلانا عقائديا للشعب اليهودي. فقد وصفه عدد كبير من الأحبار الذين سعوا إلى توضيح الشريعة المكتوبة التي وضعها موسى، وتحويلها، أو بالأحرى تحريفها إلى شريعة شفهية أوصى بها موسى لتكون مكملة لشريعته المكتوبة، وأطلقوا عليها اسم التلمود. وعلى هذا الأساس، يُعدّ التلمود

* باحثة سوريّة

كتابا تعليميا يشتمل على التفاسير الشفهية غير المكتوبة من شريعة موسى التي استوحاها من الله، وأوصى بشرحها. وهكذا، يعلن الأحبار والرّابيون بأنهم المسؤولون أو المفوضون للقيام بهذا الواجب. وفي هذا المنظور، يعتبرون أنفسهم المختارين والملهمين من الله. والمكلفين بتفسير الشريعة الشفهية التي استوحاها موسى بالاضافة إلى شريعته المكتوبة، والمؤهلين للقيام بهذه التفاسير والتعليقات والشروح بحكم السلطة الروحية الموهوبة لهم. وبالإضافة إلى ذلك، يعتقدون بأنهم معصومون عن الخطأ. ويبالغون بزعمهم هذا إلى درجة تجعلهم يعلنون أن الله يخطئ وهم لا يخطئون، وأن الله يندم وهم لا يندمون، وأن الله يستشيرهم في قضايا وأمور كثيرة يجهلها، ويخضع لأحكامهم ويأخذ بآرائهم التي تساعده على معرفة ما يحدث على كوكب الأرض. وهكذا، يعتبرون أنفسهم المفوضين الذين قاموا بتأدية الرسالة على نحو واجب يجعلهم يزعمون بأنه خلفاء الأنبياء.

لما كانت التفاسير والشروح والتعليقات كثير ومتعددة ومتنوعة في وجهات نظرها، فإن عدد الأحبار والرابين تناسب مع كثرة المدارس التي ألقت على عاتقها هذه المهمة العسيرة والخطيرة بالنسبة للشعب اليهودي الذي أصبح عدو الأمم والشعوب، وبالنسبة للشعوب الأخرى التي تدافع عن حضارتها وثقافتها، ومع ذلك، ظلت التفاسير، على الرغم من تباينها، تدور حول عقيدة مركزية واحدة، هي أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن الشعوب الأخرى بهائم في صورة بشرية وفي هذا الزعم، أو العقيدة، تكمن العرقية والعنصرية اليهودية التي تحول دون لقاء الشعب اليهودي مع الشعوب الأخرى ضمن نطاق التكامل، والتعايش المشترك، والاعتراف بالآخر، والمحبة، وهكذا، يلغي التلموديون الإنسان الآخر، فإن كانوا أبناء الله، كانت الشعوب الأخرى أبناء إبليس أو بهائم، وإن كانوا أخيارا، كانت الشعوب الأخرى أشرارا، وإن كانوا أبناء آدم، كان الشعوب الأخرى أبناء الأرض الذين تكوّنوا من التراب، فهم سماويون وغيرهم أرضيون. وإن كانوا سادة، كانت الشعوب الأخرى عبيدا. وهكذا يحق لهم، بحسب ما جاء في التلمود والتوراة على السواء، إخضاعهم واستعبادهم واستغلالهم لأنهم لا يمتون إلى إلههم يهود بصلة.

لما كان التلمود كتابا تشريعيا للأمة اليهودية ومصدرا دينيا، بحسب فهمهم للدين، فإنه يعتبر المرجع الأول لغالبية اليهود، فقد أكد الأحبار والرّابيون أن التلمود، وهو تدوين الشريعة الشفهية، أعظم من التوراة وأهم منها، ولما كانت التفاسير والاجتهادات قد كتبت أو دُوِّنت في فترات زمنية وتاريخية معينة، متقاربة أو متباعدة، فإن الواقع يشير إلى أن وضعها أو كتابتها تحققت في ظروف مختلفة لكي تكون التعليم الموجه والإرشاد الرئيسي للشعب اليهودي في ظرف معين أو في ظروف سائدة، ولتكون، بالإضافة إلى ذلك السلطة السياسية التي توجه هذا الشعب إلى نوع معين من السلوك أو التصرف وفق مقتضيات الظروف والصعوبات والشدائد - قصة شمشون وإستر في التوراة - لذا، كان هذا الكتاب، الذي يتألف من مجلدات عديدة، كتابا سياسيا أفحم «الله»! - أي الإله اليهودي في تضاعيفه ومضامينه، وذلك لأنه، كما يزعمون، يمدهم بالقدرة على تجاوز محنتهم عن طريق مخلص، هو في الحقيقة قائد حربي! وسياسي بارع. وهكذا، نعلم أن الظروف السائدة، التي كانت في غالبيتها ظروف استعباد ونفي وأسر واجتياح، كانت الدافع الوحيد لكتابة التعاليم والشرائع المحتواة في هذا الكتاب، والتأكيد على أن «الله»! يرى ما حل بهم من مصائب وويلات، ويدرك أنه المسؤول عن إهماله لهم

وعدم العناية بهم ومغادرته لهم، وسوف يرسل إليهم نبيا ينقذهم من أوضاعهم البائسة، وفي هذا المنظور، تشكلت لديهم عقدة الـ «مسيّا» أي المسيح المنتظر. إنهم ينتظرون مسيحا يخلصهم، وينقذهم، ويحررهم من عبودية الأسر والنفي والاعتداء، أو يمد يد العون أثناء الأزمات، ويعدهم بأن المسيح المنتظر سوف يساعدهم على استعادة سيطرتهم ووضع الأمم الأخرى تحت أقدامهم.

يشير ما تقدم إلى أن التلمود كتاب وضع في مجلدات عديدة، يشتمل على نواح متنوعة وكثيرة : منها ما يشير إلى أنه كتاب ديني، وذلك بحسب فهمهم للدين وفهم علاقتهم مع الله... إنه كتاب ديني مغلق على غير ما هو معروف لدى الأديان الأخرى المنفتحة، ومنها ما يشير إلى أنه كتاب تأريخ، بمعنى أنه وطف للظروف التي عانى بها هذا الشعب وكأن «الله»! يرافقهم في مسيرتهم التاريخية أو كان يغادرهم ليعود إليهم من جديد. ومنها ما يشير إلى أنه نظام يثبت أركان العلاقة بين اليهود كأمة أو كشعب وبينهم وبين الأغراب، ومنها ما يشير إلى أنه تعليم يتحدث عن النواحي الإيجابية الخاصة باليهود، أي الوصايا الموضوعة لتماسك الشعب اليهودي في نظام اجتماعي وكيفية تعاملهم مع بعضهم، والنواحي السلبية التي تشير إلى موقف اليهود من الأغراب والكفار. ومنها ما يشير إلى التشريع الذي يضع قواعد وأسس المجتمع اليهودي.

في هذا الكتاب، نجد أن بني إسرائيل هم وحدهم الصالحون وأن الناس مجرد بهائم في صورة البشر. وفيه نفهم الطريقة التي من خلالها، يتحقق الأمن القومي اليهودي الذي يقوم، بدوره، على أسلوب التعامل مع الأمم الأخرى التي تستباح بحسب نصوص التشريع التلمودي، وهكذا، نجد، في هذا الكتاب المقومات التي تشكل الكيان اليهودي العنصري والقومي الذي ندعوه «الصهيونية».

وضع أحبار اليهود وحاخاماتهم كتابين : التلمود الأورشليمي والتلمود البابلي. وقد وضع هذا الأخير أثناء السبي إلى بابل. ووضع أولهما بعد العودة إلى أورشليم وذلك من أجل تنظيم الحياة القومية والدينية والاجتماعية.

لما كان الأحبار يشددون على أن التلمود أعظم من التوراة وأهم منها، فلأنهم زعموا أن التوراة، التي يُعتقد بأنها كتبت قبل المسيح، لم تعد كتابا خاصا بهم وحدهم بقدر ما أصبحت كتابا مشترك بينهم وبين المسيحيين وبينهم وبين المسلمين في وقت لاحق ولهذا السبب، جعلوا التلمود السلطة العليا لليهود، وفضلوه على التوراة. فهو يعالج قضايا اليهود وأوضاعهم في فترات تاريخية مختلفة ومتعددة، إنما بما يتوافق مع الشريعة التوراتية المكتوبة وفي زعمهم، أن أهمية التلمود تكمن في سبب أصيل يؤكد العصمة التي تنأى بالأحبار عن الخطأ. وفي زعمهم هذا، يؤكدون أن الأحبار والرابيون يتكلمون بلغة الله، لأنهم إلهيون في صميمهم، فالله يستشير الحاخامات لأنه قاصر عن فهم ما يجري على الأرض، وعاجز عن فهم ما يحدث، لذا، يتوجب على الشعب اليهودي أن يأخذ بما يقوله الحاخامون، ويفعلون ما ينهى الله عنه أو يأمر به.

لقد وضع التلمود البابلي قبل المسيح وذلك في سبيل تنظيم القومية اليهودية في وفاق مع الشرائع والسنن التي وضعها الأحبار المستقاة من التوراة والمتجاوزة لها في آن واحد، وتأسس التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي، على نحو توفيقي، في القرن الأول الميلادي.

إذ نعود إلى دراسة وضع الدعوة أو البشارة ليهود في القرن الأول الميلادي، نجد أنهم، وقد رأوا وأدركوا أن المسيحية بدأت تنتشر بينهم وبين الإسرائيليين وبين يهود الشتات، عمدوا

إلى تشكيل «اللجنة السرية» التي دعت اليهود والإسرائيليين الذين تنبوا المسيحية، أو غيرهم الذين سيتوجهون إلى المسيحية، أن يدخلوا إلى صفوف المسيحيين لكي يتبنوا المسيحية ظاهريا ويعملوا على تقويضها داخليا، وفي هذا القرن الأول، أصبح : 1 ـ التلمود مصدرا دينيا ـ قوميا للأمة اليهودية، 2 ـ جُمعت أسفار التوراة والعهد القديم في وضعها النهائي والأخير وذلك بعد انقضاء مائة عام على بدء الدعوة المسيحية. وفي هذين الحدثين، استطاع الأحبار الذين وضعوا الشرائع والتفاسير والتعليقات والشروح وفق ما تقتضيه الظروف، أن يقحموا في التوارة أن يضمنوا فيها آيات وعبارات ملفقة لم تكن موجودة في التوراة من قبل، تربط المسيحية أي الإنجيل بالتوراة. وتتمثل تلك الآيات أو العبارات أو القصص على سبيل المثال في موضوع مجيء المسيح وولادته من عذراء في بيت لحم. ويؤسفني أن أقول : إن تلك الآيات والعبارات أصبحت تعتبر في وقت لاحق، نبوءة توراتية والحق، أنها أقحمت في وقت لاحق. وإذا كانت كلمة «مسيا» قد ذكرت في التوراة، فلأنها لا تشير، من قريب أو بعيد إلى المسيح ابن مريم، بل إلى كل شخص سعى إلى أو عمل على إنقاذهم في الماضي من مأزق أو من مشكلة كبرى. ولما كان اليهود يعانون من مشاكلهم التي يختلقونها بسبب عرقيتهم وعنصريتهم، فإن أحبارهم كانوا يطمئنونهم بأن الله سيرسل لهم منقذا أو مخلصا دعوه «مسيّا».. إنه مجرد قائد حربي يضع الأمم تحت أقدامهم.

يزعم بعض الدارسين أن كتاب التلمود، بوصفه كتابا تعليميا، يشتمل على تعاليم إيجابية تحث على تعامل اليهودي مع اليهودي وعلى علاقته مع الله، ويشتمل بالإضافة إلى ذلك، تعاليم سلبية تحث على العلاقة مع الناس ومع الله أيضا، فبقدر ما تكون العلاقة مع الله إيجابية، في ظاهرها، تكون في الوقت ذاته سلبية، وفي هذا المنظور، لا تتميز العلاقة مع الله، في التلمود، بالإيجابية أبدا. هذا، لأن الله الذي يُعبد، بحسب ما ورد في التلمود، هو إله شخصي يخضع لرغبات وشهوات ونزوات الشعب اليهودي الذي يخضع بدوره، لرغبات وشهوات وأماني وآمال وتطلعات الأحبار. ومن جهة ثانية، يخلع التلمود على الله صفات لا تليق بكائن مذنب أو بكائن يقترف الخطايا. فالله، وهو إلهه الحاخامات الشخصي، يكذب، يقترف الخطايا. فالله، وهو إله الحاخامات الشخصي، يكذب، ويسمح بوجود الشر، ويندم، ويكره، وينتقم الخ. وفي هذه الحالة، لا تعد هذه الصفات إيجابية، وذلك لأن الله لا يعرّف بالصفات البشرية السلبية.

بالإضافة إلى ذلك، تنسحب الصفات السلبية على أمور وقضايا أخرى، وعلى سبيل المثال، يذكر التلمود أن استباحة أو اغتصاب المرأة غير اليهودية موضوع أو تصرف لا يشكل ذنبا أو لا يعاقب عليه اليهودي كنطيئة. أما الجحيم فهو المأوى الذي يلجأ إليه الأغراب والشعوب الأخرى، وذلك لأن الجنة هي موطن اليهود ومكان خاص بهم وحدهم. وعلى الرغم من اعتبار التوراة إبراهيم الخليل رجلا مؤمنا وصالحا، لكن التلمود يعتبره ساحرا. والعالم، في نظر التلمود، مكان، كالجنة يخص اليهود... إنه ملك لهم، يتصرفون به كما يحلو لهم. وفيما يتعلق بموضوع التعامل مع الشعوب الأخرى، يحق لليهود أن يستفيدوا من الربا ويستبيحوا أموال الآخرين، والمسيح، كما يذكر التلمود، ابن زانية لأن أمه مريم كانت عاهرة. أما المسلمون، وقد أتى ذكرهم في وقت لاحق، فإن التلمود ينبذهم، ولا يعترف بهم لأنهم أبناء إسماعيل وفيما يتعلق بسكن اليهود وموطنهم، فإن القدس هي المكان الوحيد الخاص بهم.

عندما نتوجه إلى دراسة التعاليم التلمودية الإيجابية، ندرك

أن إيجابيتها تنحصر في نطاق تعامل اليهودي مع اليهودي. وتشير هذه التعاليم إلى أنها التشريع الذي يثبت النظام الاجتماعي القائم على معاملة اليهودي لليهودي على نحو ما تنص عليه الشريعة وذلك لتحقيق التضامن الاجتماعي القائم على العصبية العرقية والعنصرية التي تعلنها أخلاقية التلمود المغلقة. فإذا سمح التشريع بالزنا مع المرأة غير اليهودية، فإنما ليمنع الزنا مع اليهودية، وإذا سمح بقتل غير اليهودي أو بالكذب عليه، فإنما ليمنع الكذب والقتل عبر علاقة اليهودي مع اليهودي. وهكذا نرى أن الإيجابية الضيقة، أي ما ندعوها الأخلاق المغلقة، الضيقة والخاصة بالتعامل ضمن نطاق العشيرة أو القبيلة أو العرق أو العنصر أو الطائفة، عقيدة لا تتصل بالأخلاق المنفتحة أو بالشمولية الإنسانية الشمولية التي تحقق العلاقة الصحيحة بين الإنسان والإنسان بمعزل عن إشراطات وقيود العرق والعنصر.

يمكنني أن أخلص إلى النتيجة التالية : التلمود كتاب سياسي يؤكد على القومية اليهودية القائمة على العرق والعنصرية والاصطفاء والاختيار وحرمان الشعوب الأخرى من الوجود لأنهم، كما يذكر التلمود، ليسوا مخلوقات أو كائنات إلهية. وإذا أتأمل محتويات هذا الكتاب وتعاليمه وشرائعه التي هي مجرد تفاسير وشروح وتعليقات لا تنتهي، أدرك أن ما جاء في هذا الكتاب، الذي هو مجموعة مجلدات، يعتمد على ما جاء في التوراة، أي الشريعة المكتوبة التي يدعي الأحبار والحاخاميون بأنهم الموكلون والمؤهلون لتفسير الشريعة الشفهية التي تلقاها موسى وتدوينها... الشريعة الشفهية التي تركها موسى للأحبار والرابيين الذين سيعملون، يوما ما، على توضيحها على نحو اجتهاد يتحمل التعليق والشرح. وعلى الرغم من أن بعض المجتهدين في نطاق تأويل ما جاء في التوراة رفضوا ما جاء في كتاب التلمود واعتبروه تلفيقا وتحريضا وتزويرا وتزييفا للتوراة، لكن الغالبية العظمى من اليهود يأخذون به على نحو يجعلونه متساويا مع التوراة ومنسجما مع الشريعة المكتوبة المعبر عنها بالشريعة المكتوبة التي دُوِّنت من جديد على نحو شريعة وتعليم.

هكذا، أعود إلى التوراة وأن أتقصّى أصول التلمود فيها.

سأحاول في هذه الصفحات القليلة التي تعد تلخيصا وجيزا لأفكار وطروحات تتطلب الحوار وتستحق الدراسة والبحث، أن أرسم صورة توضح معالم العنف الذي يهيمن على الفكر اليهودي، ويهيمن على النفسية اليهودية المكوّنة في أبعادها التوراتية. وإذ أسمح لنفسي بإعادة ما ذكر في التوراة من ذهاب بني إسرائيل إلى مصر سعيا وراء الرزق والمعيشة، وتكريم المصريين لهم التكريم اللائق ببني الإنسان، والمعبّر عن سمو الموقف المصري، ورقي حضارته، فلأنني أحب أن أظهر حقيقة هامة تشير إلى أن اليهود لا يحترمون مبادئ الشعوب الأخرى، ولا يذكرون النعم التي تغدقها عليهم تلك الشعوب، ويتنكرون لكل تكريم وتقدير، وأخيرا، يشوهون الوقائع والحقائق بعد إقحام إرادة أو رغبة إلههم يهوه الذي يأمر بإبادة الشعوب، ويوصي بكرهها وتدميرها لسبب واحد هو الحفاظ على وجود اليهود والدفاع عنهم.

سأحاول أيضا أن أقيم علاقة بين الصهيونية واليهودية، وذلك لأبين الدليل الذي يؤكد أن الصهيونية قائمة في اليهودية، وفي محاولتي هذه، أخلص إلى القول : إن اليهودية أفرزت ذاتها كعنصر أو كعرق يستحق الحياة وحده، وحرمت الأمم الأخرى من هذا الحق. ولما كانت اليهودية هي الفئة التي سيطرت على بني إسرائيل وأنهت علاقة هذا الشعب مع الله، وأخضعته لعبادة يهوه، فإنها أصبحت سياسة فئة أو دولة تسعى إلى

تطبيق ما جاء به أحبار اليهود وما غرسوه في لا وعيهم الجمعي بأنهم الفئة الخاصة التي تعبد الله وتحظى برعايته لهم، تماما كما تحظى ببركة الوجود الأرضي والسماوي. والحق أنني أرى في التوراة، كما هي مدونة، كتابا وضعه أحبار اليهود، وهدفوا إلى تنفيذ سياسته ترمي إلى ربطهم بسلاسل العرقية، ونتيجة إلى السيطرة، وتسويغ هذه السيطرة ما دامت مستمرة من إلههم يهوه. وحاولوا، في كتابهم أو في كتبهم، تجريد الأمم من نعمة الوجود وبركة العلاقة مع الله، إذ جعلوا منهم كائنات مجردة أو محرومة من الروح.

أستطيع أن أقول : تعد التوراة والتلمود كتابا واحدا، ينقسم إلى مجلدين يتميز كل منهما بخلفيتين : في الخلفية الأولى، يتحدث الكاتب، أو الكتاب، عن الشعب الإسرائيلي الذي سيصبح في وقت لاحق الشعب اليهودي الذي اصطفاه إلههم يهوه ليكون شبعه الخاص، وجعله الممثل الوحيد له في العالم الأرضي، وفي الخلفية الثانية، يتحدث الكاتب أو الكتاب عن الخطة أو الطريقة التي تساعد على احتفاظ هذا الشعب الهودي، إذ لم يعد الشعب الإسرائيلي، بخصوصيته التي تميز بها نتيجة لاصطفاء إلهه يهوه له، وبقائه تحت رعايته في كل الأزمنة والظروف.

والحق، أن هذين الكتابين يتماثلان في محتوياتهما ولا يختلفان إلا في التعبير. ويعتبر كل منهما كتابا تاريخيا، وتشريعيا، وتنظيميا، وعقائديا ودينيا طقسيا، بالمعنى الحصري لهذه الكلمة. وعلى هذا الأساس يعتبر الكتابان أطروحة طقسية - سياسية - وفي هذا المنظور، تؤسس الصهيونية قاعدتها وتركز منهجيتها. وإذا كانت العرقية والعنصرية والاصطفاء هي العقيدة الأساسية السائدة في هذين الكتابين، أدركت أن التوراة سباقة في هذا المضمار.

وفي هذه الحالة، يجدر بي أن أعود إلى الأحوال التوراتية لأعلم كيف يزعم اليهود بأنهم شعب الله المختار. وسوف أعتمد على عقيدتين هما في الحقيقة، عقيدة واحدة، اعتبرهما الأساس أو الأصل الذي دعم هذا الزعم وتتأصل العقيدة الأولى في المفهوم الديني، والثانية في المفهوم العرقي والعنصري.

أولا : المفهوم الديني - حقيقة الأمر أن اليهودية ليست ديانة روحية، وعلى غير ذلك هي شريعة وصفها الأحبار إنها نسبة إلى مؤسسها يهودا بن يعقوب. وهكذا لا يمكننا أن نستشف ديانة من اسم شخص. فليس هنالك ديانة تدعى اليسوعية أو العيسوية، بل هنالك ديانة تدعى المسيحية. وليس هنالك ديانة تدعى المحمدية، بل هناك ديانة تدعى الإسلام. وليس هنالك ديانة تدعى سيد هارتيه، بل هنالك ديانة تدعى البوذية، وبالمثل ليس هنالك ديانة تدعى اليهودية، بل هنالك ديانة تدعى الإسرائيلية نسبة إلى إيل. وبالفعل، لم يكن هنالك شعب يدعى اليهود أو ديانة تدعى اليهودية فالشعب الذي دخل مصر، كما تدعي التوراة، وخرج منها كان يدعى إسرائيل، وديانته كانت إسرائيل. وبعد دخول بني إسرائيل إلى فلسطين، تأسس إقليم دعي «اليهودية». حدث هذا لأن الفئة من بني إسرائيل، تلك التي أسست هذا الإقليم، كانت سبط يهودا، أحد أبناء يعقوب - إسرائيل الاثني عشر، وهذا ما أدى إلى فوضى التمييز بين إسرائيل ويهودا.

وقد تعاون سبط لاولي، أي الكاهن، مع سبط يهودا لتشكيل دولة يهودا التي جعلت من أورشليم إقليما لها. أما الأسباط العشرة الأخرى فقد استوطنت الجليل والسامرة، وظلت إسرائيلية في صميمها.

في هذا المنظور، نعلم أن اليهودية تشير إلي إقليم أو دولة سياسية تتبنى الشريعة. وبالمقابل، تشير كلمة إسرائيل إلى

ديانة وهكذا تعتبر اليهودية عقيدة قومية متعصبة تتخذ من صهيون أنموذجا لها. أما الإسرائيلية التي وجدت في «جليل الأمم» فقد كانت عقيدة منفتحة تتفاعل مع عقائد الأمم. لكن اليهودية، اجتهدت، بمرور الزمن، أن تصبغ الإسرائيلية بصبغتها القومية المتطرفة. لقد احتقر اليهود الإسرائيليين، ووقفوا منهم موقف العداء والتعالي. وفي هذا السياق تعد اليهودية حركة سياسية، عرقية وعنصرية تقحم الشريعة لصالحها. وقد عُرفت بالصهيونية في وقت لاحق إنها صهيونية إسرائيل. أما المسيح فقد قاوم اليهودية، وسعى إلى إسقاطها، ولقد برهن على سقوط اليهود بسقوط تلميذه يهودا الذي يمثل سبط يهودا، وأكد ثبات تلاميذه الآخرين الذين يمثلون إسرائيل ويتجهون إلى مصالحة الأمم والشعوب الأخرى. وقد شارك النبي محمد المسيح موقفه هذا إذ عزّز الإسرائيلية وأصاب اليهودية.

إذ أبلغ هذا المستوى من البحث، أطرح على نفسي السؤال التالي : أين تكمن خطورة اليهودية بوصفها مؤشرا إلى الصهيونية ؟

تكمن خطورتها في ادعائها بأن اليهود هم شعب الله المختار.

يزعم اليهود أنهم الشعب الوحيد الذي يمت بصلة العلاقة النسبية بآدم. وفي زعمهم هذا، يعتقدون بأنهم الشعب الوحيد الذي تحدّر من سلالة آدم، الأمر الذي يدفعهم إلى الاعتقاد أنهم أبناؤه وحدهم. ويعد هذا الزعم والمعتقد تجريد للأمم من بنوة آدم وحرمانا لهم من علاقة أبوية وثيقة.

تقتضي العبارة السابقة طرح السؤال التالي : ما علاقة هذا الزعم بمعتقدهم الذي يشير إلى أنهم شعب الله المختار ؟

تنص الكتب الدينية اليهودية كما تنص التفاسير التي اجتهد بها أحبار اليهود، على وجود نوعين من التطور :

أ ـ تطور هابط من السماء.

ب ـ تطور صاعد من الأرض، أي من التراب.

لما كان آدم، الذي يتحدثون عنه ويجعلونه أبا خاصا لهم، فقد ولد من دون أب أو أم، أي خُلق من الله مباشرة، وفق زعمهم، فإنه يمثل التطور الهابط من السماء، من الله. ولما كانوا يجسّدون زعمهم هذا ويعتقدون بأنهم أبناؤه أو شعبه، فإنهم بالتالي، يجسّدون معتقدا هو أنهم أبناء الله لأنهم أبناء آدم الذي لم يولد من رجل وامرأة. إذن، فعلاقتهم مع الله تتحقق عن طريق أبيهم آدم الذي أتى إلى الوجود على غير ما هو معروف عن التناسل والولادة المعهودين. إنهم يخصون أنفسهم بهذه العلاقة ويحرمون الشعوب الأخرى منها... إنهم كما يزعمون أبناء التطور الهابط من السماء.

وإذا ما تساءلت عن موقف اليهود من الأمم، أجبت بما يذكره التلمود وما تتضمنه التوراة في تضاعيف معتقداتها.

جميع الأمم والشعوب قاطبة هم نتاج تطور صاعد من العناصر المادية. إنهم أبناء الأرض والتراب، أبناء الناس وبنات الناس. وهكذا، يتخذ جميع الناس أجسادا مجردة من الروح. هذا لأنهم يتخذون الشكل البشري عبر التطور الحيواني فالشعوب كما يزعم اليهود، أبناء التطور الصاعد من التراب.

هكذا، يفسّر اليهود هذين التيارين ضمن نطاق التطور :

أ ـ تيار صاعد من الأرض من الأدنى يمثل الأمم.

ب ـ تيار هابط من الأعلى، من الله يمثل اليهود.

هكذا، يعتقدون أن علاقتهم مع الله هي علاقة أبناء أو شعب

خاص ولم يتورعوا عن تسمية أنفسهم، في سفر التكوين، بالجبابرة أبناء الله، وتسمية الأمم بأبناء وبنات الناس.

تلكم هي العرقية اليهودية التي تسعى الصهيونية إلى دعمها وتحقيقها.

ثانيا : المفهوم العرقي والعنصري ـ يتضح هذا المفهوم في السؤال الثاني : كيف تندمة الصهيونية مع اليهودية في التوراة؟

يتصل هذا السؤال بسؤال أخر، هو : ماذا تعني كلمة صهيون؟ تعني هذه الكلمة جيل صهيون، جيل الرب الذي تجتمع فيه محافل الملائكة.

يعتقد اليهود أنه يتوجب عليهم أن يعبدوا «الرب» أي الإله كما يحلو لهم أن يتخيلوه، على جبل صهيون. وهكذا، يكون جبل صهيون مقدسا في نظر اليهود. وبالفعل، لا يختلف جبل صهيون عن جبل الأولمب الذي اختاره اليونانيون القدامى ليكون مقرا للآلهة.

يعتقد اليهود أن عبادتهم لإلههم لا تتحقق إلا على جبل صهيون وفي مدينة أورشليم وفي الهيكل الذي هو رمز مصالحتهم مع إلههم.

يزعم اليهود أن أورشليم هي المدينة الخاصة بسكناهم، هي مدينة داود ومقر الهيكل حيث يعبدون إلههم، هذا، لأن اليهود يعجزون عن لقاء الرب وعبادته إلا في أورشليم، في الهيكل وعلى جبل صهيون... وهكذا، تكون الصهيونية قائمة في اليهودية وماثلة فيها. وعلى هذا الأساس، لا تعد الصهيونية مصطلحا جديدا أو تعبيرا جديدا الحركة سياسية، لقد وُجدت الصهيونية مع اليهودية في الصحراء، وتركزت في سياسة فئة إقليمية هي اليهودية، وفي السعي إلى تأسيس دولة قومية لم تتحقق على أرض الواقع.

الصهيونية قائمة في لعنة اليهود للشعوب التي تجردها من حق الحياة والوجود.

الصهيونية قائمة في يهودية تسعى إلى إفساد شعوب العالم وإخضاعها.

الصهيونية قائمة في عقيدة الشعب المختار، شعب يهوه.

الصهيونية قائمة في تدبير يهوه لقضية اليهود ولحياتهم في تخطيط مسبق لوجودهم.

الصهيونية قائمة في جبل صهيون، في أورشليم، في بناء الهيكل، وفي دعوة إلههم للعودة إليهم. وعلى هذا الأساس، يعتقد اليهود أن إلههم قد غادرهم بعد تدمير الهيكل. فهم غرباء في العالم ومشتتون، ولن تنتهي غربتهم وتشتتهم، أي لن يعودوا إلى ديارهم إلا بعودة إلههم إليهم. وترتبط عودة إلههم ببناء الهيكل. وسوف يبنى هذا الهيكل في أورشليم، ويتم اللقاء في صهيون.

الصهيونية قائمة في عنصرية يهودية التوراة، وهذا يعني أن الصهيونية قائمة في احتضان دولة إسرائيل ليهود العالم أجمع، وفي النتيجة التي انتهى إليها مؤتمر الكتّاب اليهود : كل يهودي هو صهيوني.

تزداد دهشتي وأنا أفكر كيف استطاع اليهود أن يدخلوا إلى عقول الناس، شرقيين كانوا أم غربيين، ان الصهيونية حركة جديدة منفصلة عن اليهودية. ألا نعلم أن اليهودية صفة مميزة لسبط يهودا، هو سبط من أسباط بني إسرائيل، متعصب لذاته، ادعى التفوق لذاته؟ فالملوك والأنبياء يجب أن يكونوا يهودا، وبيت لحم يجب أن تكون يهودية، وأورشليم يجب أن تكون يهودية، وهكذا، يجسّد سبط يهودا عصبية وعرقية إسرائيل وصهيونيتها. وفي الوقت الحاضر، تحاول دولة إسرائيل أن

تلوّن مواطنيها بصبغة اليهودية، الأمر الذي يجعلنا نرى الصهيونية في زيّها القديم والحديث... ولقد وُجدت الصهيونية بوجود اليهودية... وولدت الصهيونية وترعرعت في أحضان اليهودية.

هنالك قضايا أخرى قائمة في صلب التوراة والتلمود تشير إلى يهوديته ـ صهيونية تفعل هادفة لتفويض المبادئ الإنسانية وإحداث بلبلة في موازين ومعايير القيم والمفاهيم، وذلك لاحتجاز هذه القيم والمفاهيم ضمن نطاق التوراة، وربط كل عقيدة أو مبدأ، مسيحي وغيره، بقيود العقيدة التوراتية.

يجدر بي، في هذا السياق وعلى سبيل المثال، أن أذكر هذه القضايا وأسعى إلى التأكيد على أنها لا تحمل المعاني التي طرقتها اليهودية الصهيونية وتقبلها القائمون والمشرفون على التفاسير التوراتية من أي اتجاه فكري كانوا.

أولا ـ النبوءات:

أ ـ لا تعدى نبوءات التوراة عن المسيح كونها رغبة مكبوتة في صميم لا وعي اليهود بمجيء مخلص، والحقيقة تشير إلى أن كلمة «مسيح» لا تتجاوز نطاق مصلحتهم القومية والسعي إلى تنشئة قائد حربي ينقذهم. فهم يلحون علي ويطالبون بمجيء مسيح في الظروف التاريخية والسياسية التي في أثنائها، تداهمهم المصائب أو يقعون في شباك الفوضى والاضطراب، أو أثناء الأسر والنفي، وفي أوقات الضعف الذي يستحوذ عليهم.

ب ـ يعلق أدعياء الدين التقليدي، الذين يودون إقامة علاقة بين الجديد والقديم، أهمية كبرى على النبوءات التوراتية عن المسيح، فهم يقولون : إن التوراة، في سفر إشعيا وغيره، تنبأت بولادة المسيح من عذراء في بيت لحم اليهودية. ويشددون على قيمة هذه النبوءة ويعتمدونها برهانا على علاقة التوراة بالإنجيل لكن هذا البرهان لا يجد تبريرا له بسبب التناقض في صلب النبوءة المزعومة ذاتها. فصورة المسيح التي رسمها السفر تتناقض مع المسيح الحقيقي الذي ولد في بيت لحم. هذا لأن النبوءة التوراتية تصور المسيح قائدا حربيا يخلص شعب إسرائيل، ولا تتحدث عن المسيح الذي دعا إلى المحبة والذي يحدثنا عنه الإنجيل. ولما كانت نبوءة ولادته في بيت لحم لا تنطبق عليه، فإن هذه النبوءة أقحمت، في وقت لاحق، في أماكن عديدة في التوراة، وهذا ما قام به اليهود المنتصرون الذين أدركوا أن زمام الأمور بدأ يفلت من أيديهم فقد عمدوا إلى إقحام ايات وعبارات في التوراة تهدف إلى ربط الإنجيل بالتوراة.

نحن نعلم أن كلمة «مسيًا» في التوراة مصطلح يطلق على كل ملك، أو نبي، أو قائد، يهوديا كان أم غير يهودي، عمل على تخليص اليهود من أزمة تعرضوا لها أو صعوبة أو مصيبة حلت بهم، وتوقعوا تدخل إنسان يخلصهم وينقذهم. والواقع أن اليهود لم يتورعوا عن تسمية فورش، ملك فارس، بالمسيح، وذلك لأنه خلصهم من أسرهم وسبيهم. إذن فالمسيح، في رأيهم، ليس واحدا بقدر ما هو «مسحاء» عديدون. ودور هذا المسيح ينحصر في تقديم العون لليهود والإسرائيليين. إذن، تتحدث التوراة عن أكثر من مسيح، وإذا كان الأمر كذلك، فليس المسيح المذكور في التوراة هو المسيح المنتظر هذا، لأن أنبياء اليهود، أو بالأحرى أحبارهم، يطرحون قضية المسيح على بساط البحث في كل ظرف يتعرضون فيه لويلات، ونكبات، ومخاطر، ويبحثون عن خلاص منها، أما المسيح المذكور في الإنجيل فهو مسيح الأمم كلها... مسيح لا يتصف بأية صفة توخاها اليهود من أي مسيح ينتظرونه لتحقيق رغباتهم

وأمانيهم القومية والعنصرية.

ج ـ بحسب ما جاء في التوراة يُخفق موسى في تحقيق مآرب بني إسرائيل بصدد الدخول إلى الأرض الموعودة، يتنبأ بآخر غيره، مسيح أو نبي هو يشوع بن نون، القائد الحربي، إذن، فالأمر مرتبط بقيادة وزعامة دنيوية وليس بخلاص روحي. كان الأنبياء والملوك مسحاء.

ففي أشعيا 45: 1-4 نقرأ : «قال الرب لمسيحه...»

ثانيا ـ تشكيل اللجنة السرية :

بعد انتشار المسيحية داخل فلسطين وخارجها، وبعد تشكيل اليهود للجنتهم السرية قرابة عام 37 م دُعي اليهود إلى اعتناق المسيحية وحُرّضوا على تقويضها من الداخل، فجعلوا من المجتمع اليهودي مقرا لدعوتهم. لذا، كانت المسيحية تنتشر في فلسطين تحت كنف المجتمع اليهودي حتى عام 64 م.

ثالثا ـ المسيح وداود :

ذكر المسيح أنه ليس يهوديا ولا يمت إلى داود بصلة وبرهن المسيح على انتمائه إلى منهجية التفكير الأممي الصافي وعلى صلته النسبية التي تتجاوز العرقية اليهودية. فقد بدأ المسيح بتبشير أهل الجليل لسببين : 1 ـ لأنه جليلي أممي، 2 ـ لأن أهل الجليل كانوا أمما بغالبيتهم وإسرائيليين متأثرين بآراء الأمم، ونابذين للعنصرية اليهودية.

رابعا ـ الصيغة الأخيرة للعهد القديم والتوراة :

من الأهمية بمكان أن أذكر أن النسخة الأخيرة التي جُمعت وضمّت التوراة وأسفار العهد القديم ككل في كتاب واحد لم تأخذ صيغتها الأخيرة أي أنها لم تدوّن كما هي الآن، إلا بعد انقضاء مائة عام على قيامة المسيح. وهذا يعني أن العديد من الأقوال، والفصول، والقصص، والمعتقدات، والتعليقات، والملاحظات والتفاسير قد أقحمت أو أضيفت في هذا التجميع الأخير. والحق أن هذا التدوين الأخير للعهد القديم الذي تضمن، كما يرغب الأحبار والرابيون، عبارات وأقوالا ومعتقدات زائفة، هدف إلى ربط المسيحية بالعهد القديم وإقامة علاقة وثيقة ومصالحة، وقد هدفت هذه الإقحامات أو الإضافات أيضا إلى إظهار العهد الجديد بأنه إكمال للعهد القديم. وتعرضت المسيحية للتشويه من قبل اليهود الذين اعتنقوا المسيحية.

خامسا ـ المسيح لم يأت لليهود :

يميّز المسيح بين الإسرائيليين واليهود في قوله : «لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة» إذن، لم يُرسل المسيح إلى اليهود وعلى غير ذلك، أرسل إلى بني إسرائيل الذين أضلّهم أحبار ورابيّو اليهود، لينقذهم من أضاليل اليهود، فالمسيح يعترف ببني إسرائيل ويرفض اليهود الذين يدعوهم إلى التوبة كما فعل يوحنا المعمدان وبالفعل، كان المسيح يتجنب الذهاب إلى أورشليم، عاصمة اليهودية، لقد قاوم المسيح اليهود الذين أفسدوا الإسرائيليين والأمم وأضلوهم.

سادسا ـ عقيدة المجيء :

نشأت عقيدة المجيء المخلص، لدى اليهود عندما كانوا في الأسر في بابل، وقبل ذلك أثناء تيههم في صحراء سيناء. وأخذ أنبياؤهم وأحبارهم ورابيوهم ينشدون الخلاص ويأملون وطن قومي. وإن ما حققوه بعودتهم من سبي بابل، يستمرون بادعائه في الوقت الحاضر لاعتقادهم بأنهم لا يزالون في عالم النفي والأسر والغربة. أما أرض الآباء فلم تعد أرض للآباء كما يزعمون. لذا، تهدف الصهيونية إلى تدميرها : العراق مثلا.

سابعا ـ هبة الأرض:

تذكر التوراة أن «الإله» يأمر إبراهيم بترك الأرض التي يقطنها ويمضي إلى الأرض التي يعطيها له ولنسله. وتذكر أيضا أن الإله ذاته يعطيه ويعطي موسى وشعبه الأرض الواقعة بين الفرات والنيل.

في هذين القولين، نجد تناقضا كبيرا. في القول الأول، يأمر الإله إبراهيم أن يترك أرضه ليعطيه أرضا أخرى يقطنها أناس آخرون (هم الفلسطينيون)، تعتبر مقدسة، وفي القول الثاني، يعطيه الأرض التي يأمره بمطاردتها (بلاد الآباء أي الأرض الواقعة بين النهرين). وبناء على التناقض الوارد، نسأل : أين القدسية في الموضوع؟ وأي أرض منهما تعد مقدسة؟ وإذا كانت الأرضان مقدستين، فلم يأمر «إلهه» بمغادرة الأولى؟ ولمَ لم يعطه الإله الأرض دفعة واحدة قبل أن يغادر الأولى؟ ولمَ لم يأمره بالبقاء والإقامة في الأرض التي يسكنها إن كانت القضية ترتبط بالعبادة فقط؟ أيعتبر هذا التصرف تصرف إله محبة أم تصرف إله قومي وعنصري؟

وعلى غير ذلك، بل على نحو نقيض، تشدد التوراة في سفر التكوين، على احترام بلاد الآباء (تكوين 15: 15) التي غادرها إبراهيم بناء على اعتبارها بلاد خارجة عن نطاق معرفة «الله» ويأمر إبراهيم وفق ما جاء في السفر ذاته، ابنه اسحق أن يتخذ زوجته له من بلاد الآباء. وبالمثل يوحي اسحق ابنه يعقوب أن يتخذ له زوجة من بلاد الآباء. ألا يعني هذا أن قدسية الأرض تشمل بلاد الآباء والأرض الجديدة الممنوحة التي هي فلسطين؟

يمكنني أن أستنتج ما يلي : الله لا يعطي أرضا لشعب ويقول له : «أعطيك الأرض الواقعة بين النهر الكبير والنيل» الله الحق يعطي الأرض لجميع الناس ليعيشوا مع بعضهم في محبة ووئام وسلام. هذا، لأن الله يحب جميع الناس، يهتم بشؤونهم ويرعاهم على نحو عناية فائقة.

في الوقت الحاضر، إذ يدرك اليهود أن أرض الآباء المزعومة لم تعد أرض الآباء. ومع ذلك، يسعون، عبر مؤامرتهم (قصة استير) إلى تدمير شعب تلك الأرض (العراق)، وذلك لأنهم يعتبرونه مسؤولا عن أسرهم وتشتتهم. إنهم يصبون جام غضبهم التوراتي والتلمودي المجسّد بالصهيونية التي تجعل من شعب إسرائيل دولة عدوانية بعنصريتها وعرقيتها. وتظهر هذه الصهيونية جلية في عدوانها على الفلسطينيين الذين اضطهدهم اليهود في القديم، ويضطهدونهم في الوقت الحاضر على نحو ما أمرت به التوراة. إنهم يُسقطون عقيدتهم التوراتية العدوانية الماضية على الشعوب الحديثة التي تبنّت مبادئ إنسانية وكونية ساعدتها على إبداع حضارة يفتخر بها العالم أجمع وفي هذا المنظور، اعتبر دفاعي عن هذه الحضارة واجبا إنسانيا وكونيا، وتأكيدا على كون الصهيونية عقيدة عدوانية تعمل على مستويين :

1 ـ مستوى تقويض المبادئ الإنسانية والروحية، وإفساد الشعوب وتلويث أخلاقها.

2 ـ مستوى الاعتداء على مقومات الشعوب التي تحيط بها نتيجة للكراهية والعدوانية التي تنطوي عليها التوراة والتلمود. العدوانية التي أدعوها الصهيونية في زيها القديم (اليهودية) وفي زيها الحديث (دولة إسرائيل).

❄ ❄ ❄

الاستيطان والهجرة في الفكر الصهيوني 1864-1939

سميح شبيب *

يشكل الاستيطان، حجر الزاوية في الفكر الصهيوني، وأساسا من أسس بناء الدولة العبرية. ويختلف الاستيطان الصهيوني، اختلافا جوهريا عن غيره من الأنماط الاستيطانية الأخرى التي شهدها العالم. ذلك أنه يرتكز على أبعاد عدة، يأتي في مقدمتها الدين والأسطورة. وبالتالي محاولة خلق حقائق كيانية داخل التجمعات الفلسطينية العربية، بغية مضايقتها ومن ثم طردها.

ولعله من المفيد، محاولة إعادة قراءة الفكر الاستيطاني الصهيوني منذ بداياته، ذلك أن تلك البدايات لا تزال قائمة بشكل أو آخر، داخل الأطر والمناهج السياسية الإسرائيلية المعاصرة.

البدايات:

من الممكن اعتبار المرحلة الأولى من المسألة اليهودية، بمفهومها الحديث، كمقدمة لنشوء الحركة الصهيونية، هي مرحلة طرد اليهود من إسبانيا سنة 1492، كنتيجة من نتائج الصراع الديني القائم هناك، بين اليهودية والمسيحية.

فاليهود الذين طردوا من إسبانيا (وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم اليهود السفارديم ـ نسبة إلى سفارد ـ إسبانيا بالعبرية ـ ويطلق عليهم عامة اسم اليهود الشرقيين)، توجهوا إلى المناطق التي كانت خاضعة للحكم العثماني في أوروبا وآسيا، بينما وصل بعضهم إلى فلسطين[1].

كان اليهود في فلسطين، حتى منتصف القرن التاسع عشر، وقبيل وصول طلائع المهاجرين الصهيونيين من روسيا ورومانيا إليها، أقلية ضئيلة بين السكان العرب، تعيش في نحو عشرة أماكن مختلفة من فلسطين. ويعود وجود اليهود في فلسطين في العصور الحديثة، إلى نهاية القرن الخامس عشر، أي بعد وصول السفارديم إليها.

ووفقا لما ورد في الكتاب السنوي الإسرائيلي، فإنه كان في فلسطين سنة 1822 ما يقارب من 24 ألف يهودي[2].

ويبدو أن هذا الرقم قريب من التقدير العثماني، ذلك أن السلطات العثمانية، لم تقم بإحصاءات رسمية للسكان يمكن الاعتماد على نتائجها، لكن ومع ذلك، فقد بلغ عدد سكان فلسطين، وفقا للإحصاءات التقديرية في منتصف القرن التاسع عشر نحو نصف مليون نسمة، 80٪ عرب مسلمون، و 10٪ عرب مسيحيون، وربما 5٪-7٪ يهود[3].

---

* باحث من فلسطين

(1) صبري جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الأول 1826-1917، بيروت : مركز الأبحاث 1976، ص 13 .

(2) The Israel Yearbook, 1950/51 : Tel Avive, Israel Publication 1952, p. 81.

(3) Janet Abu-loghad, The Demo Graphic Transformation on Palestine, North Westren University ress., 197, p. 140.

ونظرا لقلة عدد اليهود في فلسطين، فقد أخذت الأفكار الصهيونية تتبلور خارج فلسطين والمنطقة العربية عموما، منذ نهايات القرن الثامن عشر، وبدأت الدعوات لاستيطان فلسطين وتشجيع الهجرة اليهودية إليها، تظهر بوضوح. وفي هذا السياق، وضع زفي هيرش كاليشر Kalisher H.Z. (1795–1874) كتاب «السعي لصهيون»، وجاء فيه : «أن خلاص اليهود لا يكون على يد مسيح منتظر، وإنما عن طريق الجهد البشري اليهودي، لتخليص أنفسهم بالمبادرة إلى بناء مجتمع يعتمد على ارتباط اليهودي بأرض يزرعها تكون بمثابة وطن قومي له، ولا يتم ذلك إلا في فلسطين»[4].

ولتحقيق فكرته، قام كاليشر بخطوات عملية، فطلب من الممولين اليهود المساهمة في تكوين جمعية هدفها استثمار فلسطين، وبالتالي تشجيع يهود شرقي أوروبا وألمانيا على الهجرة إليها. وقد استطاع كاليشر، من خلال جهده الدؤوب، تأسيس «جمعية استثمار أرض إسرائيل» سنة 1864. وكانت متعاونة مع الأليانس الإسرائيلي العالمي، وأقامت أول مدرسة زراعية يهودية في فلسطين عند مدخل مدينة يافا سنة 1870، وعرفت باسم مدرسة نيتر "Netter". ومنذ إقامتها، قام الفلاحون الفلسطينيون بمعارضة إنشائها، وحدثت مشاكل حول حدودها، ذلك أن الفلاحين الفلسطينيين لم يرحبوا بوجود مؤسسة أجنبية تتوسط قراهم[5].

وفي سنة 1882، وضع د. ليو بنسكر (1821–1891) واسمه الحقيقي يهوذا لايب، كتاب التحدد الذاتي "Auto Emancipation"، طالب فيه بحل المشكلة اليهودية، وقال : «أن اليهود أينما وجدوا، ينظر إليهم على أنهم غرباء، ومن أجل ذلك كانوا يحتقرون، وأن التحرر الحقيقي هو في خلق قومية يهودية للشعب اليهودي، ليعيش هذا الشعب على أرض موحدة ومحددة».

وطالب بنسكر بعقد مؤتمر يهودي عالمي، هدفه شراء أرض تستوعب استيطان ملايين عدة من اليهود، دون أن يحدد فلسطين مكانا لها[6].

ونظرا لأهمية كراس «التحرر الذاتي»، فقد اعترف ثيودور هرتزل بقيمته ودوره، وذكر بأنه لم يطلع عليه، إلا بعد نشر دعوته لقيام الدولة اليهودية عام 1896، وأضاف، أنه لو اطلع عليه من قبل لما وجد هناك مبررا لنشر آرائه المشابهة في كراس «الدولة اليهودية»[7].

وعمليا، فقد بدأت الهجرة اليهودية من روسيا إلى فلسطين، سنة 1881، وكانت شديدة العنصرية وضعيفة التنظيم، وجاءت، تلك الهجرة، بعد اغتيال قيصر روسيا اسكندر الثاني في آذار (مارس) 1881، وكنتيجة لاشتراك تبعتها هجرات، اتجهت في غالبيتها العظمى إلى غرب أوروبا والولايات المتحدة، وهاجر بعضها إلى فلسطين وأطلق اسم «هواة صهيون» أو «أحباء صهيون» حوفيفي تسيون (Lovers of Zion) على حركة المهاجرين اليهود من روسيا وبولونيا ورومانيا إلى فلسطين، وهم الذين أنشأوا المستوطنات اليهودية الأولى في البلد، وفق أسلوبهم السياسي، وذلك عبر الهجرة الأولى 1881–1904[8].

(4) حسن خلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897–1909، بيروت : دار الهدى، ط 2، 1990، ص 35 .
(5) عبد العزيز عوض، مقدمة تاريخ فلسطين الحديث، 1831–1914، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983، ص 73 .
(6) جريس، المصدر السابق، ص 92 .
(7) الحلاق، المصدر السابق، ص 38 .
(8) جريس، المصدر نفسه، ص 376–379 .

وفي بريطانيا، تأسس اليانس إسرائيل Anglo-Jewsh Association سنة 1870 . وفي العام 1873، تأسس اليانس إسرائيلي في ألمانيا. وتمكن يهود من الأليانس المذكور، بالتعاون مع يهود من القدس، من شراء مساحة من الأرض، أقاموا عليها مستعمرة بيتح تكفا Tekivah Peta (أي بوابة الرجاء) في اللغة العبرية، وذلك في العام 1878 .

وفي السياق ذاته، نجح رئيس الأليانس، أدولف كريميه - النائب اليهودي في مجلس النواب الفرنسي سنة 1868، في الحصول على ميثاق من السلطان العثماني عبد العزيز، يمنح الأليانس أرضا مساحتها 2600 دونم بالقرب من يافا، وذلك بموجب عقد إيجار مدته 19 عاما لإنشاء مدرسة زراعية، وقد تم بناء المدرسة عام 1870، بالتعاون مع البارون أدموند روتشيلد، وعرفت باسم مدرسة مكفيه إسرائيل «أمل إسرائيل».

وفي سنة 1871، أسس الحاخام يهودا شيلوم حاي القلعي جمعية لاستعمار الأراضي في القدس، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تخليص اليهود من الشتات، باعتبار أن فلسطين هي السبيل الوحيد أمام اليهود، ذلك أن الهجرة إليها تعني التوبة، والتوبة لا تعني فقط العودة إلى الله، وإنما إلى الأرض أيضا، والبحث عن صهيون.

إلى هذا، قام روتشيلد، بتمويل عمليات الاستيطان، وساعد اليهود منذ العام 1877، بواسطة الزعيم الروسي وانبرغ، الأمر الذي أسهم في بناء المستعمرات الخمس الأولى، ومدها بالأموال.

وفي رومانيا، أسست أول جمعية لهجرة اليهود في بوخارست، سنة 1880، وتمكنت في سنة 1882 من شراء 270 دونم في الجاعونة، وأسسوا مستوطنة روش بينا (رأس الزاوية). وفي 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 1882، أقام مهاجرون من رومانيا مستوطنة زمارين (زخرون يعقوب). وفي خلال السنوات 1882-1884 وصل عدد المستوطنات التي أسستها طلائع الهجرة الأولى في فلسطين إلى ثمانية. وهكذا بدأ التسلل الاستيطاني الصهيوني إلى فلسطين. وبذلك يمكن اعتبار عام 1882، نقطة تحول هامة في تاريخ فلسطين خلال القرن التاسع عشر، حيث سجلت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، أولى خطاها المنظمة، ذات الأغراض السياسية من أوروبا إلى فلسطين.

ووفقا للمصادر البريطانية، فقد تمكن اليهود منذ سنة 1882، وحتى سنة 1914، من شراء ما مجموعه 420.600 دونم من أراضي فلسطين. وكانت وسائط الشراء الأساسية، الأيكا، والأفراد الذين حصلوا على 404.200 دونم منذ الهجرة الأولى وحتى الحرب العالمية الأولى، والصندوق القومي اليهودي (الكيرن كايميت) الذي حصل سنة 1914 على 16.400 دونم[9]، الاستيطان الزراعي اليهودي 1882-1814[10].

(9) جدول مستخرج، خاص بالدراسة.

(10) Hyason: The British Consolate in Jerusalem in Relation To A. the Jews in Palestine, 1838-1914, London, Vol. 12, P. 558.

جـــدول رقـم (1)

العام	الأراضي المشتراة (بالدونم) بواسطة الصندوق القومي اليهودي	المستوطنات الزراعية بواسطة الأيكا والأفراد	المجموع	العدد	السكان
1882	—	25.000	25.00	5	500
1890	—	107.100	107.100	14	2.770
1900	—	220.70	220.700	22	4.950
1914	16.400	404.200	420.600	47	11.580

المستوطنات اليهودية في فلسطين قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول 19-21 / 8 / 1897 بازل ـ سويسرا.

جـــدول رقم (2)

الـرقـم	الاســم	سنة التأسيس
1	مكفيه يسرائيل	1870
2	بيتح تكفا	1878
3	روش بيتا	1882
4	ريشون ليتسيون	1882
5	زخرون يعقوب	1882
6	يسودها هامعليه	1883
7	نس تسيونه	1883
8	عكرون (مزكيرت باتيه)	1883
9	غديره	1884
10	بيئر طوفيا	1887
11	بات شلومو	1889
12	ميئر شافيه	1889
13	مشمار هايردن	1890
14	رحوفوت	1890
15	الخضيرة	1890
16	المطلة	1896

الـموقـف الـعـثـمـاني:

تنبهت السلطة العثمانية لمخاطر الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإقامة مستوطنات بها منذ بدايات الحركة الاستيطانية. وعليه أصدر الباب العالي سنة 1855 قانونا يمنع الأجانب بموجبه من الاحتفاظ أو شراء الأراضي في فلسطين. وفي سنة 1869، أصدر الباب العالي قانونا آخر عرف باسم نظام استملاك التبعة الأجنبية للأملاك. وفي شباط (فبراير) 1887، صدرت أوامر جديدة في شأن الهجرة اليهودية وجهت

إلى متصرفي القدس ويافا، تعلمهما بأنه سيسمح لليهود بدخول البلاد كحجاج أو زوار فقط، وعلى كل يهودي يصل إلى يافا أن يدفع 50 ليرة تركية لقاء تعهده بمغادرة البلاد خلال 31 يوما(11).

وفي سنة 1882، أصدر الباب العالي قوانين عديدة خاصة بالهجرة اليهودية إلى الدولة العثمانية، ومع ذلك استمرت جهود اليهود، بغية إقناع السلطان عبد الحميد بضرورة العدول عن هذه القوانين. وفي هذا السياق، حاول الزعيم الصهيوني هرتزل، إقناع السلطان عبد الحميد، بفوائد الهجرة اليهودية إلى فلسطين عبر وسائل شتى، لكن جهوده لم تثن السلطات العثمانية عن التمسك بقانون منع اليهود من الإقامة في فلسطين(12).

لكن تلك القوانين والتشريعات، لم تحل دون استمرار الهجرة وتأسيس المستوطنات، ذلك أن جمعيات الاستثمار اليهودية، كانت تواصل أنشطتها في فلسطين، عبر الأساليب غير القانونية، معتمدة على شراء الأراضي من الإقطاعيين، منتهجة أسلوب الرشوات مع الإدارة التركية الفاسدة، كي تتغاضى عن عمليات الشراء. وكانت أسرة سرسق تملك وحدها مساحات شاسعة في فلسطين تتاجر بها وتستثمرها. يقول هرتزل في يومياته «جمعية الاستثمار اليهودي تتفاوض مع عائلة رومية اسمها سرسق، من أجل شراء سبعة وتسعين قرية في فلسطين ويعيش هؤلاء الروم في باريس؛ وقد خسروا أموالهم في القمار وهم يريدون بيع ممتلكاتهم وهي 3٪ من مساحة فلسطين»(13).

ومنذ بدء الاستيطان، لاقت الجهود الصهيونية معارضة رسمية وشعبية واضحة، وفي هذا السياق أرسل سيلاميرل، القنصل الأميركي في القدس، في العام 1891، تقارير إلى حكومته، يشرح فيها الوضع السياسي وموقف الحكومة العثمانية من المهاجرين اليهود، ورد فيها : «أن تركيا المسلمة لن ترضى بإقامة مملكة لليهود في فلسطين، وأن فلسطين بلد فقير، وإذا ظلت الهجرة اليهودية في تدفقها الحاضر، فإن النتيجة ستكون وبالا على اليهود وعلى سكان البلاد الأصليين معا وأن المسلمين لن يسمحوا لليهود بإنشاء دولة في فلسطين»(14).

وإزاء ذلك، كانت الحركة الصهيونية، تلجأ إلى الأساليب الملتوية وغير الشرعية لإقامة المستوطنات، ومن الأمثلة على ذلك، أن الحكومة التركية، سبق لها وأن عزمت على بيع قطعة أرض تابعة لقرية عيون قارة، جنوب مدينة يافا (12 كم). وذلك بسبب عجز أصحابها عن دفع الضرائب المستحقة عليهم. وحينذاك، حاولت «كتيبة طلائعي يسودها معلية» وهي كتيبة تنظيم روسية تعمل على شراء الأرض، لكن والي القدس رفض بيعها لليهود، فتدخل نائب قنصل بريطانيا في يافا، وتمكن من شراء المساحة المعروضة للبيع، وكانت مساحتها زهاء 3.340 دونما وقام بتحويلها إلى المهاجرين اليهود، وفي آب (أغسطس) 1882، وصلت عائلات روسية إلى فلسطين، ووضعت الأسس لقيام مستوطنة، أطلق عليها اسم ريشون ليتسيون (الأولى لصهيون)(15) ويذكر في هذا السياق، إدراك

(11) - Mandel Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine, N 1882-1914, st, Antony,s papers N° 17
- Middle Eastern Affairs, N° 4, ed. By a, Horani (Oxford 1965), PP. 70-110.

(12) أنيس صايغ (عداد) يوميات هرتزل (ترجمة هيلدا صايغ)، بيروت : مركز الأبحاث، 1973، ص 519 .

(13) مانويل فرنك، بين أميركا وفلسطين (تعريب يوسف حنا)، عمان 1967، ص 31 .

(14) جريس، مصدر سبق ذكره، ص 102-103 .

(15) نقلا عن الملحق رقم (3) من كتاب الحلاق، مصدر سبق ذكره، ص 352 .

الباب العالي، ومنذ البدايات، لأبعاد المخاطر السياسية الكامنة وراء الاستيطان. ولعل ما كتبه السلطان عبد الحميد في مذكراته[16]، من شأنه الكشف عن ذلك، يقول السلطان عبد الحميد: «إن الصهيونية لا تريد أراض زراعية في فلسطين لممارسة الزراعة فحسب، ولكنها تريد أن تقيم حكومة ويصبح لها ممثلون في الخارج. إنني أعلم أطماعهم جيدا، وإنني أعرف هذه السفالة لأنهم يظنون أنني لا أعرف نواياهم، ولن أقبل بمحاولاتهم وليعلموا كم فرد في امبراطوريتنا يكن لليهود من الكراهية، طالما هذه نواياهم، وأن الباب العالي ينظر إليهم مثل هذه النظرة. وأنني أخبرهم أن عليهم أن يستبعدوا فكرة إنشاء دولة في فلسطين، لأنني لا زلت أكبر أعدائهم».

ولعل في ذلك ما يفسر دور اليهود وحركاتهم في ثورة 1908، وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في سنة 1909[17].

وعلى الصعيد الشعبي قام الفلاحون الفلسطينيون من أبناء قرية (الجاعونة) قضاء صفد، بالهجوم على مستعمرة روش بينا سنة 1883، وفي السياق ذاته، شن الفلاحون المطرودون من أرضهم في الخضيرة وملبس، هجوما على مستوطنة «بيتح تكفا» وذلك في آذار 1886 . وفي أواخر تشرين أول (أكتوبر) 1888 شهدت مستوطنة غديرة هجوما عليها كما وشهدت مستوطنة، رحبوت في آذار (مارس) 1893، هجوما مماثلا، وكذلك مستوطنة بيئر طوفيا، سنة 1896، وفي سنة 1901 ضد الخضيرة.

وعلى الصعيد السياسي، أبرق وجهاء القدس في العقد الأخير من القرن التاسع عشر إلى الصدر الأعظم، يعبرون عن تخوفهم من دخول أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود، يطالبون بمنعهم من دخول فلسطين، نظرا لعدم مقدرة المسلمين من السكان على منافسة المهاجرين اليهود لهم، في النواحي الاقتصادية، مما ينجم عنه سوء الحالة الاقتصادية للسكان[18].

وعقب إقرار برنامج بال سنة 1897، تركزت الجهود الفلسطينية على الحيلولة دون تسرب أراض أخرى للصهيونية، ومن أجل هذا ترأس مفتي القدس محمد طاهر الحسيني، هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية مهمتها التدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس، الأمر الذي أسهم في الحيلولة دون حصول اليهود على أراض زراعية جديدة لسنوات عديدة. كما وأسس الفلسطينيون في يافا سنة 1897 الحزب الوطني لمحاربة الصهيونية، وعدّ الحزب التعامل مع الصهيونية جريمة قومية[19].

مؤسسة الاستيطان:

انطلقت الحركة الصهيونية بزعامة ثيودور هرتزل، ووفقا لبرنامج مؤتمر بازل، لتعزيز أنشطتها في السبل الثلاثة التالية : التنظيم، الاستيطان، الدبلوماسية، وللدلالة على أهمية مؤتمر بازل وبرنامجه في حياة الشعب اليهودي، فقد عبّر هرتزل عن ذلك بقوله : "لو طلب تلخيص مؤتمر بازل في كلمة واحدة، وكان عليّ تلفظها بصوت منخفض، لكانت هي : في بال أسست الدولة اليهودية. ولو قلت ذلك بصوت عال لضحك مني الجميع، ولكن ربما في خمس سنوات على وجه التقريب وبعد خمسين سنة

(16) للتوسع أنظر : مذكرات خالد العظم كتاب الخطر المحيق بالإسلام، جواد رفعت ادلخان، مقالة سعيد أفغاني، مجلة العربي الكويت، كانون أول 1972، العدد 1969، كانت الصهيونية هي خالفة السلطان ومفوضة السلطنة العثمانية.

(17) ابراهيم عبد الكريم، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، العدد 33، شتاء 1989، ص 89 .

(18) عبد الوهاب المسيري، الايديولوجية الصهيونية، سلسلة عالم المعرفة (61)، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983، ص 135 .

(19) جريس، مصدر سبق ذكره، ص 155 .

على وجه التأكيد، سيعلم كل واحد بالأمر" ولعل هرتزل في قوله هذا، يشير في شكل خفي إلى ما تضمنته قرارات المؤتمر، على صعيد بلورة مؤسسات الهجرة والاستيطان. ذلك أن أولى قرارته نصت على: "تسعى الصهيونية إلى إقامة وطن لليهود في أرض إسرائيل، معترف به وفقا للقانون العام، ولتحقيق هذا الهدف يتخذ المؤتمر إجراءات عدة، أولها، تطوير أرض ـ إسرائيل، بشكل منظم بواسطة توطينها باليهود المزارعين والحرفيين ،المهتمين"[20].

وبواسطة تلك الإجراءات، تدخل فلسطين في خلال السنوات 1904-1914، ضمن موجة الهجرة الصهيونية الثانية، نحو 35-40 ألف مهاجر يهودي[21] ووضعت الهجرة الثانية أسس الكيان الصهيوني في فلسطين، والتي قامت عليها الدولة العبرية فيما بعد، حيث خرج من أبناء هذه الهجرة، عدد من الزعماء الصهيونيين، في مختلف مجالات العمل الصهيوني، لعبوا أدوارا مهمة في تاريخ الصهيونية في فلسطين أو خارجها. ومن بين هؤلاء دافيد بن غوريون، سكرتير الهستدروت (1921-1935) ورئيس الوكالة اليهودية (1935-1948) وأول رئيس حكومة في إسرائيل ووزير دفاعها (1948-1953 و 1955-1963)، ويتسحاق بن تسفي، رئيس (هافاعاد هليئومي) ـ اللجنة القومية، وهي اللجنة التنفيذية للمجلس المحلي اليهودي في فلسطين "كنيست يسرائيل" (1931-1948)، وثاني رئيس لإسرائيل (1952-1963)، وليفي أشكول، من كبار العاملين في مجال الاستيطان الصهيوني في فلسطين، في خلال فترة الانتداب، وثالث رئيس حكومة في إسرائيل (1963-1969)، ويوسف سبرنتساك، سكرتير الهستدروث (1945-1948) ورئيس الكنيست (1949-1959)، وبيرل كاتسنلسون، مؤسس صحيفة دافار (1925)، ودار انلشر "عام عوفيد"، والمفوض الثقافي للمستوطنين العمال في فلسطين، ويتسحاق طابنكين، منظر حركة الكيبوتسات وزعيم حزب أحدوت هاعفودا (1954-1968)، وإياهام هارتسفيلد، كبير منفذي برامج الاستيطان الصهيوني في فلسطين منذ منتصف العشرينات، وشموئيل دايان (والد موشي دايان)، أحد مؤسسي المستوطنات من صنف الموشاف، وعيده يسمون (نيشمال) إحدى مؤسسات حركة العاملات[23].

وفي أية حال، فقد شهد المسرح السياسي والاقتصادي في فلسطين، مع نهاية القرن التاسع عشر، بداية الهجرة الصهيونية، وقيام مشروع الصندوق القومي اليهودي Jewish National Fund، كما كان معدا للصراع بين المهاجرين الجدد وسكان فلسطين الأصليين.

كما وشكل انعقاد المؤتمر الصهيوني الخامس، في مدينة بال بسويسرا، في الفترة الممتدة من 16 إلى 20 كانون الأول (ديسمبر) عام 1906، نقطة تحول مهمة، حيث اتخذت فيه مقررات جوهرية على الصعيد الصهيوني، وكان أهم قرار في هذا المؤتمر، على صعيد مستقبل فلسطين، هو إنشاء الصندوق القومي اليهودي (الكيرن كايميت)، لشراء الأراضي

(20) المصدر نفسه، ص 266 .
(21) المصدر نفسه، ص 268-269 .
(22) يوسف الصايغ، الاقتصاد الإسرائيلي، بيروت : مركز الأبحاث 1966، ص 24 وانظر أيضا .
(23) Esco Foundation For Palestine: A study of Jewidh, Arab British Policies. New Haven, Yale University Press. 1949, pp. 330-339.

ـ هي هيئات يهودية ـ دينية، تقوم على جمع الأموال من اليهود خارج فلسطين، كإحسان ينبغي عليهم دفعه تجاه إخوانهم في فلسطين، لما يعانون من أوضاع صعبة، ولكونهم ذهبوا إلى فلسطين بموجب تعاليم التوارة.

في فلسطين، وجعلها أراضي ذات ملكية جماعية وليست خاصة، وتشغيل العمال اليهود دون غيرهم، وتهويد الأرض المقدسة من جديد. وقد أوضح الصندوق أن الشروط التفضيلية تمنح للفلاح اليهودي، الذي يستخدم العامل اليهودي فقط في أرضه.

ورغم قرار المؤتمر الخامس الصهيوني بإنشاء الصندوق، وفتح مكتب له في مدينة فينا، إلا أنه بقي بلا وضع قانوني، إلى أن سجل، رسميا في انكلترا في نيسان (أبريل) 1907. وتسبب في هذا التأخير الخلافات في شأن أساليب الاستعمار اليهودي لفلسطين، ودور الصندوق فيه، إضافة إلى أمور تتعلق بالتأكد من توافق وجود الصندوق وأنشطته مع هدفه المحدد، وهو شراء الأراضي في فلسطين وسوريا[23].

وفي الواقع، فقد كان الشيء الوحيد الذي فعله المؤتمر الخامس الصهيوني، في صدد الصندوق القومي اليهودي، هو تبنيه قرارا، وفقا لخطاب كان قد ألقاه هيرمان شابيرا، في المؤتمر الصهيوني الثاني في آب (أغسطس) 1898، وهو: «يعلن المؤتمر أنه من حيث المبدأ، يعتبر إنشاء صندوق قومي، وتأسيس مصرف يهودي أمرا أساسيا وهو من أجل ذلك، سيقوم بانتخاب لجنة الأعمال التي ستقدم بدورها خطة معدة بعناية إلى المؤتمر التالي. وبعد المؤتمر الثاني الصهيوني بثمانية أشهر، توفي شابيرا، وهكذا فإنه لم يقدّر له أن يرى تأسيس الصندوق من شراء نحو (15) ألف دونم من الأراضي في منطقة يافا، والجليل، في عام 1905[24].

وعلى رغم أنشطة الصندوق، بعد تسجيله قانونيا في انكلترا، لكنه لم يأخذ دوره الفاعل، ويمارس أنشطته الواسعة في فلسطين، إلا بعد أن فتح له مكتبا عُرف باسم مكتب فلسطين، تنفيذا لقرار المؤتمر الصهيوني الثامن، في آب (أغسطس) 1907. وبدأ المكتب أعماله بشراء الأراضي والتوسع الزراعي في أوائل سنة 1908 في يافا، بإدارة ارثر روبين[25] وترافق ذلك مع تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية شركة لشراء الأراضي وتطويرها في فلسطين، كي تكون وكالة مركزية تشتري الأراضي. ولما كان محظورا على الصندوق أن يقوم بهذا العمل، الذي بدا أن الحاجة إليه تتزايد، فقد اعتبر قيام تلك الشركة أمرا أساسيا. وبهذه الوسيلة أملت المنظمة بأن تحد من تزايد أسعار الأرض ومن تزايد المضاربة، ومن عمليات الشراء غير المنظمة والعشوائية لقطع أرض صغيرة أو مبعثرة. وسجلت الشركة، سنة 1909، في انكلترا، باسم تطوير أراضي فلسطين المحدودة، برأس مال مقداره 50.000 جنيه استرليني[26] (of Palestine Land Development Company).

أنشأت الحركة الصهيونية، العديد من المؤسسات الاقتصادية، التي مارست نشاطها الاستثماري في فلسطين. وعلى سبيل المثال لا الحصر أنشأت معظم تلك الشركات في لندن، ومن ثم فتحت لها فروع في فلسطين، ولم تكن تلك الشركات، أكثر من شركات استثمارية مشتركة صهيونية ـ بريطانية، في آن معا.

(23) Esco Foundation For Palestine: A study of Jewidh, Arab British Policies. New Haven, Yale University Press. 1949, pp. 330-339.

ـ هي هيئات يهودية ـ دينية، تقوم على جمع الأموال من اليهود خارج فلسطين، كإحسان ينبغي عليهم دفعه تجاه إخوانهم في فلسطين، لما يعانون من أوضاع صعبة، ولكونهم ذهبوا إلى فلسطين بموجب تعاليم التوارة.

(24) وولترلين، الصندوق القومي اليهودي (ترجمة محمد زايد ورضوان مولوي) بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية وجامعة الكويت، 1990، ص 35 .

(25) المصدر نفسه، ص 47 .

(26) المصدر نفسه.

أما على صعيد الحركة المصرفية، فقد أقر المؤتمر اليهودي الثاني، 1898، اقتراحا يقضي إقامة مصرف باسم «البنك الكولونيالي اليهودي»، على أن يسجل في لندن كشركة مساهمة[27]. وفي العام 1902 تأسست في لندن، الشركة البريطانية - الفلسطينية، التي تبادلت مع البنك الكولونيالي اليهودي Jewish Colonial Trust. وتحولت بالتدريج إلى المصرف المركزي لتمويل أعمال الاستيطان في فلسطين[28].

ومن خلال عمل الصندوق القومي ودور البنك الكولونيالي اليهودي، إضافة إلى أنشطة شركة تطوير أراضي فلسطين المحدودة، تضاعف عدد اليهود في فلسطين، بين عامي 1882-1900، حيث بلغوا عام 1882، نحو 2400، ثم ارتفع عددهم، عام 1900 إلى 50.000 وفي العام 1914 أصبحوا 85.000 في حين لم يتجاوزوا الستة آلاف عام 1839[29].

ومع اندلاع الحرب الكونية الأولى في أواخر تموز (يوليو) 1914-1918، دخلت معطيات جديدة على معادلة الموازنات الدولية، وانعكاساتها في منطقة بلاد الشام، وجاءت هذه المعطيات في معظمها، خدمة للتوجهات الصهيونية. ذلك أنه أولا، وقبل أي شيء آخر، تغيّرت خارطة التحالفات الدولية، وتبلور ذلك في بدء المفاوضات بين دول الحلفاء الثلاث: بريطانيا، فرنسا وروسيا، وذلك بهدف تقرير مصير المناطق الخاضعة للحكم التركي، الأمر الذي أسهم بدوره في رفع قبضة القوانين والإجراءات العثمانية الخاصة بالحد من الهجرة والاستيطان. ونظرا لدور بريطانيا المركزي في السياسة الدولية، آنذاك، انتقل مركز الثقل الصهيوني إلى لندن. وبدأت علائم النشاط الصهيوني، وتعاونه مع السلطات البريطانية، تظهر بوضوح عبر مراسلات حسين - مكماهون. وعندما توجه ساسكس وبيكو، إلى روسيا للتفاوض في شأن المشرق العربي، كانت بريطانيا قد تعهدت بوضوح بإقامة الوطن القومي اليهودي. وبعد الإعلان عن اتفاقية ساسيكس - بيكو، بعام واحد، صدر تصريح بلفور، متضمنا وبوضوح، تعهد بريطانيا بإقامة الوطن القومي اليهودي، وجاء التصريح في صيغة رسالة، بعث بها وزير الخارجية البريطاني أرثر بلفور، إلى اللورد روتشيلد الثري الصهيوني. وجاء فيها: «أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. وستبذل أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يسمح بأي إجراء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها المجتمعات غير اليهودية القائمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو بالمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى»[30]. وقد جاء هذا التصريح، واصفا الشعب الفلسطيني في بلاده، بالمجتمعات غير اليهودية القائمة في فلسطين. رغم أن عدد سكان فلسطين عند صدوره كان نحو 670 ألف نسمة، منهم نحو 60 ألف يهودي فقط، وسنة 1920 كان عدد اليهود في فلسطين يقدر بـ 85 ألفا، بينما ذكر تقرير الإدارة العسكرية قبل ذلك بأن عددهم يقارب 55 ألفا[31].

وترافق تصريح بلفور مع انضمام 150 متطوعا يهوديا للجيش البريطاني، وأصبحوا نواة للفيلق اليهودي سنة 1917. وكان ذلك نتيجة لنشاط جابوتنسكي. وبتاريخ 11 كانون الأول

(27) فارغوجانسكي، تطور الرأسمالية في فلسطين (ترجمة حنا إبراهيم) تونس، دائرة الثقافة في م. ت. ف. 1987، ص 54 .
(28) المصدر نفسه، ص 55 .
(29) عبد العزيز عوض، متصرفية القدس أو آخر العهد العثماني، شؤون فلسطينية (بيروت) العدد 4، أيلول (سبتمبر) 1971، ص 133 .
(30) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1970، ص 84 .
(31) سليمان موسى، الحركة العربية، بيروت: دار النهار، 1977، ص 365 .

(ديسمبر) 1917، أي بعد مرور 40 يوما على إصدار تصريح بلفور، دخل الجنرال اللنبي، قائد القوات البريطانية إلى مدينة القدس فاتحا بذلك عهدا جديدا في فلسطين.

الاستيطان في ظل الانتداب البريطاني:

كان واضحا منذ إعلان الانتداب على فلسطين، بأن بريطانيا عازمة على تحقيق تصريح بلفور، وتهويد فلسطين تمهيدا لإنشاء الوطن القومي اليهودي. ولعل ما عرف بمذكرة تشرشل المؤرخة في 1 / 7 / 1922، يمثل أول إفصاح رسمي بريطاني في هذا الشأن. فقد نصت المذكرة، بوضوح، على أن تصريح بلفور «غير قابل للتغيير، حتى يكون للطائفة اليهودية، أفضل التوقعات للتنمية الحرة، وأن تقدم فرصة كاملة للشعب اليهودي لإظهار قدراته. ومن الضروري أن تعلم أن وجودها في فلسطين حق وليس منة»، تلك هي المهمة التي تجعل من الضروري ضمان إنشاء وطن قومي يهودي، ضمانا دوليا، والاعتراف رسميا بأنه يستند إلى صلة تاريخية قديمة، ومن الضروري لأجل تطبيق هذه السياسة، من تمكين الطائفة اليهودية في فلسطين من زيادة عددها بالهجرة، بحيث لا تكون هذه الهجرة كبيرة، إلى حد يزيد، في أية ظروف كانت ، على ما تكون عليه قدرة البلاد الاقتصادية ـ آنذاك ـ على استيعاب قادمين جدد[32].

ووفقا لهذا التوجه الرسمي، تتالت الإجراءات البريطانية، المساعدة على دفع المشروع الصهيوني في فلسطين إلى الأمام، وذلك على ثلاثة صعد أساسية، وهي : تسهيل الهجرة اليهودية، والتضييق على الفلاحين الفلسطينيين، ومنح الامتيازات الكبرى لليهود الصهاينة. وقد تم الاستناد، فيما كانت تسنه السلطات الانتدابية، على صك الانتداب خصوصا في مادته الثانية والمتضمنة أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية، تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي، أما المادة الرابعة، فنصت على الاعتراف بالوكالة اليهودية، كهيئة ملائمة عمومية، تشير وتعاون في إدارة فلسطين.

كما نصت المادة الحالية عشرة من الصك على أنه يجوز لإدارة البلاد أن تتفق مع الوكالة اليهودية على أن تقيم أو تستثمر، بشروط العمل والإنصاف الأعمال والمصالح العمومية، وترقي مرافق البلاد الطبيعية، حيث لا تتولى الحكومة هذه الأمور بنفسها[33].

تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين:

منذ أن اعترفت سلطات الانتداب البريطاني بشرعية الوكالة اليهودية، أصبحت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، تأخذ طابعا قانونيا، ففي السادس والعشرين من آب (أغسطس 1920) فرض أول قانون للهجرة إلى فلسطين. وبموجب هذا القانون، أعطى المندوب السامي حق تحديد عدد المهاجرين، من آن إلى آخر، بناء على ظروف ومتطلبات البلاد، وإصدار القواعد التي تسمح للفئات التالية الهجرة إلى فلسطين، وهي :

1 ـ الأشخاص الذين تضمن المنظمة الصهيونية وسائل إعالتهم، لمدة عام.

2 ـ الأشخاص الذين تتوافر لديهم الموارد المستقلة، أو الذين يقدمون الدليل على قدرتهم على إعالة أنفسهم.

(32) Great Britain, Government, Palestine, Statement of Policy, Cit. 1700, 1922, PP. 1920.

(33) Great Britain, Parlamentry paper leage of Nation Mandat for Palestion Presented to Parliament Command of His Majesty,s stationary office, 1922.

3 ـ رجال الدين الذين تتوفر وسائل إعالتهم في فلسطين[34].

إلا أن التغيير الجدي في ميزان الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بدأ منذ النصف الثاني من سنة 1928، حيث سنّت حكومة الانتداب البريطاني قانونا جديدا للهجرة، تم بموجبه تصنيف المهاجرين المسموح بدخولهم إلى البلاد، وقد اعتمد القانون الجديد الوضع الاقتصادي للمهاجر. وحددت الفئات المسموح لها بالهجرة كما يلي[35] :

أ ـ الأشخاص الذين يملكون مبلغا لا يقل عن ألف جنيه استرليني، وعائلاتهم.

ب ـ ذوو المهن الذين يملكون 500 جنيه على الأقل.

ج ـ الصناع الماهرون، الذين يملكون 250 جنيها على الأقل.

د ـ الأشخاص الذين لهم إيراد ثابت لا يقل عن أربعة جنيهات في الشهر.

هـ ـ الأيتام القادمون إلى ملاجئ في فلسطين.

و ـ الرجال والنساء الذين يتعاطون الأشغال الدينية والمضمونة معيشتهم ومعيشة عائلاتهم.

ز ـ الطلبة المضمونة معيشتهم.

ي ـ العمال من الرجال والنساء.

ط ـ الأشخاص الذين يعتمدون في معيشتهم على أقرباء لهم في فلسطين، وكان هؤلاء الأقرباء بحالة تمكنهم من إعالتهم.

ورغم أن هذا القانون يسمح بهجرة أعداد كبيرة، فقد تمكنت الحركة الصهيونية من التحايل عليه، وإدخال المزيد من المهاجرين، كان من شأنه إحداث خلل جديد في البناء الديمغرافي الفلسطيني، الأمر الذي أدى بدوره إلى وقوع هبة 1929 .

واتخذ التحايل على القانون وسائل وطرائق مختلفة، منها دخول فلسطين، بعد استيفاء الشرط المالي، من الفئات (أ، ب، ج) ومن ثم إعادة المبلغ إلى الخارج، لإدخال مهاجرين جدد.

وكذلك دخول البلاد لمدة عام، وعدم الخروج، منها فضلا عن الزواج الصوري ما بين يهود من خارج فلسطين وداخلها إضافة لانتحال صفة رجال الدين استيفاء لاشتراط الفئة من المهاجرين. وإلى جانب تلك الطرائق، كانت الهجرة السرية، وهو ما أشار إليه تقرير لجنة بيل Peel الملكية بوضوح. فقد ورد في التقرير : «إن الهجرة اليهودية غير المشروعة، كانت تسير مع الهجرة المشروعة، جنبا إلى جنب، وتتم بدخول البلاد خلسة واجتناب مراكز المراقبة على الحدود، أو بقاء المسافر، الذي دخل البلاد بصورة مشروعة في البلاد، بعد انتهاء المدة المصدح بها، أو بزواج صوري»[36].

من جهة أخرى، فقد سمح للوكالة اليهودية، وفقا لإجراءات الانتداب، ممارسة دور كبير في تشجيع هجرة اليهود، والإشراف على اختيارهم، فكانت تصاريخ الهجرة تسلم إلى الوكالة اليهودية التي توزعها على مكاتبها في الخارج، دون أي إشراف أو رقابة. كما منحت كذلك حق اعتبارها صاحب عمل، وتمكنت بذلك من جلب المزيد من العمال اليهود على ضمانتها،

(34) Esco Fondation For Palestine, P. 315.

(35) جون هوب سمبسون تقرير عن الهجرة ومشاريع الإسكان والهجرة في فلسطين، 1930، ص 172 .

وبذلك، بلغ عدد المهاجرين سنة 1922، (7844) مهاجرا منهم. (3310) عمال، وبلغ عدد المهاجرين سنة 1925 (33801) منهم (16161) عاملا[37].

التضييق على الفلاحين الفلسطينيين:

كان الفلاح الفلسطيني، غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى، يعاني من أزمات تلك الحرب وويلاتها، ولعل همه الأول كان في ثقل ديونه، وكان معظم الفلاحين يقترضون المال من البنك الزراعي العثماني. وما إن وضع الانتداب بدايات تشريعاته في فلسطين حتى قام بإلغاء البنك العثماني في (19 / 3 / 1921)، حارما بذلك الفلاحين من نيل القروض بفوائد معتدلة، ولم تكتف سلطات الانتداب، بذلك، بل أخذت تطالب الفلاح، بدفع قروض «البنك العثماني الزراعي»، والتي كان قد اقترضها قبل الاحتلال البريطاني[38].

كما نص دستور فلسطين على أنه يحق للمندوب السامي، التصرف بالأراضي العمومية، وله سلطة ممارسة تلك الحقوق على تلك الأراضي، لأنه أمين عن حكومة فلسطين، وأعطت المادة 13 من الدستور صلاحية مطلقة للمندوب السامي في أن يهب أو يؤجر تلك الأراضي، أو أي معدن أو منجم، وله أن يأذن بإشغال هذه الأراضي، واشترطت تلك المادة، على أن يجري المندوب السامي كل هبة أو إيجار أو تصرف لهذه الأراضي، وفقا لمرسوم، أو قانون[39].

كما جرى تأكيد ذلك، بعد معاهدة الصلح مع تركيا، سنة 1925، حيث نصت المادة 60 من المعاهدة على أن للدول المنسلخة أراضيها عن المملكة العثمانية، بمقتضى هذه المعاهدة، الحق في امتلاك جميع ما فيها من الأموال والممتلكات العائدة للسلطة العثمانية، دون دفع قيمتها[40].

وتأسيسا عليه، سنت سلطات الانتداب في العام 1926، قانون نزع الملكية، الذي يبيح للسلطات البريطانية، نزع ملكية الأرض عن طريق فرز الأراضي المشاع في القرى ومراجعة قيود الأملاك، وانتزاع ما لا تثبت ملكيته من الأراضي، وتسجيلها باسم حكومة الانتداب، ومن ثم التصرف به، لإقامة المشاريع العامة[41].

كما لجأت سلطات الانتداب إلى فرض الضرائب الباهظة على الأراضي مما أثقل كاهل الفلاحين، الذين كانوا يبيعون أرضهم، تخلصا من الديون والضرائب.

ولعل أبرز إجراءات الانتداب في هذا المجال، هو تشريعاتها التي كان من شأنها مضاعفة الضرائب على الأراضي والمنتجات الزراعية، وبالمقابل عدم تقديم أية خدمات تتناسب مع تلك الضرائب، والتي كان من أبرزها:

- ضريبة العُشر.
- ضريبة الويركو.
- ضريبة تعداد المواشي[42].

وترافقت تلك الضرائب، مع إجراءات أخرى مرافقة، وأبـرزها:

---

(36) Jeffries, Palestine, the reality, London, Gogmans, Green, 1939, P. 749

(37) الجادر، محمد عادل، أثر قوانين الانتداب البريطاني في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، بغداد: مركز الدراسات الفلسطينية، دون تاريخ ونشر، ص 121.

(38) أنظر شهادة جمال الحسيني أمام اللجنة الملكية البريطانية، محمد توفيق جانا، الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية، دمشق 1937.

(39) روبرت هاري داريتون، مجموعة المناشير والأوامر والقوانين الفلسطينية، القدس، مطبعة دير الروم، 1934، مرسوم دستور فلسطين، 1922.

(40) سعيد حمادة، النظام الاقتصادي في فلسطين، بيروت: الجامعة الأميركانية 1937، ص 107.

(41) عادل الجادر، التشريعات البريطانية وتهويد الأراضي الفلسطينية 1917-1948، بغداد: مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد الثالث، كانون الأول (ديسمبر) 1975، ص 75-117.

(42) تماركوجانسكي، تطور الرأسمالية في فلسطين، مصدر سبق ذكره، ص 170-171.

المسارعة في جمع الضرائب المتراكمة على الفلاحين، وذلك ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما خلفه العثمانيون من مصاعب جمة.

كما وقامت السلطات البريطانية، بالإهمال عمدا، في فتح الطرق إلى القرى، وربطها بالمدن، وكذلك فقد أهملت السلطات الانتدابية نشر الوعي الزراعي بين الفلاحين، أو تنظيم وسائل تصدير منتجاتهم، بل إنها قامت في فترة الحكم العسكري بمنعهم من التصدير(43).

ومن الجدير ذكره، في سياق الضرائب، هو أنها طبقت على المزارع اليهودي كما العربي، إلا أن نظرة متفحصة للأمر، ترينا بأن المزارع اليهودي في المستعمرات التي أقيمت في فترة الانتداب، يستفيد من كون ضريبة العشر المستبدلة، كانت قد بنيت على أساس الإنتاج المتدني للمزارعين العرب، الذين كانوا قبله، وقد يكون من السهل تقدير عبء الضرائب على المزارع اليهودي بالنظر إلى هذه المسألة من وجهة أخرى، فإذا قدرنا أن دخله الصافي الإجمالي الذي يبني عليه، لدرجة كبيرة، كان ما يدفعه من الضرائب، هو ضعف دخل المزارع العربي من المساحة نفسها(44).

ولعل ما يؤكد ذلك، ما ورد في تقرير الوكالة اليهودية، لعام 1937، حيث يقول: «فبينما دونم الأرض اليهودي المزروع قمحا يعطي محصولا وزنه 110 كغم، والمزروع عنبا يعطي ما وزنه 450 كغم. وبينما البقرة الحلوب واحدة عند اليهودي تعطي سنويا (3500) لترا من الحليب فهي عند العرب لا تعطي زيادة عن (500) لتر، وكذلك بينما الدجاجة عند اليهودي تعطي سنويا نحو (150) بيضة. فهي عند العرب لا تعطي زيادة عن (40) بيضة(45).

منح الامتيازات الكبرى للمؤسسات اليهودية:

لجأت سلطات الانتداب البريطانية في فلسطين، واستنادا لما تضمنه صك الانتداب، وخاصة المادة الحادية عشرة، التي تنص على إمكانية اتفاق الحكومة مع الوكالة اليهودية بشأن إنماء وتطوير الموارد الفلسطينية، إلى التعاقد مع شركات صهيونية، ومنحها الامتيازات الكبرى الأساسية في البلاد، وكان أبرزها:

شركة كهرباء فلسطين:

أسست شركة كهرباء فلسطين رسميا في 1923، بعد اتفاق بنحاس روتنبرغ، مع المندوب السامي في فلسطين، هربرت صموئيل، سنة 1921، وتعاقد الانتداب مع روتنبرغ في شأن استخدام مياه حوض العوجا، لتوليد الطاقة الكهربائية، وتوريدها للري والإنارة في قضاء يافا. تطور هذا الامتياز في آذار (مارس) 1926، ليشمل استخدام مياه الأردن واليرموك لتوليد الطاقة الكهربائية ولمدة سبعين عاما(46).

كما قدمت السلطات الانتدابية تسهيلات عديدة للشركة، منها حق نزع ملكية الأراضي والمباني اللازمة له. كما وقدمت له قرضا بقيمة (250.000) جنيه استرليني بكفالة وزارة الخزانة البريطانية، كما أن روتنبرغ حصل على الجنسية قبل حصوله على الامتياز، وقد أتاح هذا المشروع لليهود التوسع في الأراضي، وجلب المزيد من المهاجرين وتشغيلهم(47). ذلك،

(43) كانت الضرائب المباشرة في الأرياف ضريبة الويركو، ضريبة الأملاك.
(44) إبراهيم الجندي، سياسة الانتداب البريطانية الاقتصادية، 1939-1922، عمان: دار الكرمل 1986، ص 121-122.
(45) الجادر، مصدر سبق ذكره، ص 277.
(46) اقتصاديات فلسطين بين العرب واليهود، نشرات الوكالة اليهودية، القدس 1937، نشرات الوكالة اليهودية، نشرة رقم (3)، ص 58-59.
(47) المصدر نفسه، ص 224.

أن المادة (10) من الامتياز، تنص صراحة : «على المندوب السامي، بناء على طلب الشركة وعلى نفقتها أو في حالات تعذر الشراء باتفاق متبادل لقاء تعويض توافق عليه الشركة، أو تعذر الاتفاق، أن ينزع ملكية العقارات أو الأراضي أو الأبنية»[48]. وبالفعل تم تمليك هذه الشركة 18 ألف دونم، إضافة للأراضي التي شغلتها مباني المشروع[49].

وفضلا عن تسهيل عمل المشروع، قامت سلطات الانتداب بإعفاء شركة كهرباء فلسطين من ضرائب الأرباح، لمدة عشر سنوات. واعتبار الأرباح من المصاريف[50].

وقد بلغ ما أنتجته الشركة في سنة 1926، (3048442) كيلووات في الساعة، قفز في العام 1929 إلى (4930960) كيلووات في الساعة[51].

امتياز استخراج الأملاح والمعادن من البحر الميت:

تحتوي مياه البحر الميت معادن محلولة مختلفة، وهي كلوريد الصوديوم، كلوريد البوتاسيوم، كلوريد المغنيسيوم، بروميد المغنيسوم، كلوريد الكالسيوم، سلفات الكالسيوم[52]. وقررت سلطات الانتداب استثمار هذه الأملاح في العام 1925، بعد أن ثبت لها جدوى الاستثمار، وسرعان ما تم إعطاء هذا الامتياز لمنير نوفومسكي وهو يهودي مهاجر إلى فلسطين من روسيا، وذلك بمشاركة البريطاني توماس تولوك وتم تأسيس شركة للاستثمار في بريطانيا، تحت اسم شركة البوتاس الفلسطينية وسجلت رسميا، في سنة 1929، برأس مال قدره (400) ألف جنيه[53].

ونصت مواد الاتفاق ما بين الشركة والحكومة المنتدبة، على أن مدة الامتياز 75 عاما، مع الحق في احتكار التسويق والبيع للمواد المستخرجة من معادن وأملاح في الأسواق الداخلية، والتصدير وتقديم الحكومة عند اللزوم والأراضي اللازمة لإنشاء الشركة. وقد بلغ ما منحته بريطانيا للشركة خارج منطقة الامتياز (987) ألف دونم مجانا[54].

امتياز أراضي الحولة:

تبلغ مساحة منطقة الحولة نحو 237 ألف دونم، وتقع المنطقة ومستنقعاتها في أقصى شمال فلسطين، وكان سبق للحكومة التركية في شهر حزيران (يونيو) 1914، أن منحت عمربيهم، وميشيل سرسق، امتيازا بتجفيف أراضي الحولة وإحيائها[55]، إلا أنهم (بيهم وسرسق) تنازلا عن الامتياز، في (3 / 10 / 1934)، إلى شركة تحسين الأراضي الفلسطينية المحدودة Palestine Land Development وبقصد تمكين أصحاب الامتياز من وضع يدهم على أرض الحولة، وطرد المزارعين منها، أصدرت السلطة المنتدبة، قانون حدود امتياز الحولة رقم (6)، لسنة 1938، ولم يعترف هذا القانون بحقوق المزارعين العرب الذين شرعوا يزرعون ما جففوه زمن العهد التركي، حتى أصبحوا يتمتعون بحقوق المزارعين ووضع اليد

(48) صبري جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص 234، معهد التقنية.
(49) للتوسع، أنظر يوسف الصايغ، الاقتصاد الإسرائيلي، ص 21-23 .
(50) المصدر نفسه، ص 21-23 .
(51) المصدر نفسه، الجادر، مصدر سبق ذكره، ص 132 .
(52) High Commissioner For Palestine to 37356/257/733. O.C. Principle secretary Of state for the Colonice, 3 rd, November 1934.
(53) إبراهيم الجندي، الصناعة في فلسطين إبان الانتداب البريطاني، عمان : دار الكرمل، 1986، ص 181-182 .
(54) أحمد سعد، التطور الاقتصادي والاجتماعي في فلسطين، حيفا: دار الاتحاد، 1985، ص 115 .
(55) Report of his majestys Government of Administration of Palestine and trans-jordan for the year 1935, P. 49.

طيلة عشرين سنة، وكان عدد المنكوبين (1500) عائلة[56].

المؤسسات اليهودية بدايات تأسيس كيان داخل كيان:

بدأت الحركة الصهيونية، منذ ما قبل إعلان الانتداب على فلسطين، بتأسيس الأطر اللازمة لتحقيق الهجرة إلى فلسطين، وإقامة الوطن القومي اليهودي، إلا أن ما وفره الانتداب البريطاني من تسهيلات سرّع في نمو هذه المؤسسات وتحقيق برامجها، لا سيما بعد أن تضمن صك الانتداب إقرارا شرعيا بالوكالة اليهودية.

وكانت أبرز المؤسسات الصهيونية، التي تمكنت من وضع الأسس اللازمة لإقامة كيان داخل الدولة، هي: الوكالة اليهودية (Jewish Agency) الهستدروت، (Histradruth) الجمعية اليهودية للاستعمار بفلسطين Palestine Jewish Colonization Association (A.C.I.P.)، صندوق الائتمان اليهودي (Jewish Colonial Trust) الصندوق القومي اليهودي (Jewish National Fund)، الصندوق القومي اليهودي (Jewish National Fund) الصندوق الفلسطيني التأسيسي (Fund Kern Hayesod the Palestine Fondation). لقد شكلت هذه المؤسسات، وفي صورة خاصة الوكالة اليهودية، كيانا داخل الدولة، وكان ذلك بموافقة سلطات الانتداب، وبتسهيلات منها.

الوكالة اليهودية: تهيئة الظروف لإنشاء كيان صهيوني:

كان اقتراح إنشاء وكالة يهودية لفلسطين قد ورد، أساسا، في صك الانتداب، الذي دعت المادة الرابعة منه حكومة فلسطين إلى الاعتراف «بوكالة يهودية كهيئة عمومية، تشير وتتعاون مع إدارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، مما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي، ومصالح السكان اليهود في فلسطين، وتساعد وتشترك في ترقية البلاد، تحت سيطرة حكومتها دائما.

«وكانت المادة السادسة من ذلك الصك وقد فرضت على حكومة الانتداب، أيضا، بأن تعمل، بالاتفاق مع تلك الوكالة، على "تقوية استيطان اليهود المكثف في الأراضي الزراعية". بينما سمحت المادة (11) للحكومة بأن تتفق معها»، على أن تقيم أو تستثمر الأعمال والمصالح العمومية، وترقي موارد البلاد الطبيعية، حيث لا تتولى الحكومة هذه الأمور مباشرة بنفسها. «أما الهدف من إقامة تلك الوكالة، كما جاء في المادة الرابعة من صك الانتداب، فكان الحصول على معونة كل اليهود "غير الصهيونيين، الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي"، وذلك بضم مثل أولئك اليهود إلى تلك الوكالة، وتنشيطهم ضمن أطرها[57]. وفي اجتماع لجنة العمل الصهيونية، في تشرين الأول (أكتوبر) (1923)، ووفق على عرض مشروع قرار، على المؤتمر الصهيوني، يقضي بتشكيل مجلس الوكالة اليهودية، من لجنة العمل الصهيونية، التي اكتسبت حقوق الوكالة اليهودية وفقا للمادة الرابعة من صك الانتداب، وممثلي المنظمات اليهودية الكبرى، التي تعترف بمبادئ إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وتقبل المشاركة في تأسيسه، وكذلك ممثلي الكيرين هايسود. ومع تقدم المباحثات بين حاييم وايزمان ومجموعة تضم ممثلي منظمات يهودية غير صهيونية، عرضت على لجنة العمل الصهيونية في عام (1924)، صياغة أولية للإطار الدستوري للوكالة اليهودية المقترح توسيعها[58]. وبقيت الأمور قيد

(56) أحمد سعد، مصدر سبق ذكره، ص 123 .

(57) المصدر نفسه، ص 125 .

(58) تسفي آل بيلج، الثورة العربية الفلسطينية 1936-1939 (تعريب خليل عثامنة ـ عن العبرية)، القدس، مطبعة الشروق التعاونية، 1978، ص 20 .

المناقشات داخل المؤسسات الصهيونية، حتى عام 1929، إذ جرى إقرار توسيع الوكالة اليهودية.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم يكن ذلك التاريخ صدفة، ذلك أنه جاء في سنة تفجر الأزمة داخل العالم الرأسمالي من جهة، وبداية الصدامات الجدية في فلسطين من جهة أخرى.

وفي السياق، أصدر المكتب المركزي للمنظمة الصهيونية العالمية، بيانا، جاء فيه أن اللجنة الصهيونية قد حققت الحادي عشر من آب (أغسطس) 1929، لعقد جلسة الافتتاح لمجلس الوكالة في شكلها الموسع في زيوريخ. وأوضح حاييم وايزمان، في بيان أذاعه، أنه توصل عبر مباحثاته مع الأطراف المعنية بتوسيع إطار الوكالة اليهودية، إلى رسم الملامح العامة للاتفاق مع غير الصهيونيين، وهي : تشجيع الهجرة، ونشر اللغة العبرية والثقافة اليهودية، وحيازة الأرض كملكية أبدية للشعب اليهودي، إضافة إلى توظيف العمال اليهود في الأشغال كلها، بوساطة الوكالة اليهودية، وتحت إشرافها، ووضع الكيرين هايسود تحت تصرف الوكالة اليهودية. وأشار وايزمان، في رسالة للمؤتمر، إلى ثلاث نقاط مركزية، يجب وضعها في الاعتبار، عند وضع البرنامج العام للوكالة في شكلها الموسع، وهي :

- رعاية المستوطنات والمستعمرات السابق إنشاؤها.

- تعزيز المقدرة الاقتصادية للعامل اليهودي.

- تأمين مساحات من الأراضي تكون كافية لتمكين حركة التوطين من التقدم دونما عقبات[59]. عقد الاجتماع العام الموسع للوكالة اليهودية في 11 آب (أغسطس) 1929، ووقعت الاتفاقية بين رئاسة الحركة الصهيونية وممثلي الوكالة اليهودية في الرابع عشر من الشهر نفسه، رغم ظهور بعض المعارضة داخل الحركة الصهيونية.

وبذلك، أرادت الحركة الصهيونية من وراء استقطاب غير الصهيونيين من الرأسماليين، تحديدا، دعم المشروع الاستيطاني في فلسطين. كما أن إقامة الوكالة اليهودية، في شكلها الموسع، كان من شأنه أن يشير بوضوح، إلى الترابط العضوي بين الحركة الصهيونية وبين الرأسماليين الذين ترتبط مصالحهم، وفي شكل حيوي، بالنظام البريطاني في فلسطين، ولهذا عملت المنظمة الصهيونية على استغلال تفجر الأزمة الاقتصادية العالمية، بهدف دفع مشروع إقامة الوطن اليهودي في فلسطين إلى الأمام. وذلك باستنفار يهود العالم، وخصوصا الأغنياء منهم، لمد يد العون للاستيطان الصهيوني في فلسطين، ومساعدته على فرض سيطرته اقتصاديا، وإحداث تغيير نوعي في معركة الصراع مع الوجود الفلسطيني، لصالح الوطن القومي اليهودي. لذا «استغلت المنظمة الصهيونية الأزمة الاقتصادية الشعبية في البلدان الرأسمالية لدفع اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين، ونظمت في العام 1929، عام الهبة في فلسطين ضد الاستعمار والصهيونية. الهجرة الخامسة، التي استمرت حتى العام 1931، وكانت السمة الأساسية لهذه الهجرة انها هجرة، مدنية، من الفئات الاجتماعية المتوسطة والصغيرة والصناعية والتجارية، التي ضربت الأزمة مصالحها في البلدان الرأسمالية، وهاجرت إلى فلسطين على أمل استرداد «جنتها المفقودة»، في السوق والصناعة في فلسطين»[60].

(59) الجامعة الإسلامية، يافا، 10 / 7 / 1935 .

(60) سعيد حمادة، النظام الاقتصادي في فلسطين، بيروت : الجامعة الأميركية، 1937، ص 26-27 .

الهستدروت:

جاء تأسيس الهتسدروت، كاتحاد عمالي حديث، في سياق بناء الأسس اللازمة لقيام الكيان الصهيوني وبناء الدولة العبرية، وبذلك لم يكن عمله نقابيا فحسب، أو تنظيما شعبيا بالمعنى السائد للتعبير بمعناه النقابي ـ السياسي، لذا انصب اهتمامه الأول على إيجاد الظروف الملائمة لبناء الطبقة العاملة، ومن ثم تنظيمها وتأطيرها في شكل يؤدي إلى بناء اجتماعي متكامل، في إطار تكوين سياسي جديد، وعليه، فقد كرس كل اهتمامه، لتوفير الظروف المالية لبناء مشروعه العمالي. وأسس منذ بداياته في سنة 1921، بنك العمال (هبو عليهم) الذي أصبح فيما بعد زراعة المالي، وقام بدور منهم في تنظيم عمليات التمويل والاستثمارات وتقديم الاعتمادات المصرفية للقطاع المالي، وكان يقوم بأعمال مالية على نطاق واسع، في ميدان التسليف، سواء للأفراد أو للمؤسسات، وقدم خلال العشر سنوات الأولى من تأسيسه، قروضا مقدارها 1.603.377 جنيها فلسطينيا، كانت موزعة كالتالي :

* المشاريع الزراعية 517.122 جنيها.
* البناء والأشغال العامة 308.350 جنيها.
* المؤسسة العمالية 329.350 جنيها.
* قروض جماعية 39.161 جنيها.
* أغراض متنوعة 34.606 جنيها[61].

نما الهتسدروت بسرعة، وزاد عدد المنضمين إليه 4433 عضوا في العام 1920، إلى 9000 عضو في عام 1925، وأصبح الهتسدروت، من خلال أنشطته بمثل اتحاد العام وصاحب العمل في وقت واحد. وأسس المؤسسات الاقتصادية التالية :

ـ شركة نير، وهي مؤسسة تقوم بتسليف المستوطنين الزراعيين، سلفيات نقدية، ويبلغ رأس مالها نحو 215.000 جنيه فلسطيني.

ـ شركة نتوفا، وهي شركة تسويقية زراعية، بلغت قيمة ما تداولته، من البضائع، حتى العام 1935، نحو 500.000 جنيه فلسطيني.

ـ مؤسسة التموين المركزي، انحصرت مهمتها في تزويد التعاونيات الزراعية بالآلات الحديثة. وبلغ قيمة ما تداولته الشركة، حتى العام 1935، نحو 750.000 جنيه فلسطيني.

ـ مؤسسة شكون، وهي مؤسسة هندسية، مهمتها الإشراف على بناء المنازل العمالية، وصل رأس مالها في عام 1935، إلى نحو 70.000 جنيه فلسطيني.

ـ مؤسسة هاكوبرازيا، وهي مؤسسة تعاونية للنقل والمنتجين الصناعيين، وشركة ياخين، وكان تشرف على مزارع الحمضيات في حال غياب مالكيها.

ـ شركة سوليل بونيه، وهي شركة إنشاء هندسي، إضافة لأنشطتها الصناعية الأخرى وإنتاجها لمعدات البناء كالزجاج، والإسمنت، والقرميد.

ـ شركة التأمين هسنية، وبلغ عدد المؤمنين بها، حتى آب (أغسطس) 1937، نحو 2563 نسمة، وبلغت قيمة التأمينات لديها، حتى ذلك التاريخ 773.000 جنيه فلسطيني.

ـ صندوق المرضى (كوبات هاحوليم) أنشأ عام 1933، وكان يدير ثلاث مستشفيات كبيرة، وعددا من المصحات ودور النقاهة، وكانت خدماته مجانية، وبلغت ميزانيته، حتى عام 1937، نحو 220.000 جنيه فلسطيني.

ـ صندوق البطالة، أسس عام 1933، وزوال أعماله حتى عام 1936، وكان يجمع رأس المال من أعضاء الهتسدروت،

(61) روز صايغ، الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة (ترجمة خالد عايد)، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية 1980، ص 37 .

إضافة للمساعدات التي كانت ترد إليه من الخارج. وبلغ إيراده حتى عام 1937، نحو 138.000 جنيه فلسطيني، جمع منها العمال أنفسهم 120.000 جنيه.

وإضافة إلى دور الهتسدروت، فقد نمت المؤسسات الصناعية مع نمو الرأسمال اليهودي في فلسطين، وشكل الهتسدروت بحق مؤسسة العمال المالية والتقانية والسياسية في أن وضعت الهتسدروت عند تأسيسها، دستورا، نصت مادته الأولى على: «أن النقابة العامة (الهتسدروت) توحد جميع العمال، وأصحاب الأعمال الحرة في البلد، الذين يعيشون من كدهم، دون استغلال عمل غيرهم، وذلك من أجل تنظيم شؤون العاملين في البلد الاستيطانية والاقتصادية، وأيضا الثقافية». نمت الهتسدروت، بسرعة (وزاد عدد المنضمين إليها، من 4433 عضوا، سنة 1920، إلى 9000 عضوا) سنة 1925[63] وكانت العضوية في الهتسدروت، عربية ـ يهودية.

كما شهدت أنشطة الهتسدروت، محاولات للتقارب مع أنشطة العمال العرب وذلك على قاعدة النضال العمالي المشترك، الفلسطيني ـ اليهودي، والذي تجلى بأوضح صوره، في عام 1924. عندما أقيمت نقابة عمال القطارات، التي ضمت نحو ثلاثمائة عامل عربي ويهودي، وكانت تلك النقابة، أول نقابة في فلسطين، يعترف بها من قبل رب العمل، وهو إدارة القطارات، وكانت قيادة العمل، مؤلفة من عشرة أعضاء، خمسة منهم عربا وخمسة يهودا»[64].

إلا أن التعاون العربي ـ اليهودي العمالي، بدأ يتقلص رويدا رويدا، حتى وصل إلى درجة التلاشي، بعد هبة سنة 1929 في فلسطين، وما تركته من آثار سلبية على هذا التعاون، وساد ما كانت تسعى إلى تحقيقه، التيارات الصهيونية داخل النقابات العمالية، وهو «تهويد العمل» أو ما سمي آنذاك سياسة «العمل العبري» والتي تقوم على أساس أن يكون الهتسروت وكذلك النقابات الأخرى، نقابات يهودية فقط، وألا يعمل في المؤسسات اليهودية عرب[65].

أما مبرر دعاة العمل العبري، فهو إن أمكن العمل اليهودي، قامت بفضل نشاط رأس المال اليهودي ذاته، وأن المعنيين بتطوير هذا الاقتصادي، هم غير معنيين أساسا، بالعامل العربي[66].

ومنذ العام 1929، بدأت سياسة العمل العبري تشمل المناحي كافة، الزراعية والصناعية وخلافها، وفي العام 1933، ألقى دافيد بن غريون، السكرتير العام للهتسدروت، خطابا في معهد «التخنيون» في حيفا، دعا فيه إلى ضرورة تهويد العمل، ومنع تشغيل العمال العرب، ولو بالقوة، في المشاريع اليهودية، الصناعية والزراعية.

لعبت الهتسدروت، دور الحاضنة الأم، للاتحادات الصهيونية النقابية كافة، حيث تمكن من إقامة اتحادات تابعة مثل اتحاد العمال الزراعيين واتحاد الكتاب واتحاد العاملين في البناء والمقاولات واتحاد العاملين في الصناعة العامة واتحاد عمال المعادن واتحاد المدرسين، واتحاد العاملين في الصناعات الغذائية واتحاد العاملين في النسيج والملابس والجلود واتحاد العاملين في وسائل النقل واتحاد عمال

(62) المصدر نفسه، ص 37.
(63) المصدر نفسه.
(64) وولترلين، الصندوق القومي اليهودي (ترجمة محمود زايد ورضوان مولوي) بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، جامعة الكويت، 1990، ص 80.
(65) صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ج 2، نيقوسيا، مركز الأبحاث، 1986، ص 280.
(66) المصدر نفسه، ص 242.

الخشب، واتحاد عمال القطاع الصحي واتحاد المهندسين الفنيين واتحاد عماد الطباعة والورق، واتحاد العاملين في البحار وصناعة الماس، واتحاد الأعمال الحرة[67].

الجمعية اليهودية للاستعمار في فلسطين. أسس هذه الجمعية الثري اليهودي أدموند روتشيلد، وكان ذلك في سنة 1883، وتمثل هدفها في تقديم الخدمات والتسهيلات للمهاجرين اليهود إلى فلسطين، وتشجيعهم على تملك الأراضي[68].

صندوق الإئتمان اليهودي : أنشأ بقرار من المنظمة الصهيونية العالمية، في سنة 1899، ومنذ العام 1903، أنشأ الصندوق شركة فرعية له في فلسطين، حملت اسم (بنك أنجلو فلسطين) وكان لهذا البنك نشاطه الملحوظ في تقديم القروض للمؤسسات اليهودية، في خلال فترة الانتداب[69].

الصندوق القومي اليهودي : تأسس في العام 1907 بمبادرة من المنظمة الصهيونية العالمية في بريطانيا، ومنذ العام 1922، تغير اسمه إلى الكيرن كايمث (Kaymeth Kern) وقد لعب هذا الصندوق دورا مهما في شراء الأراضي، واستيعاب المهاجرين، وتقديم الخدمات اللازمة لهم[70].

ـ الصندوق الفلسطيني التأسيسي : أنشأ في العام 1920، بقرار من المؤتمر الصهيوني، وحدد هدفه في المساعدة على استيطان المهاجرين اليهود واستيعابهم. وكان مركزه لندن. وسُجل كشركة إنجليزية[71]. كما لعب هذا الصندوق، دورا بارزا في خلق الظروف الملائمة للنشاط الصناعي والمشاركة في الإنفاق على التعليم والأشغال العامة وتنمية المدن وغيرها. وقد غطى الصندوق مصاريف الوكالة اليهودية التي بلغت 204.600 جنيه فلسطيني، في عام 1932 حسب التوزيع الآتي[72] :

أوجه الصرف	المبلغ بالجنيه الفلسطيني
الاستعمار الزراعي	71.700
استثناء محطة التجارب الزراعية في عتليت	
التعليم	40.000
المؤسسات القومية والاجتماعية	14.700
الاستثمارات في الأرض والأبنية	13.700
الهجرة والأشغال العامة	10.700
الصحة العامة	6.200
المؤسسات الدينية والمزراحية	3.900
المصاريف الأخرى	43.700
المجموع	204.600

ويمكننا هنا، أن نلاحظ بوضوح، أن الاهتمام الزراعي، حظي بالنسبة العليا من مصروفات الصندوق، لما كانت تعول عليه الحركة الصهيونية على الاستعمار الزراعي، ودوره في إقامة الكيان الصهيوني خلال تلك الفترة.

الاستيطان والرأسمال اليهودي وانعكاساته على أوجه الاقتصاد الفلسطيني 1932-1939:

شهدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، حركة لافتة للنظر، ترافقت مع صعود النازية للحكم في ألمانيا 1933.

ومع تلك الهجرة، تدفقت رؤوس الأموال إلى فلسطين، وبلغ مقدار ما دخل إلى فلسطين عبر المصارف الألمانية، في صورة

(67) أحمد سعد، مصدر سبق ذكره، ص 112 .

(68) Palestine statement of policy, May 1939, Cmd, Gol, London, p 10.

(69) Ibid, p. 11.

(70) Ibid, p. 12.

(71) الوقائع الفلسطينية، العدد 1239، تاريخ 24 / 9 / 1942، الأوامر الرسمية.

(72) فلسطين، يافا، 23 / 1 / 1935 .

رسمية، وتنفيذا لاتفاق فصل أموال اليهود الألمان مقابل بضائع ألمانية، ما قيمته 4.279 مليون جنيه فلسطيني[73]. عدا عن أموال اليهود الألمان الواردة عن غير هذا الطريق الرسمي، وعدا عن الأموال الواردة من مصادر أخرى، وفي هذا السياق شجعت حكومة الانتداب انتقال الأموال اليهودية، في خلال فترة الحكم النازي في ألمانيا، دون فرض رسوم جمركية عليها، كي يتمكن المهاجرون الألمان من نقل أموالهم إلى فلسطين.

كما أتاحت الإجراءات البريطانية، المترافقة مع صعود النازية، دخول السائحين اليهود إلى فلسطين، وفي شكل استثنائي، الأمر الذي استغله اليهود، لإدخال 44.474 سائح ما بين 1931-1935، دون مغادرة[74]. وبذلك استغلت الحركة الصهيونية مسألة العنف الهتلري من جهة، والتحايل على القوانين والإجراءات البريطانية من جهة أخرى، من أجل إدخال ما معدله 40.000 مهاجر سنويا إلى فلسطين، إضافة إلى تدفق رؤوس الأموال.

ويبين الجدول التالي هجرة أصحاب رؤوس الأموال اليهود إلى فلسطين، ما بين 1933-1935[75].

كما بلغ عدد المهاجرين إلى فلسطين 9 آلاف، عام 1932، و 30 ألفا عام 1933، و 40 ألفا عام 1934، و 61 ألفا سنة 1935[76].

ولعل أبرز المظاهر المترتبة على الهجرة، خلال تلك الفترة، إضافة للعوامل الاقتصادية والسياسية، هو الاختلاف الذي خلفته تلك الهجرة في اللباس والمسلك ومناهج الحياة، بين القادمين من قلب أوروبا وبين السكان العرب، فكانت قوالب السكان التي أتى بها هؤلاء، إضافة إلى قيمهم الاجتماعية، تبدو متناقضة مع البنية الاجتماعية للعرب[77].

وتفيد الأرقام المتوافرة، إلى أنه ما بين عامي 1932-1936 دخل إلى فلسطين، حسب الإحصاءات الرسمية، 13870 يهوديا، يملكون أكثر من ألف ليرة فلسطينية، و 1719 يهوديا يعتمدون عليهم، مقابل نحو 130 ألف يهودي وصفوا رسميا، بأنهم قادمون للاستخدام أو معتمدون على هؤلاء القادمين أو على مهاجرين سبقوهم[79].

واصلت الحركة الصهيونية، خلال تلك الفترة (1933-1936) حملة شراء الأراضي وتشريد سكانها، وسنت حكومة الانتداب جملة قوانين كانت في صالح عملية الاستيطان. من هذه القوانين، إيجاد ضمانات للفلاح الذي يطرد من أرضه.

جدول رقم (3)

العام 1933		العام 1934		العام 1935	
عدد المهاجرين من أصحاب رؤوس الأموال	نسبتهم إلى عدد المهاجرين الإجمالي	عدد المهاجرين من أصحاب رؤوس الأموال	نسبتهم إلى عدد المهاجرين الإجمالي	عدد المهاجرين من أصحاب رؤوس الأموال	نسبتهم إلى عدد المهاجرين الإجمالي
3250	11٪	5124	12٪	6309	10٪

(73) جريس، تاريخ الصهيونية، مصدر سبق ذكره، 243 .
(74) المصدر نفسه، ص 281 .
(75) Report by Majesty,s Government on the Administration of Palestion and Trans-Gordan For the Year, 1939, P. 226.
(76) Statistical Abstract of Palestine, Keren Hayssod, 1939, P. 85.
- اقتصاديات فلسطين بين العرب واليهود، القدس، الوكالة اليهودية، 1937، ص 27 .
(77) British Palestion Government, The Royal Commission Report, Cmd, 5479.
(78) روز صايغ، مصدر سبق ذكره، ص 45 .
(79) وولترلين، مصدر سبق ذكره، ص 67 .

فبحسب تقرير الإدارة البريطانية، لسنة 1933، أعلن وزير الدولة البريطاني، في مجلس العموم في 14 تموز (يوليو) 1933، عزم حكومته على توطين المزارعين المشردين، بقرض ينفق على تطوير الأراضي، ولم يكن هذا الإعلان وضمانات القانون سوى ضريبة كلامية يستهدف من ورائها التضليل وإعطاء التغطية الشرعية للممارسات الصهيونية وتشريد الفلاحين العرب. لهذا، وحتى العام 1936، أنشئت حدة الأمة الزراعية في القطاع العربي، وتقلصت مساحة الأراضي التي يملكها العرب. فمن العام 1933 إلى العام 1936، واصل كبار ملاك الأراضي لليهود، وحسب المعطيات الرقمية، فما بين 1933-1936 كان 62.7٪ من مجموع الأراضي التي اشتراها الصهاينة، أراضي ملاكين متواجدين في فلسطين، و 14.9٪ أراضي ملاكي غائبين، و 22.5٪ أراضي فلاحين صغار(80). وبحسب الاستقصاء الذي أجري من قبل الحكومة البريطانية عام 1936، والذي شمل 322 قرية، كان توزّع ملكية الأراضي في فلسطين في ذلك العام، على النحو التالي:

توزيع ملكية الأراضي في فلسطين سنة 1936(81).

جـــدول رقم (4)

حجم الحيازة (بالدونمات)	المالكون كنسبة مئوية من مجموع السكان	المساحة المملوكة كنسبة مئوية في مجموع الأراضي
أكثر من 5000	0.01	19.2
من 1000-5000	0.02	8.2
من 100-1000	8.00	35.8
من صفر -100	91.80	37.1

كان من شأن تعزيز الملكية الخاصة، أن تحولت الأراضي إلى سلعة، في ظل وجود مؤسسات صهيونية قادرة على الشراء، وانتشار حالات الفقر المدقع بين الفلاحين الفلسطينيين.

وبحلول سنة 1930، كانت ما نسبته 29.4٪ من العائلات الفلاحية لا تملك أي أرض(82). علما أن نسبة العرب، بقيت طاغية.

استملاكات الصندوق القومي اليهودي من الأراضي الفلسطينية 1905-1936.(83)

جـــدول رقم (5)

السنة	الاستملاك	المجموع
1914-1905		16.366
1920	5.997	22.363
1921	43.021	65.784
1922	6.977	72.316
1923	18.459	90.820
1924	40.225	131.045
1925	33.090	164.135
1926	13.744	177.879
1927	18.779	196.658
1928	5.433	202.091
1929	59.459	261.640
1930	19.87	278.627
1931	9.978	288.605
1932	8.305	296.910
1933	32.371	329.281
1934	12.575	341.856
1935	16.524	358.380
1936	13.161	371.541

(80) المصدر نفسه.

(81) جري جريس، تأسيس الوطن القومي اليهودي في ظل الانتداب، شؤون فلسطينية، العدد 97، كانون الاول (ديسمبر)، 1987، ص 33-67 .

(82) Palestine Royal Commission Report, 5479, P. 4.

(83) إبراهيم الجندي، سياسة الانتداب البريطانية الاقتصادية في فلسطين 1922-1939، عمان : دار الكرمل، 1986، ص 75 .

كان انتقال ملكية الأرض عاملا مهما، من العوامل التي أدت إلى تهجير العرب إلى المدن، وهو ما ترتب عليه نتائج سلبية، منها أن الخيار الوحيد الذي بقي لأولئك المزارعين السابقين، وفي حالات كثيرة، الانضمام إلى صفوف العاطلين عن العمل، ومن المرجح، أن معدل توجه اليهود إلى الريف يساوي، تقريبا، معدل توجه العرب إلى المدن، خلال تلك الفترة.

توزيع ملكية وحيازة الأراضي التي انتقلت إلى اليهود في فلسطين 1882-1939[84]

كان اليهود في أكثريتهم، يقطنون المدن، وخصوصا الكبرى منها، فمن بين عدد اليهود الإجمالي البالغ آنذاك 174809 نسمات كان هنالك 119918 (أي 68.6 في المائة) يعيشون في المدن الثلاث الكبرى، القدس 51222 يهودية من بين 90503 نسمات كانوا يقطنون المدينة آنذاك، (أي 56.6 في المائة) و ؟؟؟؟؟ تل أبيب (52773- منهم 45564 في تل أبيب، من بين 97967، أي 53.9 في المائة)، وحيفا (15923 من بين 50403، أي 31.6 في المائة) إضافة إلى ذلك شكل أوضحت اللجنة أن هذه هي الطريقة الوحيدة، حسب رأيها،

جـــــدول رقم (6)

الفترة	لكيرن كايمت إسرائيل	شركة الاستيطان اليهودية لفلسطين (بيكا)	شركة تطوير أراضي فلسطين ومؤسسات خاصة وأفراد	أملاك عامة	المجموع	النسبة المئوية من مساحة فلسطين الباقية (26320) ؟؟؟؟؟؟؟
1914-1882	1600	369000	35600	_	420600	1059
1922-1920	72400	48460	37000	594000	2.25	
1927-1923	196700	_	345000	38300	903000	3.43
1932-1928	296900	709800	709800	51800	1058500	4.2
1936-1933	369800	435000	426000	161800	132600	5.9
1939-1937	463500	419100	473000	177800	1533400	5.13

اليهود أكثرية في طبريا، أيضا (5381) من بين 8601، أي 62.6 في المائة)، ونسبة ملحوظة في صفد (2547 من بين 9441، أي 27.30 في المائة)[85].

ومع ازدياد تلك الهجرة، حمل الوافدون إلى فلسطين، ما بين 1932-1935، 31 مليون جنيه فلسطيني[86]، الأمر الذي زاد من قوة التجمع اليهودي وحفزه في اتجاه التطور الرأسمالي، ومنافسة الاقتصاد والوجود العربيين.

انهمكت الوكالة اليهودية، أيضا، خلال تلك الفترة، في دراسة مشاريع ترحيل السكان العرب من المنطقة المقترحة للدولة اليهودية، فقبل شهر من صدور تقرير لجنة بيل، علم موشيه شاريت بأن تلك اللجنة تنظر بإيجابية إلى الاقتراح الذي قدمته إليها الوكالة اليهودية في شأن ترحيل السكان العرب من المنطقة المخصصة للدولة اليهودية إذا أقر مشروع التقسيم[87]، وقد قبلت لجنة بيل فعلا هذا الاقتراح وأوصت في تقريرها بترحيل السكان العرب، قسرا من الدولة اليهودية بعد أن قدرت عددهم بنحو 255 ألف نسمة، مقابل 1250 يهوديا

(84) الشمس، القاهرة 10 / 5 / 1945 .

(85) Statistical Abstract of Palestine, 1944, p. 44.

(86) Government of Palestine, Survey of Palestine, Supplement. Jerusalem 1947, p. 17-23.

(87) Statistical Abstract of Palestine, 1944, p. 44. P. 114.

ينبغي ترحيلهم من الدولة العبرية. وبتقديمها لهذا الاقتراح، لضمان إقامة دولتين مستقلتين ومستقرتين، لا تعانيان من مشاكل أقليات قومية داخلها ضاربة مثلا على ذلك ما تم من تبادل ترحيل السكان القسري بين تركيا واليونان، عقب الحرب التي نشبت بينهما سنة 1922[88]، وكان تأثير هذا الاقتراح على بن غريون أكثر من تأثيره على غيره من زعماء الوكالة اليهودية، فاندفع إلى المندوب السامي يعرض عليه ترحيل الفلاحين العرب من فلسطين وإعادة توطينهم في أراضي تشترى لأجلهم في شرق الأردن، وحبذا المندوب السامي هذا الاقتراح[89].

وقد اتخذت وسائل الترحيل العديد من الطرق، وكان أبرزها، صرف المندوب السامي بالأراضي الأميرية، وترحيل العرب عنها. وكانت أبرز الحوادث، ما تم الاستيلاء عليه من المناطق المسنة أدناه[90].

الأراضي التي استولت عليها السلطات البريطانية من ملاكها العرب وأسمتها أملاكا حكومية (أميرية)

الموقع (ضمن منطقة القرية)	المساحة بالدونم
قاطية	552
حارفيش	474
سعسع	617
بين سعسع وجش	1289
جـش	11
بيت جـن	13674
بين بيت جـن والسموع	245
ميرون	931
الرامة	95
سحماتا	4702
البقعية	3366.1
بين فراضية ومغار	53
بين فراضية والشونة	106

شهد الاستيطان الصهيوني، خلال السنوات 1932-1935 انتعاشا لم يسبق له مثيل، حتى أن جريدة فلسطين، ذهبت إلى حد القول بأن : «أمواج الهجرة اليهودية تتعاظم وتطغى على الجبهة العربية، بفضل أموال اليهود وقوة تنظيمهم، ولن يكون اليوم الذي تنجح فيه الصهيونية في طمس المعالم العربية في البلاد ببعيد»[91].

كان عدد اليهود في المدن الثلاث، القدس ويافا ـ تل أبيب وحيفا، وأقضيتها قد ازداد بشكل ملحوظ خلال العشرينات نتيجة لاتجاههم إلى السكن في تلك المدن، فخلال الفترة الواقعة بين إحصائي 1922، 1931 ارتفع عدد اليهود في قضية القدس ويافا وحيفا من 67.314 إلى 147.694 نسمة، أي بزيادة 58.4 في المائة، وفي قضاء يافا من 24138 إلى 69789، أي 189.1 في المائة، وفي قضاء حيفا من 8745 إلى 23367، أي 167.2 في المائة. وقد استمرت أعداد اليهود، على كل حال، في الازدياد في هذه المدن بعد ذلك، وكان لهذه الوقائع تأثيرها في سيطرتهم عليها، خلال المراحل الأولى من حرب 1948.

أما اليهود الآخرون، الذي كانوا يقطنون خارج المدن الست التي مر ذكرها، والبالغ عددهم 46.963 نسمة، فقة كانوا يقيمون في 100 مستوطنة ونقطة استيطانية مختلفة، عدا عن تل أبيب، وتراوح عدد سكان كل منها، في شكل عام بين بضع عشرات وبضع مئات. وكانت هذه المستوطنات موزعة على 11 قضاء من بين أقضية فلسطين الثمانية عشرة، منها في قضاء صفد 7 مستوطنات، حيفا 18، طبريا 11، بيسان 6، الناصرة 16، طولكرم 5، القدس 3، الرملة 14، يافا 17، بما في ذلك تل

(88) كيرن ميركورد، الصناعة اليهودية، واعتمادها على الرأسمال الأجنبي، 1922-1936، شؤون فلسطينية، العدد 17، كانون الثاني (يناير) 1973، ص 103 .

(89) أنظر مجموعة المناشير والأوامر والقوانين الفلسطينية، درايتون، قانون امتياز الكهرباء رقم (9) لسنة 1927، ص 707-719 .

(90) Hansard, Parliamentry Debates, 1922, Vol. 2167.

(91) درايتون، مصدر سبق ذكره، الصفحة ذاتها.

أبيب، بئر السبع 1، غزة 3 . أما المناطق الباقية، وهي أقضية عكا، وجنين، ونابلس، ورام الله، وأريحا، وبيت لحم والخليل، فقد كانت خالية من أي مستوطنات يهودية[92].

ومع نهاية السنوات الأربع (1932-1935) كان قد أقيم 53 مستوطنة جديدة، مقابل 101 مستوطنة أقيمت خلال السنوات الخمسين (1882-1931) ووصل عدد المستوطنات في فلسطين، مع نهاية سنة 1935، إلى 154 مستوطنة شكلت بسكانها وأراضيها أساسا ماديا لتجمع اليهودي في فلسطين.

ومع ارتفاع عدد المستوطنات ازدادت مساحة الأراضي الزراعية التي كان اليهود يستغلونها، وخصوصا ما كان منها مغروسا بأشجار الحمضيات، وثمارها سلعة رئيسية. وقد وصلت مساحة ما كان منها بحوزة اليهود، سنة 1936، إلى نحو 12 آلاف دونم، مقابل 106.4 آلاف دونم يملكها العرب[93].

كانت أعداد المهاجرين، تشهد قفزات نوعية، فبعد أن كان عدد اليهود، سنة 1922، 93.794 قفز هذا العدد إلى 164.796 عام 1931 وإلى 445.457 في عام 1939[94].

وترافقت موجات الهجرة وتزايدها مع التوسع في شراء الأراضي، وزراعتها، وقد اتسعت المساحة المزروعة أثمارا حمضية من 22.000 دونم تخص العرب و 10.000 دونم تخص اليهود في سنة 1922 إلى 278.000 دونم منها 135.000 دونم تخص العرب. و 143.000 دونم تخص اليهود، سنة 1935[95].

وفي سياق التوسع اليهودي في الأراضي، بلغ ما دفعه اليهود ثمنا لأراضي فلسطينية مشتراة 1.700.000 جنيه فلسطيني، مقابل (72.905 دونم)[96].

وترتب على ذلك، ووفقا لشهادات أدلى بها موظفون بريطانيون، فقدان المزيد من الفلاحين الفلسطينيين لأراضيهم، من دون أن يجدوا أرضا بديلا لها وأفادت الشهادات إلى ازدياد مستمر في طبقة المشردين العرب الذين وصلوا إلى ما وصلوا إليه من البلاء بسبب انتزاع أراضيهم منهم ونقلها لليهود[97].

شراء اليهود للأراضي الفلسطينية حتى سنة 1936[98]

جـــدول رقم (8)

مصدر شراء الأراضي	إجمالي الأراضي المشتراة	النسبة المئوية
كبار الملاك الغائبين	358.974	52.6
كبار الملاك المقيمين	167.802	24.6
الحكومة والكنائس والشركات الأجنبية	91.001	13.4
الفلاحون	64.201	9.4
إجمالي الأراضي المشتراة	681.978	100.00

(92) عادر الجادر، مصدر سبق ذكره، ص 330 .
(93) انظر المادتين 35-36 من حق الامتياز، درايتون، المصدر السابق.
(94) Government of Palestion, General Monthly Bolletion of current statisties of Palestine 1937, p. 38.
(95) مجلة الاقتصاديات العربية (القدس) عدد (7) كانون الأول (ديسمبر) ص 9 .
(96) الجريدة الرسمية الفلسطينية (القدس) عدد 535، 16 / 5 / 1929 .
(97) مجلة الاقتصاديات العربية (القدس) العدد (7) كانون الأول (ديسمبر) ص 15 .
(98) الجريدة الرسمية العدد 770، 24 / 3 / 1938 .

ويمكن تلخيص سياسات استملاك الأراضي التي وضعتها وطبقتها الوكالة اليهودية خلال السنوات 1920-1936 كما يلي : البحث عن بائعي الأراضي (وخصوصا الأراضي الكبيرة) وكسبهم بدلا من الاكتفاء باستملاك ما يعرض للبيع. تجنب عزل المستعمرات وجعلها (مجمعات مستعمرات) أو «مناطق يهودية». وقد أدى هذا أحيانا إلى توسيع المستعمرات أكثر مما أدى إلى إنشاء مستعمرات جديدة، استملاك الأرض لأغراض مختلفة ـ الزراعة والصناعة وتطوير المدن ـ مع أن التشديد استمر على الأراضي الريفية، استملاك أكبر قدر ممكن من الأرض، بأسرع وقت ممكن[99] وجاء هذا الإسراع نتيجة اعتبارين، أولهما الارتفاع المستمر في أسعار الأراضي، وحمل الصندوق سماسرة الأرض ومالكيها العرب المسؤولية (لأنهم كانوا يرفضون البيع لتوقعهم المزيد من الارتفاع). وأهم من كل ذلك كثيرا قيام اليهود بالمضاربة التي رفعت الأسعار إلى مبالغ خيالية، وثانيهما التوقع الدائم لحدوث تغيير في سياسة بريطانيا إزاء الوطن القومي. ومن المهم أن نلاحظ أن الصندوق لم يتوقع حدوث تغييرات في مصلحة مشروعة، وإضافة إلى هذه السياسات، كانت هناك ممارسات أو إرشادات يمكن اعتبارها سياسات[100]، الاقتصار على استملاك الأراضي الجيدة، أي الصالحة أو القابلة للزراعة، شراء قطع الأرض (وخصوصا الأراضي الكبيرة) شرط أن يطرد المالك المزارعين جميعا، وأن يكون في حل من أية مطالبة (بحقوق في الأرض أو بحماية قانونية تفرضها قوانين نقل ملكية الأرض).

إن انتقال الأراضي العربية إلى اليهود بمختلف الأساليب والإغراءات وحيل الوسطاء والسماسرة، أو الضغوط والظروف القاسية التي رزح تحتها الفلاح الفلسطيني في ظل حكومة الانتداب، أدى إلى خلق المناخات الملائمة، لإثارة أعمال العنف وسخط وصراع دموي في الوسط العربي، إزاء كل من اليهود وسلطات الانتداب.

جاءت المستوطنات، التي أقيمت خلال فترة الثورة 1936-1939، وكان عددها خمسين مستوطنة، تتسم بمعلمين، جدار الأسلاك الشائكة الذي يطوقها وبرج المراقبة القائم في وسطها، أو ما أطلق عليها تسميته «بسور وبرج»[101].

ووفقا لتعبير تقرير لجنة بيل، فقد كان للمستعمرات اليهودية كيانها الخاص بها، من أرض وسكان ومؤسسات اقتصادية واجتماعية وعسكرية وسياسية، آخذة في النمو والتوسع، في شكل يهدد بفرض سيطرتها على معظم مناطق فلسطين وتحويلها إلى دولة يهودية (دولة داخل الدولة)[102].

وخلال فترة الثورة العربية الكبرى في فلسطين (1936-1939) ازدادت المستوطنات الجماعية (الكيبوتز) وذلك على أساس الملكية الجماعية، فأرض القرية ومبانيها وأدواتها ملكا جماعيا للقرية، والحياة فيهامشتركة، حيث يتناول أفراد الكيبوتز أكلهم جماعيا، وينام الأولاد في مهجع واحد. ووصل عدد سكان الكيبوتز في السنة الأولى من ثورة 1936 إلى 15.500 نسمة، بعدما كان عددهم 4.506 نسمات في العام 1930[103].

(99) أنظر قانون حدود امتياز الحولية رقم (6) السنة 1938، الجريدة الرسمية، العدد 770، 24 / 4 / 1939 .

(100) Great Britain, Parlmentry paper, Leage pf Nation, Mandat for Palestine, op. cit., P. 11.

(101) محمد سليم، نشاط الوكالة اليهودية بفلسطين منذ إنشائها وحتى قيام دولة إسرائيل 19252-1948، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 90-92 .

(102) المصدر نفسه، ص 89-90 .

(103) احمد سعد، مصدر سبق ذكره، ص 85 .

كان لإقامة الكيبوتز هدفان، أولهما اقتصادي، يقوم على توطين المهاجرين وتوفير المسكن والطعام لهم، والثاني عسكري، يرمي إلى الإشراف على المناطق العربية وعزلها عن بعضها بعضا، ولهذا غلب على سكانها الطابع العسكري، فكان الشبان منهم مدربين على حمل السلاح والأعمال الزراعية في آن.

أما المستوطنات التعاونية (الموشاف) فكانت عبارة عن قرى زراعية ذات طابع تعاوني عائلي، وارتفع عددها في العام 193969 إلى 103 بعدما كانت 27 موشافا في العام 1936[104].

التوزيع الجغرافي للمستوطنات اليهودية 1936-1939[105]

جـــدول رقم (9)

	عدد المستوطنات لعام 1936	عدد المستوطنات لعام 1939
السهل الساحلي	163	186
مرج بن عامر وغور الأردن	18	30
الجليل الأعلى، والجليل الأسفل	13	26
المرتفعات الجبلية	8	10
المجموع	202	252

يستدل من الجدول أعلاه، أن النشاط الصهيوني الاستيطاني، تموضع في معظمه في السهل الساحلي، وأن تزايد عدد المستوطنات، تنامى إبان ثورة 1936-1939، بوتائرَ عالية بلغت الضعف تماما في الجليل الأعلى والجليل الأسفل.

لقد أدت موجات الهجرة، التي بلغت أوجها من حيث عدد المهاجرين في العام 1935، إلى نتائج عدة، كان لها أكبر الأثر على رسم مسار التطور حتى نهاية العام 1939، ومن أهم هذه النتائج :

1 ـ إحداث تغير نوعي في البنية الديمغرافية (السكانية) في فلسطين، إذ أصبح اليهود يؤلفون نحو ثلث السكان[106].

2 ـ إحداث تغير نوعي في ملكية الأراضي الصالحة للزراعة لصالح الاستيطان الصهيوني، فملكية الاستيطان الصهيوني للأرض ارتفعت من 544 ألف دونم في العام 1925 إلى 1.332.000 دونم، وارتفع عدد المستوطنات اليهودية الزراعية من 1041 مستوطنات[107] من العام 1931 إلى 213 مستوطنة في العام 1936 وأدى ذلك إلى تسعير حدة الأزمة الزراعية وقضية الأرض بالنسبة للشعب الفلسطيني، وإلى زيادة حدة نقمته.

3 ـ الطابع المميز للهجرة، في هذه الفترة وحتى العام 1936، تمثل في تدفق المهاجرين الأثرياء من أصحاب رؤوس الأموال، أدت هجرتهم إلى فلسطين إلى تحول جذري في البنية الاقتصادية لصالح الاستيطان الصهيوني.

وبلغ رأس المال اليهودي الذي تدفق على فلسطين، منذ فرض الانتداب البريطاني في عام 1922 وحتى العام 1939، إلى 126.000.000 جنيه فلسطيني، الأمر الذي أسهم بحق، في تشكيل صناعتين في فلسطين (الصناعة اليهودية في فلسطين) و(الصناعة الفلسطينية). (إذا كان في الواقع اقتصادان في فلسطين، خلال الانتداب، يتقاسمان أرضا مشتركة، ولكن تقررهما قوى مختلفة، وأحيانا متنازعة،

(104) Esco faundation, Vol. 1, op. cit., P. 364.
(105) إبراهيم الجندي، سياسة الانتداب ـ الاقتصادية، مصدر سبق ذكره، ص 162-163 .
(106) صبري جريس، تاريخ الصهيونية 1918-1939، الجزء الثاني، نيقوسيا : مركز الأبحاث، 1986، ص 122 .
(107) المصدر نفسه، ص 122 .

فالاقتصاد اليهودي الذي تولد عن رغبة الصهيونيين في أوروبا وأمريكا في إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، قد تميز بفيض متواصل من المهاجرين ورؤوس الأموال، وإلى جانبه كان يقوم الاقتصاد العربي وهو اقتصاد زراعي في معظمه، ويتسم بنمو سكان طبيعي سريع وتراكم بطيء في رأس المال واليد العاملة الماهرة(108).

استنتاجات أساسية:

تأسيسا على الحقائق الرقمية والمعلوماتية الواردة والمستقاة من مصادر وثائقية أصلية، بريطانية وصهيونية في معظمها، فإن ما يمكن استنتاجه موضوعيا :

1 ـ أن الحركة الصهيونية اعتمدت اعتمادا أساسيا على الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها، وإلى ذلك، شكل الاستيطان حجر الزاوية الأساسي في بناء الفكر الصهيوني، وحوله تحلقت الأنشطة الصهيونية كافة، من مالية وسياسية ودبلوماسية واقتصادية وأمنية وخلافها. ومع نمو النشاط الاستيطاني، نمت المؤسسات الصهيونية وتعاظم دورها. وعلى رغم هشاشة الوضع اليهودي والاستيطان عموما في فلسطين، وفي خلال فترة النشاط الأولى، في ظل العهد العثماني، فلم تتمكن الصهيونية من تحقيق تقدم يذكر في مجال الاستيطان. وترتب على نشاطها الاستيطاني في مراحله الأولى، إيقاظ المشاعر الوطنية الفلسطينية، والمخاوف الإسلامية عموما من الوجود اليهودي. وبدأت حد التناقضات الفلسطينية اليهودية تبرز على السطح، بعد أن كانت غائبة غيابا تاما قبل بدء الاستيطان. ذلك أن نمط الاستيطان من حيث اعتماده على المهاجرين القادمين من روسيا ورومانيا وألمانيا، واختلاف لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم عن لغة وعادات المنطقة من جهة، إضافة لما نقلوه إلى فلسطين، من نمط «العزلة» ومحاولة الإنغلاق، والانكفاء على الذات، والنظر للمحيط على أنه محيط معادي من جهة أخرى، أسهم إسهاما كبيرا في خلق هوّة عدائية ما بين القادمين الجدد، والسكان المحليين، وترتب على ذلك بروز المقاومة الفلسطينية ضد المستوطنات والمهاجرين، منذ بدايات الاستيطان.

2 ـ على رغم من وضوح التشريعات العثمانية، في شأن الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والحيلولة دون استيطانهم فيها، إلا أن الحركة الصهيونية تمكنت من وضع بعض اللبنات الأولى في الهيكل الاستيطاني في فلسطين، مستفيدة في ذلك من الضعف الإداري للسلطنة العثمانية في خلال النصف الثاني من القرن الماضي، وبدايات هذا القرن.

3 ـ شكل الانتداب البريطاني على فلسطين، الحاضنة الحقيقية لنمو الاستيطان وتكثيف الهجرة، وفي كنفه تمكنت الحركة الصهيونية من تأسيس دولة داخل الدولة وذلك من خلال التشريعات البريطانية الخاصة بفتح أبواب الهجرة وتسهيل انتقال الأراضي إلى الحركة الصهيونية، وصولا لحماية الاستيطان بقوة السلاح.

4 ـ مع نهاية الثورة الفلسطينية الكبرى في فلسطين سنة 1939، كانت الحركة الصهيونية، وبالتعاون مع الانتداب البريطاني وعلى المستويات كافة، قد أنجزت عمليا إقامة الدولة العبرية داخل إطار الانتداب البريطاني. وبالتالي، كانت الحركة الصهيونية، عمليا، قد سيطرت على السوق المالي والاقتصادي، وأصبحت هي القوة الحاسمة القادرة على

(108) غوجانسكي، مصدر سبق ذكره، ص 224 .

التحكم برأس المال المحلي، وفي المجال الأمني والعسكري، فقد استفادت الحركة الصهيونية من مجريات الأحداث خلال سنوات الثورة، ووظفتها لمصلحتها الأمنية. ومن خلال التواطؤ البريطاني الفاضح مع المشروع الصهيوني فقد تم بناء الهيكل العسكري الصهيوني، وفق قواعد عصرية، وأصبحت المستوطنات كافة، تجمعات سكانية ـ عسكرية، يحيط بها سور، ويتوسطها برج مراقبة.

5 ـ أسهم الرأسمال اليهودي إسهاما أساسيا في المشروع الاستيطاني، ولعبت التوازنات السياسية الدولية، دورا حاسما في تسهيل نموه، كمشروع مواز وداعم للمشروع الاستعماري البريطاني في المنطقة.

6 ـ على رغم من تمكن الحركة الصهيونية من شراء بعض أراضي الغائبين، وأراض أخرى من العائلات الكبيرة المالكة، إلا أن ذلك لم يشكل ركيزة حاسمة في إنجاح المشروع الصهيوني، كما وأن مردود المستوطنات الزراعية، كان أقل مما يصرف عليها، وبالتالي، فإن الإستيطان شكل مشروعا سياسيا استعماريا يهدف إلى مضايقة السكان المحليين ومن ثم طردهم. وإلى ذلك، لم يسهم الاستيطان في تطوير القدرة الاقتصادية اليهودية، بقدر ما أسهم في تكريس واقع استعماري على حساب طرد السكان الأصليين، ومن ثم استثمار حالة العنوان، وليس تنمية الاقتصاد المحلي.



يتغمّدني بالنّشيد الرّماد

محمد علي الهاني *

تتوزّعني أنجمٌ

في سماء المنافي

أنا لن أموت...

وهذي العنادل تغسل ألوانها

في حرير انتحاري

* * *

ليت لي جمرتين

لأغرس في وجع الورد أنشودتي

يا تراب المواويل

من شفق الطّين هذا الصّهيلُ

ومن وردة الرّيح

ثلجي وناري

* * *

هل توشّح بالنّخل هذا الخريف ؟

وهل أشعل البحر حلم المجاذيف ؟

كانت لنا نخلة

يتعطّر في جرحها قمر ...

قمر بنا

هذه الشّمس في خدرها

قمر بنا

نصفع الشّمس بالاخضرار

* * *

آه ... يا لغة السّيف

قد يتوارى الصّليل

ويسحب أهزوجة من شذاها

ولكن ...

تظلّ لأمّي التي ودّعتني

مرايا تُجمّع كلّ الكوابيس

* شاعر تونسي

في ظلّها المتهدّج ...

فانتظروا لؤلؤ البرق من جلّناري.

* * *

هذه دوحة من دمي

أشعلوا الشدو في قمّتيها

يعد نحو خاصرتي السّيف ...

يا غابة العشق

إنّ الدّروب إلى الجمر

تبدأ من بيدر أحرقته السّنابل

إنّ الدّروب إلى الرّمل

تبدأ من نخلة

تتوهّج في وحدتي وانشطاري

* * *

يتغمّدني بالنّشيد الرّماد

ويفتح أشرعتي للنّوارس جمر

قفوا أيها العاشقون

لسنبلة تتوجّع في حلمها قطرات النّدى

ثمّ موتوا ...

ليسترجع الميّتون فوانيسهم

ويسيروا على جسد الأقحوان

من الاندثار إلى الاندثار.

* * *

شجر يخلع الرّيح من نسغه

ويسير إلى شفق

يستظلّ بأوجاعه

ويواعدني بالذّبول

ولا ينحني في الذّبول لغير احتضاري

شجر يخلع الظّل من لفحه

ويحاصر عشّاقه بالنّوافير ...

هذا الخريف يظلّلني ...

هل تعود إلى الرّيح أشجارها ؟

هل تعود إلى شجري نجمة من غباري ؟

* * *

مطر ... مطر

يستفيق النّدى من مباهجه

سفر ... سفر

يستريح النّدى من صواعقه

ويعود إلى أمّه

عاريا مثل سنبلة

يحمل الطّين والظّمي

آه ... لماذا يحمّلني الطّين

كلّ كوابيسه

وأحمّله حلمي وانتشاري ؟

* * *

هو ذا الطّين يغتال موتي

ويسكبني في خميلة جرحي ...

ألوذ بأغنيتي

لأعود إلى الموت ثانية

ويعود إليّ انتصاري

* * *

الموانئ تقرع أجراسها

والنّوارس تخرج أسماءها

من كتاب المراثي ...

ألا أيّهذا الغريب

لمن أسلمتك الأقاحي ؟

وماذا تركتَ لعاشقة في المراعي ؟

أنا لن أموت

وكلّ العواصف تجترّ أحلامها في انتظاري

* * *

هذه نخلتي

تتكسّر هُوج الرّياح على جذعها

هذه قامتي

تتكسّر شمّ الجبال على سفحها

أيّها البحر خذ من دمي قمرا

وتدثّر بأغنيتي

تستثر وجع اللّيل

في وشوشات النّهار

* * *

تتوزّعني أنجم

في سماء المنافي

أنا لن أموت

وهذه العنادل تغسل ألوانها

في حرير انتحاري ...

أنا لن أموت ...

وإن متّ يسترجع الميّتون فوانيسهم

من دمي واخضراري.

من فروسيات القرون الوسطى

عبد الرزاق عبد الواحد *

ألا هل لأشواقي إليكِ سبيل ؟
وهل لاشتعالي في هواك مثيل ؟
وهل لرفيف القلب عندكِ ملجأُ ؟
وهل لنزيف النازفات دخيل ؟
يقولون لو يهوى لسالت دموعه
ولكنّها بين الضلوع تسيل !
عشقتُكِ حتى لو ضلوعي تكسّرت
لظلّ بعَظْمِ القصّ منكِ دليل !
وليس قليلا أن يضُمّكِ خافقي
ولكنّما صبري عليكِ قليل !
تَغيبين يوما، ثم يوما .. فثالثا
وأبقى لحزني في دماي صليل
يقطّعني خوفي وشكّي ولهفتي
وخيل شراييني لهنّ صهيل !
وهل من بديل أن أظلّ معذّبا
وسُهدُ الليالي ليس منه بديل
إذا لم ينل منّي الهوى كلّ سهمه
فهل أنا في ما أدّعيه نبيل ؟!

* شاعر عراقي

تحايا مستعجلة

عبد الوهاب الملوّح *

سلام على الرّي
تأتي مبلّلة
بسؤال الأحبّة،
والورد في صوتهم
يفتح القلب منتجعا
للأيائل والأغنيات ..

"

سلام على الشّعراء
وناي المحبّين
يسكب عطر اللّقاء ..

"

سلام على لغة في القصيدة
توقظ نهر الجنون
وتوقد في الصّمت
ضوء التّراب ..

"

سلام على لغة
تتظاهر ضدّ الكلام
تعارك صورتها في البياض ..
سلام على شجن في الكمنجة
ينساب قصّة عشق
يبعثر أفراحه بالحياة ..

"

سلام على شجر يحرس الحلم في صحوه
وسلام على الحلم أيضا ،
سلام على امرأة تختفي بين قطر السّحاب
تخاتل ظلاّ لها في النّدى،
وتخصّ بلفتتها .. لا أحد ..

"

سلام على الحلزون
يغادر أقبية الصّمت
يبتاع ريق الصّباحات
من نزوات الفصول ..

"

سلام على طفلة
تقضم اللّيل تفّاحة
وتشاكسني في المنام
تغنّي وترقص، تضحك كالماء
.. يحيا الضّحك ..
.. ويحيا الضّحك ..

* شاعر تونسي

وسلام على الضّاحكين ..
سلام على وجهها المتأنّق
يوفد للغائبين نبوءته
وانتصار البكاء ..

"

سلام على حرقة العشق عند الحمام
ورقصة لوركا على عتبة الرّيح
تحرس موّال غصن الخريف
من الإنكسار وموت اليمام ..

"

سلام على زهرة الرّمل
ترسل غربتها مستهلّ الرّحيل إلى جزر النّوء
.. يأيّها المتسترّ بالسكّر مرحى ..
وأنت هوى مثخن بالفجائع والذّكريات،
ووجهك بين يديك
زمرّدة هشّم الوقت لفتته، في الجهات ..
وعبر شرود المرايا،
وزهو النّدى ..

"

ليس في الصّدر متّسع للبكاء،
ألست سعيدا تماما كما ينبغي ؟ ..
أم نسيت ابتسامتك المستحيلة عبر المنام ؟..

"

سلام عليك، وأنت تنام على أرق في الكلام،
سلام على العاشقين ..
مضوا،
أو .. قضوا،
.. في الصّبابة ..
لم يعدونا بشيء،
ولكنّهم خلّفوا كلّ أوجاعهم في عوائدنا ..
ليتنا .. بعدهم،
ليتنا .. قبلهم،
غيمة من مُدام ..

"

سلام على جدّتي منذ مائة عام
تغيّر موقع آنية الزّهر كلّ صباح
وتمضي إلى موعد في الخلاء مع الله
ثمّ تعود محمّلة بالعرار ..
ودمع الرّياح ..

"

سلام على دمعة الحلم يتّسع الضّوء فيها
لأحزان كلّ المحبّين يأتون من وجل الرّوح فيهم
.. إلى حجل الأمنيات ..
سلام على الشّعر،
لمّا يزل في المساءات ينأى بنا
عن شذا الأغنيات،
وعن صخرة العمر
،وينأى بعيدا ..
بعيدا .. عن الماء والحبر ..
.. عبر احتراق المدى ...

منتهى

درويش الأسيوطي *

منتهى طفلة من حرير المواعيد
لافتة عند مفرق شهوتنا والرضوخ ..

* * *

منتهى
مدخل السرمدية ؛
كنز الوجود القديم
وذاكرة لاكتشافاتنا الأوّلية
والبهجة الغائبة

* * *

حين تفتّح في الصدر نافذةً للبراءة
لاشيء يمنعها أن تغوص إلى القلب
كُحلُ أجفانها موثق من قديم المواثيق
يعطي لعشاقها المغرمين النهارات ...
تأشيرة بالدخول إلى مطهر العشق ...
تغرس في مفرق البوح
شوك التلعثم والاشتباك.

* * *

منتهى
حكمة اللغة العبقرية ...
حين يداعب إيقاعها الأنثوي الفحولة في الشعر..
تصمت "كلّ" القصائد
تطرق قافية [البحتري] ؛
ويعطي [ابن هانئ] معطفه للقصيدة...
لكي يستر الصمت
عرى القصائد والأغنيات.

منتهى..
حين تسكن خطوتها أبحر الشعر
يفتضح الشعر
يلتبس الشدوُ في ألسنِ الطيرِ،
تهتز "كلّ" الغصون ...
ويسّاقط البردُ الساحليُّ،
فلا يطفئ الشوق ماء الوجود .. !!
وتبقى على شفة البحرِ
أصداءُ صرخته :
منتهى .. منتهى .. من .. تهى .. تهى ....

* شاعر مصري

كانت .. مطمورة روما

المولدي فرّوج *

... سنة من جفاف
تلوك الذي تركته السّنون العجاف
وكان أبي
ـ طيّب الله مثواه ـ
يخلع نعله قدّام باب الشتاء
ويأوي انحناء
الى ما يسمّونه : قصر الدعاء
فيجثو على ركبتيه
يفتّش عن أثر للثّرى
وإذا لم يجد ما يرى
يشتم الرّيح
إن لم تجيء مثلما يشتهي
بالمطر
يرفع الرّأس كي يتضرّع لله :
يـــا ...
ربّ ...

لو طالت الكفّ
ضرع السّماء
لأجريت أنهارها والضّفاف
أبي لا يخاف
يجادل ربّه مثل الوزير
إذا اغتاض قرب الأمير
أبي لا يخاف ....
ولا يتكلّم إلا بقدر الكساء
وفي سنة الجدب ضاع وجاع

* * *

يا الاهي ...
يجوع الذي وهب الزرع حبّاً
... يجوع الذي
أخرج الماء من راحتيه
يجوع الذي حفر الأرض مطمورة
ثم أجرى إليها الحصاد

* شاعر تونسي

وأودعها الماء والملح ؟؟؟
قلبي على والدي
شقّ في الأرض كهفا و ... ضاع

سنوات من الخصب مرّت
فباع الخليفة ... باع ...
وباع الذي جاء بعد الخليفة
... ملح الديار
وباع الذي بايعوه غداة الذي مات
... ماء البحار
ولم يبق بين العباد
سوى والدي
لم يبع قطرة من جبين البلاد
ولم يبق غير الكلام الذي ...
إذ يشاع
... يباع
أبي ـ طيب القلب كان ـ
مضى يعلم الناس
أن المطامير
في قرية الروم محشوّة (بال ... ولاَ ..)

... لم يجد ما يقول ففي سنة الجدب
يمنع نشر الكلام على شفة الريح
خوفا على ألسن الناس
ان تعتليها الإشاعة
مثل الحقول إذا ما اعتلتها السنابل
تهوي عليها المناجل
تصطاد قبل الربيع الخطاف
ويمنع شدّ حبال الغسيل
لكي لا نرى ما تقرّر ألاّ يشاف
... أبي لا يخاف
مضى ـ طيب الله مثواه ـ
يحفر في الأرض
حتّى هوى
فتح الأرض مطمورة ثم أخرى
وكان اشتهى
أن يقابله القمح بالإبتسام
وألاّ يرى ما تبقى من الحبّ
ينهشه السوس
في غفلة الازدحام

فحولة التراب

كمال السعدون *

سئمت من إخضرار التراب
وهو يمجّد النّخيل بتراب وجذور سحيقة
تلك الجذوع التي تتعشّق الإيماء
وتعبأً حيا منها في ذكورة الرياح
أنا شبق لكثبان ... تضاجع بعضها بالعراء
هازئة بقبور أسلاف
تقاعدت أمجادها
عن الأرغفة القيصريّة
لذا ...
سأشعل شهوة الخلق
بطلع انفرادي
إنّه أمر ... أيسر ممّا يستوجب التريّث
ورقة صفراء ... وأصباغ أرخص قليلا من الدماء
وقلم أهمله فيلسوف محبط
أو شاعر حالم
وعلبة كبريت
وحين أكلم القارآت السبع
فسوف تحتفي فحولتي بالرماد
أنا ...
قيام الساعة
وقعودها !

* شاعر عراقي

امـــــرأة من أريـــج الذكـــرى

الهادي العثماني *

كلّما خلت أنّي نسيت "إلهامر"
أججت الذكرى أشواقها
أو توهمت أنّي شفيت من الحبّ
عاودني الحبّ
أهفو إلى امرأة من أريج الفصول
تميت وتحيي عشّاقها
ذكراها في القلب،
ضرب من الإيمان بالقدر المقدّر لي
فمن ساق لي ذكرى "إلهامر" ؟!
من ساقها ... ؟!
كمر تاهت الرّوح من بعدما نابها من حنين
وجاء الخريف،
يغشّي رؤوس التّلال ضبابا
ويغزو الكرومر
فتسلبها الرّيح أوراقها
وكنت أنا موقنا أنّني قد ضللت
وأن ليس تلك الدّروب دروبي
فمن ذا الذّي لا يلوذ بنخل
تدلّي على صهوة النّور أعذاقها ؟!
هي الرّوح ـ تشدو غناء شجيّاً
وينتابها العشق صدقا جليّاً
تبثّ المواويل أشواقها
فتعطي تفاصيلها للنّدامى
وتهدي شذى الحبّ عشّاقها

* * *

لأقسمر أنّي انتسبت للرّيح،
للجرح... للعشق
إنّي تركت البلاد وأنسابها
وأنّي بذاك الرّحيل المُعنّى احترفت الجنون...

* * *

هي الرّوح تفتح للحبّ أبوابها
هي الرّوح...
من صبوة العشق زُفّت وضاقت بها الدّنيا
صارت سبيّتها واستكانت
وظلّت تنوء بما نابها
منحتُ لها الصّدق والأغنيات،
منحتُ حياتي لذكرى اللّيالي
كما تمنح في الخريف الدّوالي
لعاصرة الكَرْمر أعنابها
واقسمت أنّي سأبقى وفيّاً "لإلهامر"
أحيا مع طيفها ما تبقّى من العمر
لا يبرح الصّدق أعتابها

فمن سيلمّ شتات المواعيد،
يرتق جرح الفصول
ومن سوف يشدو
لبادية في جنوب البلاد،
تعلّم العشق أعرابها ؟
أيتها الرّوح، روحي إليها
وخبّري أنّ الفراق أليم
وأنّ الحنين طغا ...
إنّ كلّ النهايات تبدو سرابا
ويخشى المحبّون أسبابها.
وحده القلب... يغتاله الشّوق
من برزخ العشق يأتي
وكلّ الدّروب التي قد سلكنا تقود بعيدا
وتزورّ عنّا،
وكلّ النهايات قبل الوصول
تغلّق دون الرّجا بابها

* * *

تضيع الخطى
هل أنا ضائع الرّوح حين أسير على وقعها
أشدو موّالها ؟!
خطى العاشقين الحيارى ترامت
بدرب الغريب تتيه بعيدا
فأنأى وحيدا
ويشدو الهوى مفعما بالصّهيل
بليل طويل،
فتشكو المسافات أحوالها.
هي الرّوح
ينتابها الشّوق عند الرّحيل
تنوء المنى تحت عبء ثقيل
ألا خفّف اللّه أحمالها
فيا أيّهذا الفتى المستهام انتسب للغناء
وحرّر تباريحك من قيود
وفُكّ مع الفجر أغلالها
كذا ... كلّما شبّت الذّكرى،
رحت أهيم بوادي القصيد
وبي من هواها جنون المريد ...
كذا ... كلّما مسّني العشق رحت أغنّي،
أمجّد في الذّكرى أطلالها
ولمّا افترقنا بدرب النّوى،
شبّ فينا الجوى واحترفنا الغناء ...
فزلزلت الرّوح زلزالها
ويوحى إلى الرّوح أن ...
يقولون : كيف ... ؟!
ومنذ متى ... ؟!
لماذا ؟ وأين ؟
أقول : هو الحبّ أوحى لها
تسلّمت مفتاح محرابها واعتكفت
وتبت نصوحا،
شربت نبيذا
سهرت ...
وبتّ أصلّي لها.

قصـــــائـــــد

محمّد بوحوش *

سأرضى بهذا القليل

أمس سرت وحيدا،
تعقبت ضوء خطاك على الأرصفة
كان يوما شبيها بأحوالنا ...
كنت أذكر تلك الملامح،
تلك الأماسي، وتلك الرّؤى الخاطفة.
وأستجمع العمر،
بعض الكلام الذي لم نقله
بقايا الصّبا والحنين ...
وأستجمع الأمنيات الصغيرة
وأحلامنا الشاردة.
كان يجمعنا حلم واحد :
أن نطير على مركب من سراب
ونعلو، على الموج نعلو،
نصيح : أيا نوح خذنا لننجو من الآخرة.
فغدا سوف يسرقنا الوقت منّا
وتمضي بنا القاطرة.
وهمت بأنّي سرت وحيدا
حزينا على الطرقات.
وهمت بأنّي حلمت، وأنّك لي ؛
وأنّا اشتعلنا بعشق وشوق قليل.
حلمت بأنّا إلتقينا،
ـ ولن نلتقي أبدا ـ
سأحلم أنّا صدى كالرّنين،
وجدنا معا صدفة ،
وأرضى بهذا القليل الذي تمنحين.

* كاتب تونسي

فصول في مديح النّار

النّار سرّ مباهجي
بوحي وكشف الحال في حالي،
قلب يرى ما لا يُرى،
وزخارف الأنوار والألوان.

* * *

النّار سرّ مباهجي، (عشقي وإيماني).
عطش الحقيقة للرّؤى،
فتنة لا تنتهي..
ألق العراء.

* * *

النّار سرّ مباهجي
شطحات وجدي، غيبتي..
لا أرتوي من نورها،
لا ترتوي في ـ شوقها ـ أسراري.

إشراقات الفناء

عالقا بالترّاتيل والابتهالات،
بنشيد البدايات،
بضياء الكلام المبعثر
فوق سديم اللغات،
عالقا بالأساطير،
بذهول الفراغ، وبالعتمات،
جسدي : النّار، والنور،
فتنتي، دهشتي، وجنوني،
لغة تحتفي بالنّشيج،
وبالوجع الآدميّ ..
دليلي الغموض ؛
والبدايات بوصلتي لوضوح الجهات ..
ولها بالفناء، بالغوايات

وحدّ التجلّي.. أرى ما ورائي،
ومُنْشَطِرِ الذات : أقرع المعجزات،
زمن مات .. زمن لم يجئ، ويموت
وأعيد إلى الرّوح حيرتها،
كأنّي البدائيّ، أكتشف النّار في دهشة
أعير الإله صفاتي..
راقصا، كضياء الفرح.. كحبيبات ماء،
يقظا في رمادي : أراني،
وأرى بؤرة الانتشاء،
عاريا من غيومي، كصحو، بوجه السّماء
مشرقا في فنائي، وسكري، وعشقي
إلاها (أموت لكي لا أموت).

حمم الصمت : رسالة إلى المتنبي
(من وحي حال العرب اليوم وأمس)

صلاح داود *

قد غرّدتْ في صمتنا حُمَمُ
تشدو بما قدْ هدّه الغَشَمُ
تستنفر الأضداد في بدني
كيما بلاد العُربِ تنتقمُ
كمْ صرّخت في أرضنا لججٌ
واستنفرت غزلانها الرَّخَمُ
وتهدّرت أجسامنا إحَناً
ما طالها موت ولا عدمُ
وتوثّبت أعناقنا أنفاً
عنّت له المبراة والقلمُ
علقت بأرواح لنا هممٌ
لو قطّعوا الأرحام ما جزَموا
تحكي عن الأمجاد من سلف
شدّوا وثاق الموت ما رحموا
واستشرفوا التاريخ ما وجلوا
قضموا لسان الجمر والتهموا
عضّوا على الأشواك ما وجعوا
ولوَوْا رؤوس اليأس ما برموا

همُ وزّعوا الآمال من صدقوا
همُ وزّعوا الأهوال من ظلموا
همُ حرّكوا الدنيا فما سكنت
حتّى الدواهي قد عنت لهُمُ
زفرت على الطغيان أنفسهم
فزعت لها النيران والصّنمُ
قادوا جياد الله عن ثقة
فتفجّرت من كرّهم حُمَمُ
وتنطّقت لغة الجهاد بهمْ
حتى القضا قد كاد ينهدمُ
إنّا حمينا الشُهبَ من غبشٍ
والنجمَ علّمناهُ يبتسمُ
والغيمَ زوّجناهُ وادينا
فحبا على أزهاره الوحمُ
إنا نربّي الشمس إن بزغت
إلاّ ومن إشعاعنا ختَمُ
ونعلّمُ الأمواج إن هَدَرت
إلاّ ولفظ الضادِ مضطرمُ

* شاعر تونسي

ونروّض الأفلاك إن سبحـــت
إلا مدارا نحـــنُ نرتســـم
نادت صقورُ الأرض حـائـــرةً
لبّتْ لها من غمـــرنا ذِمــمُ
شمٌّ الرؤوس غدت لنا جِـزراً
هذا هوانا الشـّاء والغنـــم
والجنّ أسكنـــاّه قمقُمَـــهُ
كيما يشادُ العقلُ لا وهـــمُ
حتى البحـار بها منـا فُلقـــتْ
فاصطفّت الحيتانُ تزدحـــمُ
كيما ترى أعجوبــة العـــرب :
نحروا السماء وما أريـــق دمٌ
حتّى الجبال الجُذْبُ قد عطرتْ
وهمتْ على أرجائها النّعـــمُ
والريحُ من فرط الهوى رقصــت
فرحى بعرس العرب إذ غنمـوا
عصروا المباهجَ في دُنى الظُّلَمَ
فتنطّق الأمـوات والبكُـــمُ
وتضوّع النّـــوارُ ينضحـهُـــمْ
فترشّفت أنفاســه الأمــــمُ
وتوهّجت أنوارُهـم بدعـــــا
أهوى لها العملاقُ والقـــزمُ!!
مـــــــاذا ... ؟
ماذا أداوي اليومَ يا وجــعُ ؟

ماذا أنوحُ اليومَ يا ألـــمُ ؟
ماذا أخطّ اليومَ يا قلـــمُ ؟
ماذا أرومُ اليومَ يا كَلِـمُ ؟
إمّا حيـاة نحـن نقهرُهـــا
ما عاش شعبٌ قلبه هـــرِمُ
إمّا حياةٌ نحـــن نُرغمُهــا
كيما يُشدّ اللحمُ والعظـمُ
أوْ رخوة الظلمـاء في بلـــل
فيها قفانا الجـرذُ يلتهـــمُ
يا جدّنا المتنبّـئ الصّلـفُ
إنا هُنا نـــارٌ ولا ضـــرمُ
يا أيّها الكنديّ أسكتْ صدًى
دوّت له أذنٌ بهـا صممُ
كيف احتمال الصوت والأذن
تعوي بها الأشعار والحكمُ ؟
كيف احتمالُ الصوت والكبدُ
باللحن من وترِ النّهى ضـرمُ
يا طالبَ الشرف الرفيع صـه
العرضُ في أصقاعنا ثلـمٌ
هذي قوافينا بنا سخـــرتْ
وصديعُ صوت المرّ محتـدمُ
إنّا أيا متنـبّئـا فـــرقُ
بتنا شظايا ليس تلتحـــمُ
صار ابن كُفرٍ في العُلى سبحاً

والقدسُ أهلُ الغدرِ قد غشموا
إنّا بهوتٌ ليس نسمعكم
إنّا رُقادٌ مثلما الرّمم
جالت على أعمارنا جولٌ
مالتْ إلى الأدنى لها القمم
وزنت على أنفاسنا عهرٌ
شوهاءُ أو جرباءُ أو لا فم
وغفت على أبصارنا سنةٌ
عجّت بها الأضغاث والوهم
ضربوا الحصار على قرائحنا
وعدوا على القرآن ما رجموا
قطع اللئام جلودنا وبها
ظفرت لنا الأسواطُ واللّجم
وعلى مقابرنا بكوا زلفاً
ظنّوا بأنّ الكذبَ ينهضم
يا مادحا سيفا على عجب
اليوم نُخ حطباً به ورمٌ
ما سرّنا ما قال حاسدكم
والجرحُ رُغم الرفض لا ألم
إن عشتَ تشكو الجهل من عرب
ضحكت على أشلائها الأممُ
أيّام كنتم قبلةَ القُبل
ولكم على هام الورى قدمٌ
أيّام صال الجبرُ والفلكُ
وتعانق التفسيرُ والحكمُ
سقراط في بغداد منتصب
والقيروان محجّة حرمُ
يأتمّها الطلاّب من ظمأ
ويرومها الأسيان والبرمُ
وفروض جالينوس في حلب
يقتاتها المستهلم النّهم
ورسائل الإخوان نابضة
أعيتْ عقول الغرب ما فهموا
وبصائر ابن الهيثم انفجرت
تهتزّ منها الأشهر الحُرُمُ
ومعزّ دين الله في صلف
أسطوله القهّار محتكم
والناصر الأمويّ من جلل
أحنى له الإسبان ما سلموا
وبدائع الإعجازِ قرطبةٌ ...
أيٌّ من العمران منسجم
ونيوب ليث الشعر بارزة
تعني بأن الليث يبتسم
فاليوم كيف الهمّ تعربه
وجياد ساح العلمِ هم عجم ؟!

الكاريكاتور في الشعر العربي القديم : (أبو نواس وابن الرّومي نموذجا)

محمد المهدي بن نصيب *

الكاريكاتور هو فن الرسم المُضحك أو الساخر، وقد تواضع نَقَدَةُ الفنّ ومؤرّخوه على أن الرسّام الإيطالي «كراتشي» الذي عاش في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، هو الذي ابتكره حيث كان يرسم صورا مضحكة لبعض أفراد عائلته وبعض أصدقائه... ولعل لفظة «كاريكاتير» الدالة على هذا النوع من الرسم جاءت من اسم هذا الرسام الإيطالي.

ولا يهمّ هذه التوطئة، ما تطور إليه الرسم الكاريكاتوري حتى غدا سلاحا قاهرا تتدجّج به الصحافة المعاصرة... بقدر ما يهمها كيف عرف الفن العربي الكاريكاتور، بل وفن التصوير عموما... ولكن على طريقته!!

فرغم أن فن التصوير كان محظورا لأسباب دينية ليس هنا مجال ذكرها، فإن شعر العرب أو فنّهم الأول، اقترب اقترابا شديدا من الرسم واستعاض عن الخطوط والألوان... بالكلمات!!

وها إنني أتقصّى خطى شاعرين أثيرين لديَّ، هما : أبو نواس (ت 199 هـ) وابن الرومي (ت 283 هـ)، لأقف ـ والقارئ ـ على براعتها في هذا الميدان.

1 ـ مع أبي نـــواس :

لعل نفسية أبي نواس وطبيعته الميالتين إلى اللهو والعبث والفكاهة والسخرية هما السببان الرئيسيان اللّذان جعلاه يفطن إلى هذا اللون من الكتابة الشعرية : «الرسم بالكلمات»...

فبعيدا عن موضوع هذه الدراسة وقريبا منه في آن معا، نقرأ هذه اللوحة الشعرية (كدت أكتب الزيتية أو المائية!!) التي تصف تلك المرأة «المغتسلة» فتأمّل معي... وتملّى معي ومعه هذه الخطوط الدقيقة وهذه الألوان المتناسقة وهذه الظلال المنعكسة على المشهد العام لهذه «اللوحة»...

يقول الشاعر أو (الرسّام!!) أبو نواس :

نَضَتْ عنها القميص لصبِّ ماء
فورَّدَ وجهَها فَرطُ الحيـــاء
وقابلتِ الهواءَ وقد تعـرَّت
بمعتدلٍ أرقّ من الهــــواء
رأت شخْصَ الرَّقيب على التداني
فأسدلت الظلامَ على الضيـــاء
وظل الليل يجثم فوق صُبـح
وظلَّ الماءُ يقطر فوق مـــاء
فسبحان الإلـه وقـدْ بـراهـا
كأحسن ما تكونُ منَ النّساءِ

* شاعر تونسيّ

... وغرض الهجاء وحده هو الذي امتدت له اليدُ الساخرَةُ لترسم لنا صورا غاية في الغرابة، مستعملة مبالغاتٍ لغوية وأساليبَ تعبيرية تستلُّ منك الضحك استلالا، وتعي وأنت ابن القرن الواحد والعشرين أنَّ هذه «المبالغات» و«هذه الأساليب» كان لها وقع وأيُّ وقع على المهجوّ المعاصر للشاعر في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي!!

فهُوَ مثلا يهجو جارية اسمها «بنان» فيستعمل أسلوبا، ما رأيته عند شاعر قطُّ، إلا عند المتنبي ـ الذي جاءَ بعْدَهُ بقرنين ـ في بعض أهاجيه لكافور...

يقول أبو نواس في هجاء هذه الجارية :

وجْـــهُ بَنَانٍ كأنَّــهُ قَمَـــرُ
يلوح في ليلَةِ الثلاثيـنِ

والخدُّ مِنْ حُسْنه وبهجتـــه
كطاقةِ الشوكِ في الرياحينِ

(...)والفمُ من ضيقه إذا ابتسمت
كأنهُ قصعةُ المساكينِ

وحسبكَ الحُسنُ في ضفائـرها
مثل الشماريخ في العراجينِ

والجيدُ زَيْنٌ لمَـنْ تأمَّلَـــهُ
أشبه شيءٍ بجيدِ تِنِّيـنِ

ومنكباها في حسْنِ خَلقهما
كمثلِ رُمَّانتيـن مـن طيـنِ

(...)والساقُ برَّاقةٌ خلاخلُـها
كأنها محْــرَكُ الأتاتيـنِ

تفتنُ منْ رامها بلحظتها
كأنها لحْظَةُ المَجَانيـنِ

(...)وأقرب الناس في الخطى خفَرا
خطوتها من نَسَا إلى الصينِ

وُلدتْ من أسـرة مُبـاركـــة
لا عيْبَ فيهم، منَ الشياطيـنِ

فتأمّل هذه المقطوعة الشعرية تجدْ صدور أبياتها جميعا غزلا (مدْحا) بمحاسن هذه الجارية... ثم تأمّلْ أعجازَ المقطوعة الشعرية نفسها ترَى هجاءً (ذمّا) مقذعا، وبهذه المقابلة بين المدح في الصدر والهجاء في الأعجاز تكوّنَ ذلك الأسلوب الطّريف المبتكر وتلك البراعة التي بلغت الغاية في السخرية والإضحاك!!

ويتصادم أبو نواس مع الشاعر الفضل الرّقاشي فيتهاجيا... ويكون للفضل وآله رقاش لوحات ساخرة فهو يهجوه في إحداها في صورة عابثة فيقول :

رأيتُ الفَضْلَ مُتكئـا
يُنَاغـي الخُبْزَ والسَّمكَـا
فقطَّب حيـن أبصرنـي
ونَكّس رَأْسَـهُ وبَكَـــى
فلمّا إنْ حلفـتُ لَـــهُ
بـأنِّـي صَـائـمٌ ضَحِكَـا

وفي أخرى يقول :

قِدْرُ الرُّقاشيِّ مضْروبٌ بها المثلُ
في كلِّ شيْءٍ خلا النيران تُبتذل
تشكو إلى قِدْرِ جاراتٍ إذا التقيا :
اليوم لي سنَةٌ ما مسني بلـلُ

أو يهجو رُقاشا جميعا ـ قبيلة الفضل :

رأيتُ قُدُور النّاسِ سودًا من الصلى

وقدر الرقاشيين بيضاء كالبـــدرِ

تبيّن في مخراشها أن عودُهـــــا

سليمٌ صحيحٌ لمْ يُصبْه أذى الجمرِ

يُبيّتـها للمعتفى بفنائهـــــم

ثلاثا كنقط الثّاء منْ نُقَطِ الحِبْـرِ

ولو جئتها ملأى عبيطا مجـــزّلا

لأخرجْتَ ما فيها على طرف الظفرِ

(...)إذا ما تنادوا للرّحيل سعى بها

أمامهُمُ الحُوليُّ من ولد الــذرِّ

فإذا علمتَ أن المخراش هي قطعة من الحديد لها يد، تُقلبُ بها النار، وعلمتَ أنَّ العبيط المُجزّل هو اللحم الطريّ، وأن الذَرّ هي صغار النمل، وأعدت قراءة الأبيات تتبيّن مدى سخرية النواسي من «الرقاشيين»، إذ هجاهم بالبخل، بل بالغ في ذلك حتى جعل قدْرهم لا تمسسها النار - الدهر - فهي لذلك بيضاء، وهي صغيرة لدرجة أنها تُنصَبُ على أثاف هن كنقط حرف الثاء في الصغر والقرب... أو قل أن ابن الحوْل من ولدِ النمل قادر على حمل هذه القدْر!!...

فماذا أبقى النواسيّ من فنّ الكاريكاتور ؟!!

وأغلب مهجويّ الشاعر صورتهم يَدَه العابثة مركّزة على بخلهم بالرغيف وضنِّهم به أو قل غيرتهم عليه بل وتزيينه بالحُلي كما تزين العروس!!... وفي هذا السياق تأتي هذه المقطوعة :

فتًى لرغيفه قـرط وشَنْـــف

وخلخالان من خَــرز وشــذْرِ

إذا فقدَ الرّغيف بكى عليـــه

بُكا الخنْساء إذ فجعت بصخـرِ

ودونَ رغيفه خلْعُ الثنايـــا

وحرْبٌ مثل وقْعةِ يَــوْمِ بــدْرِ

فإذا علمت بأن الشّنف هو القرط الأعلى والخرزُ هو الجوهر والشّذر : قطع من الذهب غير مُذابة... وأعدتَ قراءة الأبيات... ستجد ذاك الأسلوب المبتكر عينه، يرسم الصور المبالغ فيها، الفضفاضة والتي أسهمت في الروح المرحة والنفس الساخر الذي قرّبَ الشاعرَ من رسامي الكاريكاتور المعاصرين....

فأي شيطان مارد نفث في أبي نواس حتى أنطقه بهذه المبالغات؟!!...

فـ «الفتى» المهجوّ إذا فقد رغيفه تملّكه من اللوعة والأسى ما أصاب الخنساء عندما فقدت أخاها صخرا!! (عنيتُ بالشيطان المارد أي مدلول من مداليه : شيطان الشعر... إبليس الخ...)

ثم مُرّ معي ومع الشاعر إلى بيته الثالث وقف عنده... ولا تعليق!! فقط ردّدْ معه قوله في موضع ما من ديوانه :

«والشيخُ نفّاعٌ على لعْنَتِهْ»!!... والشيخ الذي يقصد هو إبليس!!

...وغير بعيد عن الأبيات السالفة، هذه الأبيات التي هجا بها شخصا يدعى سعيدا فقال :

رغيفُ سعيدٍ عنده عِدْلُ نفســـه

يُقلِّبُهُ طوْرا وطوْرًا يُـلاعبُـهْ

ويخرجُـه من كُمِّهِ فيشمُّـــه

ويجلسه في حِجْره ويخاطبهْ

وإن جاءَهُ المِسْكينُ يطلبُ فضلــه

فـقـد ثكلتــه أمُّـهُ وأقــاربُــــــهْ

يكرّ عليه السّوط من كُلّ جانــــب

وتُكسَرَ رجـلاهُ ويُنْتَفُ شاربُــهْ

وهي قطعة ملأى بالحركة، وتعج عجيجا بالصخب الساخر، مما يجعل لها إلى جانب الأمر الذي يربطها بفنّ الكاريكاتور... أواصر أخرى تربطها بالرقص وبالمسرح عموما، والكوميديا منه على وجه الخصوص.

... ونظرا لاتحاد هذه المقطوعات في القصرِ، وفي إتيان أغلبها ـ إن لم يكن كلها ـ على بحور عروضية خفيفة، مفعمة بالموسيقى، فإني أظن ظنا جازما كاد يتحوّل يقينا، بأنّ أبا نواس، أو أحد غلمانه أو جواريه، كانوا يتغنّون بهـذه المقطوعات : عبثا وظرفا، من ناحية، وإمعانا في إغاظة المهجويين الذين هم في الغالب الأعم من مجالسيه، من ناحية أخرى.

وبهذا «الغناء» ينفتح الكاريكاتور النواسي الشعري على الموسيقى إلى جانب انفتاحه على المسرح والرقص... فتتحدد الفنون.

زد على ذلك أن أبا نواس نفسه خصَّ بعضَ المغنين ببعض هذه الرسوم الكاريكاتورية / المقطوعات الساخرة، إذ يهجو مغنيا يُدْعى زهيرا، فيقول :

قُــلْ لزهــيـر إذا اتّـكا وشــدا

أقـلـلْ أو أكْـثـر فـأنْتَ مِهْـذارُ

سخُنْتَ من شـدة البرودة حتـى

صرْتَ عـنـدي كـأنَّـكَ الـنـــارُ

لا يعجب السامعون من صفتـي

كذلك الـثـلـج بـــاردٌ حَــــارُ

ويهجو قيانا مغنيات للمدعو موسى فيقول :

إذا ما كنتَ عند قيـان موسى

فعند الله فاحتسب الســــرورا

خنـافسُ خـلْفَ عيـدان قعـود

يطوّل قُربُها اليومَ القصيـــرا

إذا غنّيْنَ صـوتًا كان مَــوْتًا

وهجْنَ بــه عـلـيك الزمهريــرا

2 ـ مع ابن الرومي :

أما ابن الرّومي الذي جاء بعد أبي نُواس بحوالي نصف قرن، فلقد نظر ولا شك في هذه الأهاجي أو الرسوم الكاريكاتورية النُّواسيَّة...

ولا أقول ذلك وحدي، بل إن الأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي الذي حقق ديوان أبي نواس يعلق على قطعة هجا بها النّواسي إحدى الجواري فقال في أحد أبياتها :

شخصُها شـخـصٌ قـبـيــــحٌ

ولـهــا وَجْــهٌ مُــوَلّـــــــي

أقول : يُعلّق الأستاذ الغزالي على هامــش القطعــة، على هذا البيت فيكتب «من هذا المعنى أخذ ابن الرومــي قوله :

لــهُ إذا عاينتُهُ مَـــــــرَّةً

وجْـهُ بَـخيـلٍ وقَـفَـا مُنْهزِمِ»

ولقد اشترك الإثنان ـ أبو نواس وابن الرومي ـ في رسم لوحات كاريكاتورية للمغنين وللبخلاء...

يقول ابن الرّومي في هجاء إحدى المغنيات :

تضغط الصوتَ الذي تَشْدو به

غُصَّة في حلْقِها معْترضَــهْ

فإذا غَنَّتْ بَدا في جيدِهَـا

كلُّ عرق مثل بيت الأرضَــهْ

ويقول في مغنّية أخرى :

صوتُها بالقلوب غير رفيــق

بَلْ لهُ بالقُلُوبِ عنْف وبطــشُ

فـإذا رقّقْتَهُ بالجُهْدِ منها

خِلْتَ في حلْقِها شَعيرًا يُجَشُّ

أما المغنّون من الرجال فكان لهم «حظهم» أيضا من هذه اللوحات الساخرة.

يقول في أبي سليمان المغني ومعلّم الصبيان :

أبو سليمان لا تُرضي طريقتــه

لا في غناء ولا تعليم صبيــان

له إذا جاوبَ الطنبورَ مُحتفــلا

ضَرْبٌ بمصْرَ وصَوْتٌ في خراسانِ

عواءُ كلب على أوتار مندفــة

في قُبْح قِرْدٍ وفي استكبار هامــانِ

وتحسب العيْنُ فكَّيْهِ إذا اختلفــا

عند التنغّم فكي بغل طحّــانِ

فتملّى هذه اللوحة الكاريكاتورية التي رسمتها ريشة ابن الرومي فأبدعت خاصة في نقلها للنشاز الواضح الذي يخلقه غناء أبي سليمان «ضرْب بمصر وصوت في خراسان» وفي البيت الأخير ألا تحسّ معي بقمّة الروعة وذروة الغاية في السخرية عندما شبّه اختلاف فكي المغني عند غنائه باختلاف فكّيْ بغل صاحب مطحنة، إذا جَحَش (نهق)... فبغل الطّحان يرسلُ صوْتا مُنهكا كدّه التعب وأنهكته الرتابة المنجرّة من الدوران على الرحى أو الطاحونة الحجرية... وكذا صوت أبي سليمان المغني!!...

أما جحظة، وقد لُقّب بذلك لجحوظ عينيه، وكان مغنّيا فلقد رسم له الشاعر لوحتين نادرتين في العبث، يقول له في الأولى :

تخالُهُ أبدا من قبح منظــره

مجاذبا وترا أو بالعا حجرًا

كأنّهُ ضفْدَعُ، في لجَّةٍ، هــرِمُ

إذا شدا نَغَما أو كرَّرَ النظرَا

أما في الثانية فيقول له :

نُبِّئْتُ جَحْظَةَ يستَعيرُ جحوظَــهُ

من فيلِ شطرنجٍ ومن سَرطانِ

وارحمتا لمناديه تحمّلــوا

ألَمَ العُيُونِ للَــذَّة الآذانِ

والبيت الأول من المقطوعة الثانية يحيل بالتركيب الإضافي «فيل شطْرنج». إحالة واضحة على الازدهار الحضاري الذي عرفه العصر العبّاسي... ثم ألا تحيل هذه اللوحات الكاريكاتورية عند أبي نواس وابن الرومي على هذا الازدهار الحضاري نفسه، فأصبح فن الهجاء مغايرا لما عُرفَ من قبل في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي؟

وبعد فلوحات ابن الرومي في المغنيتين والمغنّيين كانت بارعة في الإضحاك... أما البخلاء فلقد هجا أحدهم، ويدعى عيسى، فقال :

يُقَتِّر عيسى على نفسه
وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلوْ يستطيع لتقتيره
تَنفَّسَ من منْخَرٍ واحدِ

فما أروع هذا الرّسم الساخر وأدقّه، فعيسى ـ هذا ـ لو يستطيع لمنع عن نفسه التنفّس إلا من منخر واحد لشدة بخله!!...

إنها مُبالغة تُذكّر بمبالغات أبي نواس التي مرّت معنا (عُدْ مثلا إلى قِدْر الرقاشيين، وقارن).

على أن ابن الرومي توسَّع في هذا الفن إذ لم يتركه حكرا على المغنين والبخلاء ـ كما بدا ذلك عند أبي نواس ـ بل وسّعه ابن الرومي ليشمل طوائف أخرى من الناس، من ذوي العاهات والمُشوهين، وذوي اللحى الطويلة...

فمن المعروف عن ابن الرومي تطيّره الشديد حتى كان يحبس نفسه وزوجته أسابيع، وعرف معاصروه هذا التطيّر فدسُّوا له رَجلا أحْدَبَ، فإذا نظر ابن الرومي من ثقب باب منزله وراه صباحا، عاد ولم يخرج عامّة يومه وهكذا إلى أن عرف أحد جيران الشاعر القصة فنحّى الأحدب الذي كان له هذان البيتان العابثان :

قصُرتْ أخادعُهُ وغارَ قَذالُهُ
فكأنَّهُ مُتربّصٌ أنْ يُصْفعا
وكأنّما صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً
فأحسَّ ثانيةً لها، فتجمّعا

وعلى النسق ذاته، مبالغة في الوصف وتضخيما للعيب الجسماني أو العاهة يرسم الشاعر لوحة كاريكاتورية بارعة لرجل يُدعى دَبْسًا كان قبيحَ المنظر وذا أنف كبير... فيقول له :

قولا لدَبْس شَرَّ مَنْ | يطأُ التُّرابَ ويَرْمُسُ
تبًّا لدَهْرٍ أنت فيه | مُقَدَّمٌ ومُرأّسُ
فَالأنْفُ منْكَ لعَظْمه | أبدًا لرأسكَ يَعْكسُ!!
حتّى يظنُّ النّاس أنك | في التُّرابِ تفرَّسُ
وإذا جلستَ على الطريق | ولا أرى لكَ تَجْلسُ
قيل السلامُ عليْكُما | فتجيبُ أنتَ ويخرسُ

وعلى الوتيرة ذاتها يهجو من يُدعى شُنْطفَ، وكان قبيح المنظر فيقول :

شنطفُ يا عوذةَ السماواتِ
والأرض والشمس النّهار والقَمَرِ
إذا كان إبليسُ خالقا بشرًا
فأنت عندي من ذلك البشَرِ
صوّرك المارد اللعين فأعطاك
يداهُ مقابحَ الصورِ

وبديهي أنّ إبليس أو «المارد اللعين» لم يخلق «شنطف» بل هو خَلْقُ الله سبحانه، إلا أن إبليس نفث في ابن الرومي ـ كما فعل مع أبي نواس ـ فكانت هذه الأبيات، وغيرها من مثل قوله يهجو المدعو عمرا ذا الوجه الطويل فيقول :

وجهكَ يا عمرو فيه طولُ | وفي وجوهِ الكلابِ طولُ
مقابح الكلب فيك طرًّا | يزولُ عنها ولا تزولُ
وفيه أشياءُ صالحاتٌ | حماكها اللهُ والرسولُ
والكلب وافٍ وفيك غَدْرٌ | فَفيكَ عَنْ قَدْره سُفُولُ
وقد يحامي عن المواشي | ولا تحامي ولا تصولُ

إلى أن يقول له :

مستفعلن فاعل فعولُ مستفعلن فاعل فعولُ

بيتٌ كمعناك ليس فيه معْنًى سوى أنه فضولُ

والتأثر بالمنطق الفلسفي اليوناني الذي استْمرأته الثقافة العربية في عصر الشاعر واضح وضوح الشمس في هذه الأبيات... وهذا التأثر ذاته تراه عندما يصوّر الشاعر رجلا ذا لحية طويلة عريضة في إحدى لوحاته الكاريكاتورية فيقول :

إنْ تطُلْ لحْيَةٌ عليك وتعْــرضُ

فالمخالي معروفة للحَميــرِ

علَّقَ الله في عَذارَيْكَ مخــلاةً

ولكنـها بغير شَـعـيـــرِ

لحية أُهملت فسالت وفاضت

فإليها تشيرُ كَفُّ المشيـــرِ

ويستخدم الشاعر الأسلوب نفسه في لوحة كاريكاتورية أخرى في هجاء ذي لحية طويلة آخر، فيقول مستعملا مبالغات صبغت على اللوحة براعة في العبث وغاية في السخرية المشوبة بالمرح المضحك :

لوْ غَاص في المَاء بهـا غَوْصــةً

صادَ بها حيتانهُ أجمعــا

أو قابَلَ الـرِّيحَ بـهـا مــــرَّةً

لم يَنْبَعثْ خُطْوها إصبعــا

خـاتـمـة:

وهكذا يُمتعنا الشعر العربي في العصر العباسي بهذا اللون من الفن وكان للشاعرين اللذين أظلهما هذا العصر وفاءت عليهما أشجار حضارته المزدهرة وارْتَوَيا من ينابيع ثقافته المتنوّعة والمنصهرة باعٌ وأيّ باعٍ في رسم الكاريكاتور.

نعم، كان أبو نواس وابن الرومي كاريكاتوريين بالفطرة فهما، وإن استعاضا عن الخطوط بالكلمات والأساليب، فإنهما أبقيا على روح هذا الفن، فالمقطوعات (أو اللوحات) كانت جد قصيرة لم يتجاوز بعضها البيتين عند كليهما... واستعملا المبالغات الطريفة مع لغة بسيطة ـ إلا فيما نَدَر ـ ولكنها حُبْلى بالدلالات الفنية... ثم إنهما نقدا هموما اجتماعية (البخل) ومسائل تخص الغناء والموسيقى... ولم يفت ابن الرومي ـ خاصة ـ الجسم البشري مصورا بعض عيوبه، حاثا على نظافته (هجاء ذوي اللحى الطويلة).

وبعدُ، أعود فأقول : ماذا أبقى أبو نواس وابن الرومي من فن الكاريكاتور؟ على أن هذا العصر العباسي لم يوح إلى الشعراء فقط بهذا الفن... بل إنه أوحى أيضا إلى الناثرين، ولعل طريقة الجاحظ (ت 255 هـ) في الكتابة المتمثلة في مزج الجد بالهزل... أو قل كتابيه «رسالة التربيع والتدوير» و«كتاب البخلاء»... لعل كل هذا لا يغمط النثر حقه في هذا المجال... ثم وبأخرة، كانت مقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الحريري تسير في ركاب هذا الفن : الكاريكاتور.

❄ ❄ ❄

التأويل في الكتابة الجديدة

هشام العيسى *

لم تعدْ المناهج النقدية الحديثة قادرة على الإحاطة بتضاريس بنائية النص الحديث من خلال خصائصها التحليلية، كونها لا تستطيع إخضاع النص إلى منهج معين، لأن النص يُكتب دائما خارج المنهجيات، إذ يُشكل في بنيته الداخلية عدة مستويات للتلقي، مما يقتضي ذلك الرجوع إلى آليات اشتغاله اللغوية، حيث يمثل التأويل مركزها الرئيسي.

فنجاح النص يتوقف على إمكانياته التأويلية، فالتأويل هو (علم يعمل على إظهار المعاني الخفية والجوهرية للمفردة اللغوية) بغية الوصول إلى الحالة المطلقة أو النهائية للمعنى.

إن المشكل الحقيقي يكمن في الرؤيا الثاقبة والقدرة على اختراق النص من الجانب التأويلي بالنسبة للباحث المتخصص والمتلقي، وما يظهره من استنتاجاتٍ تحليلية حسب رؤاه.

فهذا هو المشكل الشائك والمعقد، إذا آمنا بأن التلقي مستويات حسب ما يطرحه (جان كوهن) في (حداثة النص).

إن النصوص الكتابية وآليات اشتغالها، تعمل على ضرب الاجناسية، وصهرها في بوتقة واحدة، مما يجعل هذه التجارب تأخذ مساحات وأبعاد أخرى، وهي في ذلك أكثر إيغالا ورسوخا من التجارب التي سبقتها، إنها أقرب إلى التجارب الصوفية، وهذا ما تؤكده أغلب الدراسات والبحوث السابقة في هذا المجال (أدونيس) (مقدمة الشعر العربي).

إننا نطرح اليوم قضية مهمة، وإشكالية محددة، يتطلب الوقوف عليها، بالبحث والتقصي... ألا وهي الخصائص الفنية لشروط الكتابة الجديدة، فهي تتباين بين منتج وآخر، وبين النصوص ذاتها.

إن كل نص كتابي يعمل على خلق قوانينه وشروطه المستقلة بمعزل عن الآخر، فهي تتشكل من خلال النص ذاته بتلقائية عالية، وهذه الشروط والقوانين لا تخضع لنظام معين ولا لخصوصية معينة، أو طريقة بنائية في الكتابة، إنما تتحدد من خلال المسحة الجمالية للنص وكثافته الصورية المؤثرة التي تعمل على خلق بلبلة دائمة في الحواس دون أي مؤثر خارجي.

فولادة أي نص تعني ولادة شروط جديدة، هذا إذا كان النص يحمل الخصائص الفنية السالفة الذكر.

نأمل أننا قد وفقنا في هذا الرّأي فهو جزء من سلسلة دراسيةٍ.

* كاتب عراقي

كـــان ولـــم يـــكـــن

حياة بن الشيخ *

هتف الطفل الصغير وهو يجذب اللحية البيضاء الهزيلة الشّعر :

ـ جدّي، ألا تفكّر في الرّحيل ؟

صوت أجش يصرخ ناهرا الثغر الصغير الباسم :

ـ إلى أين أرحل أيّها الوقح ؟

ـ إلى العالم الآخر كما تقول أمّي. كلُّ من كبر وهرم لا بدّ أن يفكّر في الرّحيل، أبي يقول ذلك أيضا.

ـ اللعنة على أبيك وأمّك ولسانك الطويل السام. إذ هب. أغرب عن وجهي يا غراب الشؤم.

تدحرج الطفل أرضا وقدّم الشيخ تركله في بطنه. لم يبك ولم يتأوه بل راح ضاحكا. قهقهة جريئة بها خبث وبراءة ودعابة متحدية. عاد يقترب من مجلس الجد بعد أن وقف على رجليه ثانية :

ـ جدّي، ألم تتأكد بعد أنّ حياتك أسطورة وأحاديثك،ترهّات تجاوزها الزمن وملّها النّاس.

زمجر غاضبا والجسم الضئيل المتماسك رغم الشيخوخة والمرض يرتعد غيظا :

ـ هذا ما تدّعيه أمّك أيضا ؟

ـ وأبي، وأعمامي والأقارب وجميع أهل القرية.

ـ تتجرّأ على مخاطبتي أيّها اللّئيم. من علّمك الوقاحة ؟

الطفل لا يكف عن القهقهة :

ـ جدّي حقّا أنت أسطورة. أسطورة عجيبة لم يفهمها أحد.

ـ إذن، فلتعلم أيّها الوقح أنّ الأساطير لا تموت. ومادمت أسطورة فلن أموت أخبر بذلك جميع الأوغاد الذين ينتظرون رحيلي بفارغ صبر.

كفّ عن الضحك فجأة لكن نظراته القلقة لا تفارق الوجه النحيل المرتعش الفكين دومًا :

ـ جدّي، كلنا أحببناك في يوم ما ولكن.

صرخ الشيخ الزاحف نحو المائة وما زال متمسكا بأوهام الماضي وسراب المستقبل حالما بالمزيد من السطوة والجنون :

ـ يا زوجة الثّعبان. تعالي خذي هذا الشيطان. أخذكم اللّه، حتّى أستريح من وجوهكم المشوّمة.

جذبت المرأة الطفل من يده وغيظ مكبوت يتلوّى فوق قسماتها.

ـ حتّى الصغير لا يسلم من الأذى. يا للغبن.

تبتعد والطفل أمامها يركض ضاحكا يلاحقهما صوت الجدّ لاعنا، ساخطا.

ما أمرّ هذا الزّمن الأغبر ؟ الصغار يتطاولون على الكبار، يعبثون بشيخوختي والكبار يستمعون ببلاهة إلى أحاديثي ولا يصدّقون ولو تظاهروا بتصديقي عهد مضى كان الجميع يعشقون هرفي ويصفقون لهرائي ولا من يجهر بتكذيبي والآن ماذا جرى ؟ أهو عصر التّمرد والعصيان أم هو زمن اليقظة المباغتة ؟

من تفوّه بهذه الكلمة اللّقيطة ؟ اليقظة المباغتة. من ؟

تذكّرت، قالها ذاك الجاحد الّذي رفضت أن أهبه مزرعة

* قاصة تونسية

رأس التبن. إبن أخي.

كالآخرين إنحنى دهرا أمامي. قبّل ركبتي واستنشق رائحة قدمي. رفضت تسليمه المزرعة لأقدّمها هدية لأحد رجالي المخلصين ساعتها رفع هامته واستوى ظهره بعد أن تقوّس من الإنحناء ليتفل في وجهي بكلماته اللّقيطة : عصر اليقظة المباغتة. اللعنة على الأرذال. سحقا لهم في سباتهم ويقظتهم.

بصوت متذمّر حاد يعود يصرخ. تسرع الخادمة بوضع برّاد الشاي أمامه مع أطباق الفاكهة. توقفها النّظرات الشزراء وهي تحاول التقهقر إلى الخلف.

ـ لا تتحرّكي قبل أن آمرك بذلك.

أصابع نحيلة تمتد نحو الطبق وأسنان حادة تقضم التّفـاح بنهم يتحدّى العجز والشيخوخة. في الثلاثين من عمرها. رحلت نصف أسنانها وبدأ الوهن يزحف نحو البدن المتعب لكن هذا الشيخ لا يعرف التعب ولا الوهن وأسنانه المدبّبة مستعدة لنهش جثث شرذمة من الذئـاب. لو وجـدت السبيل لذلك. كلمات متقطعة تتبعثر هنا وهناك يخاطب نفسه مجترّا ذكرياته أم نفسه القلقة لا تفتأ تعاكسه بحكاياها التي لا تنتهي.

تتنفّس الخادمة الصّعداء وقافلة الأبناء تظهر طلائعها في طريقها إلى مجلس الجد لتأدية تحية الصّباح. تهرول هاربة والأبناء يتقدّمون.

بسمة صفراء كالحة تشرق فجأة ملامح الوجه النّحيل ويد معروقة، هزيلة تمتد تلقائيا لتنكبّ الشفاه فوقها تلثمها بخشية وخضوع.

الجسم الضّامر يتضخّم، يستطيل. يتعملق والهموم تنحني أمامه خاشعة ساجدة تكاد رؤوس أصحابها تلثم الثّرى مرتلة آيات الطاعة والتّقديس.

العصا الأبنوزية ترتفع لتقع فوق أوّل ظهر ما زال منحنيا والصوت الغاضب يصرخ :

ـ أليس لأحدكم ما يودّ قوله ؟

ببلاهة جزعة يبتسمون. تعود الشّفاه تلثم اليد الممدودة والكلمات تحتبس ثانية في الصدور لا تبدو منها غير همهمة ضالة لا تعي.

ـ ماذا يقع في الخفاء ؟ تتذمّرون سرّا بينما صغاركم يتطاولون عليّ جهرا، أهو عصيان أم حركة تمرّد جاحد ؟ ماذا جرى أيّها الغجر ؟ تكلّموا شحبت الوجوه واختلطت الأصوات ورقص الخوف في همهمة الإرتباك.

يتنفّس الجميع إرتياحا والشيخ يقهقه ساخرا من آثار الرعب المرتسمة على الوجوه. يرفع أصبعا مشيرا إلى مكان ما. يسارعون بمرافقته إلى الحديقة حيث يبدأ المجلس اليومي.

تقاطر أعيان القرية على المجلس كالعادة وغصّ بهم المكان. عادت الإشراقة للنفس المكلومة برؤية الرؤوس المنخفضة وعادت البسمة والهامات تنحني وتتفنن في الإنحناء.

تحت شجرة التّوت المترامية الأغصان يجلس ككلّ يوم. يحتسي الشّاي مع كل زائر يحقّق بالزيارة نفعا ومأربا، يحكي ويحكي ولا يملّ إعادة عنتريات شبابه الّتي لم يعد يصدّقها أحد وإن تظاهروا بالإصغاء والإعجاب.

نشوة الخضوع تسكر وبريق الأعوام الماضية يغمر بهوس الذكرى رأسه المطهّمة بجنون الآنا، تناحر الهرف وتداعي الواقع وأصبح الوهم حقيقة يصفّق لها المنافقون. شواربهم تكنس الأرض حول الشيخ المعتوه وألسنتهم تلحس الغبار تحت قدميه. يزدردون الهرف المعاد والخرافات المجترّة بتملّق سفاح.

تطاير حجر في الهواء ليستقرّ في حلبة المجلس. إختفى الطفل ولم يترك خلفه غير ضحكة ساخرة تفيض بالجرأة والتّحدّي.

صرخ ولعن لكن نشوة الهرف قد طارت وشيء كالزجاج السّميك قد انكسر في نفسه وبدأ يشكّه. ها هم الصّغار قد جاهروا بكفرهم بأمجاده وبطولاته الخرافية فإلى متى تتحمّل النفوس الخاضعة وزر الهرف المجتر؟

العصا ذات الرأس العاجيّ ترتفع في الهواء علامة الضيق والغضب. يسرع الجميع بالهروب والشيخ ينتصب واقفا لاعنا ساخطا: ثمانون سنة تصبح باطلا في غمضة عين أيّها الجاحدون لولاي لكنتم الآن في إسطبل تتمرّغون فوق البول والقش والقمل يرتع فوق رؤوسكم. أرأيتم مثل هذا الجحود؟

نظر حوله لم يجد أحدا. إزداد صراخه وعويله. سقط في مكانه خائر القوى ومازال يجتر الذكرى تلو الذكرى والماضي الحافل بالهرف لا يترك له منفذا للوعي.

في يوم ما. يوم عادي لكنّه لا يخلو من جرأة وتحوّل. يوم تملّص عنوة من قبضة الهذيان ليعلن عن إرادته فجأة بعد أن شارك الأيّام سباتها حقبة من الزمن.

إستيقظ الشيخ صباحا فإذا بوجه الصّباح العابس يتلفّع بالمجهول مبشرا بحوادث مريبة.

استيقظ ليجد نفسه وحيدا. لا أحد جاء لتأدية فروض الولاء والطاعة. لا من جاء لتقديم تحية الصباح. صرخ مناديا الخادمة. إنتظر لحظات وجسمه الهزيل يرتعش غضبا. صرخ ثانية لا من سمع النداء.

بعد ساعة جاء الابن الاصغر متعثرا لكنّ الغبطة بادية بعينيه.

- أين كنتم؟ ساعة أنتظر تعرفون أنّي لا أحب أن أتأخر عن مجلسي اليومي.

- أبي، حاول أن ترتاح. تعبت وهرمت لذا وجبت الراحة. دعك من القرية وأهاليها

- ماذا اسمع يا هذا؟ أنت تهذي

- اجتمع مجلس العائلة مع أعيان القرية وقرّروا أن يكون أخي الأكبر هو سيّد القرية والحاكم فيها. إنّه إبنك وتربية يدك.

- إخرس أيّها المعتوه، أنا شيخ القرية وسيّدها. لا رأي إلاّ رأيي ولا مشورة إلاّ مشورتي كيف أترك مكاني لغيري وأنا على قيد الحياة.

- أبي أنت من زمن لم تعد تحكم القرية بل أغرقتها في يم الهرف والهذيان.

- قلت إخرس أيّها الخائن. لن يأخذ مكاني أحد وأنا حيّ ولو كان إبني. أغرب عن وجهي عليكم اللعنة جميعا.

إندفع الابن خارج الغرفة ليجفّف العرق البارد الذي بدأ يغمر وجهه وأطرافه.

مع حركة المفتاح في القفل شعر الشيخ أنّ حدثا مرعبا قد حلّ وأنّه من اليوم سجين في هذه الغرفة. صرخ، هدّد. بكى مستعطفا. لكن لا شيء تغيّر. أهي حقّا اليقظة المباغتة أم هو الوعي الذّي ملّ جنون الهرف؟

عاد يسبح في مستنقع خرافاته التي لا يطيق العيش بدونها. لا أحد معه غير قطة هرمة راكعة تحت قدميه لا تكاد تتحرّك، تنظر إليه بعين فاترة تشوبها سخرية وأذن صاغية رغما حالمة بلحظة الانطلاق والهرب من الهرف الذي أمسى حقيقة، والحقيقة التي إغتالها رمس الهرف.

والشيخ ما زال يحكي ويحكي وكان تزركش أوهام الماضي بينمالم يكن تلهث حائرة خلف سراب المستقبل.

عنقود الكهرمان

كليزار أنور *

رنّ الجرس في ساعة متأخرة... رنينه يشرخ هدوء الليل... أصمتَ بإصغاء... يرن مرة أخرى... قلتُ لنفسي : من سيأتينا في هذه الساعة المتأخرة... تحركت بتمهل، فقد يكون ما أنا فيه مجرد تخيل... ويرن للمرة الثالثة... أوقظ زوجي الراقد بجانبي:

ـ خالد... خالد... أحدهم يدق جرس الدار.

ـ ليس هناك أحد... نامي!

غطى رأسه وعاد إلى نومه. ويرن من جديد... خرجتُ من الغرفة... أنرتُ ضوء الصالة... فمنطقتنا أمينة، ولا داعي لأي خوف... وفتحت الباب... امرأة ورجلان... المرأة سلمت عليّ أولاً وبعدها الرجلان... وبادرت السيدة :

ـ هل تسمحين أن ندخل؟

خجلتُ أن أقول لها : «من أنتم» وبشكل لا إرادي مددتُ يدي إلى الجهة اليمنى لأسمح لهم بالدخول، فقد يكونون أقارب زوجي!

ودخلت هي قبلهم... وبعدها الرجل الأول... انحنى نحوي بطريقة ودية، فحركتُ له رأسي بتودد ردا بسيطا على تحيته الجميلة... أما الثاني... مدّ كفه لمصافحتي... وترددتُ بعض الشيء قبل أن أمدّ له كفي.

جلس الرجلان في صدر الصالة والمرأة وقفت إلى جانبي لتجلس حيث أجلس... فقلتُ بكرم : أهلا وسهلا.

وبعد تردّد لم أستطع إخفاؤه أو تبريره :

ـ لأوقظ لكم خالدا.

فردت السيدة بطيبة :

ـ لا تقلقيه، فنحن زوارك.

بنظرة تحمل الشك والتساؤل معا تطلعت إليها... وشعرتُ بنوع من الخوف... إذن، هم ليسوا أقاربه كما ظننت... يا ربي... ماذا يريدون مني في هذا الليل؟... ومن يكونون؟... فأنا لم أفعل شيئا!

نهضت لأقوم بواجب الضيافة على الأقل... فدعتني السيدة للجلوس! بدأت أنفاسي تضيق وأحسستُ بانقباض مرعب... اضطربت عندما حدقتُ في عينيها... وربما توقف القلب عن النبض في تلك اللحظة... وقفتُ مدهوشة وكأني نسيت كل شيء!

عيناها تلمع ببريق أحمر... شعرتْ بخوفي فقالت بهدوء:

ـ نعلم إنه وقت متأخر، لكننا لا نستطيع أن نزورك في النهار.

الخوف تشعب إلى كل جسمي بقشعريرة برد... وبومضة رأيت قافلة من صور الجان تعبر مخيلتي، لكن تبادر إلى ذهني في الحال ـ كما قرأنا عنهم ـ ان الجن ليسوا كالبشر... نظرتُ إلى الرجلين... عيناهما تلمع بنفس البريق... تمالكتُ نفسي بعض الشيء ورديت بصوت خافت يكاد يسمع :

ـ بماذا أستطيع أن أخدمكم ؟

رفع إليّ ـ الرجل الذي حياني ـ وجهه... وقال :

ـ في الحقيقة نحن قصدناكِ في خدمة... ولأننا نعرف طبيعة مجتمعكم، فقد جلبنا معنا امرأة لكي تطمئني... لكي تسمحي لنا بالدخول.

لم أستوعب ما كان يقوله من الرعب الذي سيطر عليّ... فقاطعته :

ـ اسمح لي... من أنتم؟... وماذا تريدون مني؟

نهض الرجل وتقدم باتجاهي وجلس بجانبي :

* قاصة من العراق.

ـ اطمئني، فقد قصدناكِ بخير.

لم أجب مؤثرةُ الصمت... وأكمل بعدما شعر بأنه استطاع أن يهدئني.

ـ سيدتي... أنتِ كاتبة راقية جدا بنظرنا... وكنا نقرأ ونتابع في مجلة «اليوم» روايتك «عنقود الكهرمان» وكما تعلمين نشرتِ الجزء الأول فقط... والثاني لم يكمل... لماذا؟

ـ أجئتم في هذا الليل لتسألوني هذا السؤال؟

ـ نحنُ لسنا من الأرض.

حين قالها أردتُ أن أصرخ. دقات قلبي تزداد وترتفع... تقرع في رأسي كناقوس كنيسة قديمة... ترتجف يداي... ويجف فمي.

انصرفت عيناه عني بعد أن كان يحدق فيَّ مليا... اقتربت السيدة أكثر مني... وأحسستُ بملامسة فخذها لفخذيَ... ووضعت يدها على كتفي:

ـ أرجوكِ... اهدئي... واطمئني... لسنا هنا لنضرك... بل بالعكس.

فجاوبت بحدة:

ـ بكل بساطة... المجلة أغلقت!

فردّ الرجل الثاني من مكانه:

ـ والجزء الثاني موجود لديكِ؟

ـ بالتأكيد.

ـ زيارتنا من أجل هذا.

وتقدم هو أيضا... ووقف أمامي فقلت:

ـ وضحوا لي أكثر؟

ـ ما نشرته هنا كان يُنقل إلى مجلة أخرى لدينا... وأنا رئيس تحريرها.

قاطعته بابتسامة:

ـ وهل تنشرونها بالعربية؟

فابتسم لابتسامتي:

ـ لا... بلغتنا!

وجدتُ نفسي عاجزة عن التعبير بصدق عما أشعر به وأريد قوله... شعرتُ أن عيني اغرورقت من شدة التأثر لهذا الفرح المفاجئ!... وذلك الخوف المرعب تبدد إلى فخر وزهو لا يوصف... فأكمل:

ـ لدينا مندوبون في الأرض، وهم يقومون بترجمة الأعمال الجيدة... وروايتك لاقت الاستحسان لدينا... وبعد أن انقطعت توقفنا نحن أيضا عن تكملتها... والغريب... وصلتنا رسائل كثيرة ـ بالآلاف ـ تطلب الجزء الثاني... ولم ندر ماذا نفعل؟!

ـ أتعرفون... مر على انقطاعها أكثر من سنة... ولم يسأل عنها أحد هنا.

ـ إنها رواية من طراز خاص!

أحسستُ بالاشراق ينبع من أعماقي... فنهضت... ودخلتُ غرفة المكتب... وأخرجتُ من الدرج الجزء الثاني والثالث من روايتي «عنقود الكهرمان»... وضعتها في ظرف أبيض كبير... وكتبتُ عليه بخط واضح: «إلى قرائي أينما كانوا»!

قدمتها للسيد فابتسم حين قرأ تلك العبارة على الظرف.

وصافحني بقوة هذه المرة... وسألني:

ـ كم تطلبين؟ قولي ما شئت وسيكون لديك؟

ـ لا شيء... انها هديتي لقراء غرباء يسألون عني.

فتقدمت السيدة نحوي... وأخرجت علبة حمراء من جيبها... علبة ما رأيت بجمالها وتصميمها البارع:

ـ هدية متواضعة جدا لك.

وضعتها على الطاولة القريبة منها... صافحوني... وخرجوا وبقيتُ أنتظر لأعرف كيف سيغادرون!... ابتسمت... وابتسامتها لم تظهر سوى في عينيها... لم تُغير تعابير وجهها... فقط إضاءتها... وكأن نورا نبع من داخلها فأضاء وجهها... وقالت:

ـ أرجوك... اغلقي الباب.

قبلتُ رجاءها وعدتُ إلى الصالة... فتحتُ العلبة، فتلألأ ما بداخلها وسطع أمام عيني... سحبتُ السلسلة فتدلى منها «عنقود من الكهرمان»!

قصص قصيرة جـــدا

منتصر عبد القادر الغضنفري *

الحلم

شرع في تنفيذِ مشروعه الكبير، ولما تذكّر أنه لم يحلم به قبل قرّر أن يتوقف... ولست أدري إن كان توقف نهائيا أم أنه سيعاود الكرّة بعد أن يعيش الحلم.

مروحة

انتبهتْ أخيرا إلى أنها منذ بدأت الحركة كانت تدور حول نفسها، بل إنه دوران في اتجاه واحد، ومهما تغيّرت السرع... تساءلت بأسى : ترى هل سأتمكن يوما من تغيير حركتي... ولو دورانا في الاتجاه المعاكس؟

ليلى وقيس

في خلوةٍ كسواها قالت : ليتنا كنا نملك جرأة إساف ونائلة.

بوغت : كيف تجرئين على قول ذلك!؟

ردّت بغير اكتراث : ولم لا ؟!

تساءلَ مأخوذا : وعفّتنا؟ وعذرية حبّنا؟

أجابته بحدة : إلى متى تداري عجزك بالعفة، وضعفك بالعذرية؟

ذُهل... سمعنا فيما بعد أنه، وبينما كان يهيم في الطرقات، صدمته سيارة فسقط صريعا. أما هي فقد ذوى ألقُها لأنها أدمنت التنقل من حضن إلى حضن... وما زالت...

المرآة

تطلّعت إلى المرآة، ذات صدفة، ولكن... لم أرني، حدّقت فيها... لم ألمحني. استمتُّ في البحث عن انعكاس صورتي فيها... لم أجدني. بكيت، أين أنا؟!... ثم قلت : لعل العيب في المرآة.

سندريلا

دقّت الساعة معلنة أن موعد مغادرتها قد أزف... استلّت نفسها من بين يدي الأمير في غمرة انتشائه بالرقص معها... هربتْ... صعقته المفاجأة، حتى انه لم يحاول اللحاق بها. وبعد أن أفاق اكتشف أن فردة من حذائها قد أفلتت منها... أصدر أوامره بالبحث عنها استدلالا بحجم حذائها، فلن يستقرّ إلا في قدمها هي صاحبته... ملأ رجاله أرجاء المدينة

* قاصّ عراقي

في لمح البصر... وبعد دقيقات عثروا عليها... أتوه بها... قهقه عاليا... وأمر بقطع قدمها اليمنى... ثم اليسرى، فهي الوحيدة التي جرُأتْ ـ وإن بغير قصد ـ على إهانته حين تركته من غير استئذان.

مسـرور

خلا إلى نفسه... فكّر... أجهش بالبكاء...

ـ ما هذا! أمسرور السيّاف، رمز البطش والإرهاب... يبكي!؟

ـ إن مثل هذا الكلام هو ما يبكي، فأنتم قد تناسيتم أنني كنت أنفذ إرادة السلطان فحسب.

ـ ولماذا أنت تحديدا ؟

ـ لو لم أكن أنا لكان ثمة ألف مسرور غيري.

ـ إن هذا لا يشفع لك.

ـ ثم إنني كنت أطمع في حياة مترفة مزدانة بالتسلّط، بعد ذلّ وعوز.

ـ إنه تسويغ غير مقبول.

... وعلى الرغم من ذلك فقد رفض رفضا قاطعا أن يصرّح بشعوره بالذنب أو الندم ... ولو بعد آجال.

نهـايـة

بدأ بكتابة قصة... لم يستطع أن ينهيها... تركها حتى يتأمل فيها ويفكّر، ثم يختار لها نهاية مناسبة... بعد أحداث عاد إليها، فوجئ أنها قد وضعتْ نهاية لنفسها.



الرسام هادي زاوية : رجل وفضاء

فرج الحوار

أمّا هو فقد درج في مسالك الأيّام خفيفا، رهيف الحسّ، متيّقظ الإلهام، يتملّى طفولته في مهرجان الألوان والأشكال والأخلاط والزّوايا، تضجّ بها الأزقة الضيّقة الظليلة المتربة، والسّواقي تسعى فيها المياه داكنة كسلى.

.كان الطّفل يتطلّع في كلّ ذلك بعين فاحصة شرهة، ويختزن ذهنه تلك المشاهد النّابضة بجزئياتها ودقائقها وتعرّجاتها المعقدّة الشّائكة.

ويظلّ الفتى مبهورا أمام أعاجيب الهندسة.

كان وجها بين كوكبة من الوجوه الأخرى، في عهد لم تكن للأسماء فيه طلاوة الحداثة فهي لم تخرج بعد عن دائرة الهداية والفرج والنّجابة والصّلاح والإنصاف والسّلامة والسّلام والمعرفة، كمثل الرّضيع، تحبو في صرحها الأوّل، ذلك الذي أنهضته همّة رجل كرّس جهده وعمره لانتشال النّاشئة من براثن الأميّة والبؤس.

هنالك، في القلب من القرية، وغير بعيد عن "الرّحبة" التي يتصدّرها مقهى، يذكر الطّفل أنّه كان رائعة من روائع التزويق آنذاك ـ على سذاجة تصميمه وبساطة ألوانه ـ دأب الهادي مع البعض من أترابه على التّسكع بحواسّهم جميعا في أدغال هذا العمران الأخّاذ، في نفس الوقت تقريبا الذي أخذ المعول يتهدّده بالفنا ليقيم على أنقاضه للحداثة مقاما.

وصمّم المعول وزحف على قلب القرية فأصماه.

وكان بالإمكان أن يكون انتصار الفناء ساحقا باتّا، وكان بالإمكان أن يعصف المعول بكلّ مرافئ الطّفولة الدّافئة فيعدمها متتّبعا حتى ما رسب من ذكراها في الأفئدة والأذهان. وكان بالإمكان أن ينتصر الفناء لولا ذلك النّهم في عين الطّفل وأترابه المقرّبين ؛ وذلك الحرص فيهم على اختزان جوهر الأشياء واختزال الفضاء المنهار في باقة من الأشكال والحروف.

وتقلّبت الأيّام بالطّفل فلم ينتبه لنفسه إلاّ وهو على أعتاب الرّجولة، وإذا شرهه القديم فيه قائم أبدا يطارد في ما حواليه نبض الأشكال المصطخبة، ثمّ يبثّها في ذراعه إلهاما جبّارا، فتذعن الذّراع لإرادة الإلهام وتسكب في الألوان ولهها بالكمال : توق جارف إلى مطلق الجمال، وإقبال نهم على الحياة.

وهل الحياة إلاّ الجمال ؟

لذلك ربّما سخّر الهادي الزّاوية حياته لخدمة الجمال، يبثّه في الفضاء عمرانا وزخرفا، ويقيمه في القماشة أشكالا وألوانا مترفة.

ولأنّ الهادي من مجانين الجمال وعبّاده، فقد حرص أن يكون وفاؤه للفضاء ـ الذي احتضنه وشحذ شهيّته للألوان وسحرها والأشكال وجاذبيّتها ـ في شكل باقة من باقات الجمال، أصبحت منذ فرغت منها ريشته شعارا لهذه "القرية ـ المدينة" التيّ لم تنفكّ تتملّى وجهها في مرآة البحر.

وستظلّ هديّة الهادي شعارا لبلدته تلك ورمزا جميلا.

معمارية الفضاء وأمكنة الذاكرة

عثمان بن طالب

منذ أن فتح الرسام عينيه على بهاء الكون، كانت روحه منقوعة في الرؤى بألوانها ونورها الروحاني. ألم يكن البصر، منذ لحظة النشأة الأولى، مثل النخلة في كبريائها، نابعا من عروق الدهشة ومغرقا في القمم العلوية اللامتناهية ؟

هذا هو السر الذي حاولت فهمه منذ سنوات وأنا أكتشف عالم الرسّام هادي زاوية وأتجوّل بين منعرجاته. هو الإنسان يستوقفك بنظره الحاد وابتسامته المحتشمة، حقل مغناطيسي ومزيج من الحياء الطبيعي والسخاء التلقائي. بين رقة الحديث وحديث الصمت، يقول لك أن الطفل يسكن معه في عالم الدهشة والصور. أليست الطفولة هي التي تقربنا أكثر من المعنى العميق للحياة ؟ هكذا قال إليار حقيقة رامبو وتحمس لها. هكذا يتغذّى الهادي زاوية من شعرية الحياة ونسغ الطفولة، من محبة الأرض والناس وضفاف العشق المتجدّد في إطلالة كل فجر.

هو الإنسان فيه يتحدّى هندسة الفضاء وفكرة الزمن : ما بين هذين البعدين للوعي الوجودي بالحياة، نصب خيمة الابداع للتصور والصور، للأشكال والألوان، للفرح والحزن. هذه الإقامة الهشة، مثل الكيان، هي بعد ثالث للحلم. هذه الأمكنة التي تسكننا ونريد أن نسكنها ونسكن هواجسنا فيها، هذا البياض المسكون بالاحتمالات يجعل منه الرسام مناطق للحرية المبدعة، يطوّعها بالخيال والإرادة إلى وهج ملتهب للحلم الخلاق، للأحاسيس الصامتة في مخاض احتفالي مع التيه والسفر والنشوة.

هذا بصري يتحوّل متوجّسا بين مشاهد الكيان والكون. لوحات أو صفحات للاعتراف، أبجدية ناطقة بالعالم الداخلي لرسام إنسان يبدع بحسّه ورؤاه خارج الأسوار الأكاديمية والأنماط الجاهزة. في كل لوحة، ألتقي مع السرّ والدهشة، تساورني فكرة هاربة وتعتريني رعشة خفية بين الظلال والأبعاد.

أقرأ في أبجدية الألوان شعرية الأرض والحياة اليومية بما فيها من معنى ومعاناة، من بساطة وتعقيد... هذه بوابات خلفية مشرعة على التعدد والاختلاف... هذا الخيال كأنه مسرحة درامية للذاكرة الحيّة، شريط للوقائع والحركات الصامتة - هذه ذاكرة الأرض والمدينة والقرية

والبحر... ذاكرة الأمكنة تتحاور مع أمكنة الذاكرة.

يتحوّل البصر في أبعاد الذاكرة وما يؤثثها من شخوص وعلامات تكاد تنطق بلحظة وجودها لتستعيد الحركة، كأنها تولد من لقاء خاطف بين الرؤية ومرجعية الحياة فتتحوّل إلى «لحظة أبدية».

هذه منعطفات الهوية المتعدّدة والمنفتحة على الأزمنة، تحكي بلغة الشكل واللون قصتها والآن وهنا في هذه الأرض الطيبة، قصة ولادة الرسام وطفولته وسلالته العربية المتوسطية... العالم يبدأ هنا، و"هنا" هو الموطن، موطني وشمسي وعلامتي الأولى. قد يكون بابا أو نافذة أو شارعا أو رصيفا.. وقد يتجسد في مئذنة أو بدوية تلبس بكبرياء رموزها التقليدية... كل المشاهد والنوافذ تفتح على حمام سوسة أو على بوابات البحر المتوسط غربا أو شرقا، شمالا أو جنوبا - هذا الأزرق المتوهج بالأزدورد يحكي قصة الضفاف الموصولة، يخرج من بصر الرسام كأنه الحلم ينساب أطيافا راقصة من رحم الليل...

هادي لا يريد الانغلاق وراء مدرسة أكاديمية أو اتجاه معين باسم الصفائية والتنظير أو النخبوية.. هو يجعل من هندسة الفضاء رسوما ناطقة ومن الألوان هندسة تغور في الهوامش وأعماق الذات.. هذا المهندس المعماري المتخصص في تأثيث الفضاء بروح التناسق والجمال يبحث عن المعنى في الفراغ... يتحاور مع الفراغ بلغة الحواس ولا يخضع للتقنيات الشكلانيّة المنمطة.

تتعدد هذه اللغة التشكيلية، حسب الحالات والأيام، في أبعاد واقعية أو رمزية أو حتى سريالية متحرّرة من المرجعيات المكبلة للذات..

هذه فكرة مستقبلية للحداثة التشكيلية تعطي للدهشة والفضول والطفولة بعدا عميقا ينفتح على كونية الانسان وأنسنة الأشياء لتصبح فضاء لإقامة الإنسان بالرمز والصورة.

إقامة مجازية تتأسس بشعرية الحواس وجموح البصر إلى الأجمل والأفضل والأشمل... ثلاثية الجمال والفضيلة والحقيقة..

في حوارية الأساليب والمواضيع ثراء للمعنى والحياة... مشهد التحولات والترحال والكشف عن مجاهل الروح... هذا الخالق يبث روحه في مخلوقاته في فضاء مفتوح على الاحتمالات.. فضاء للحياة والتسامح والاختلاف.

الهادي زاوية يقول أن الرسم يبقى هواية في نطاق طقوس العشق اليومية... إنه يكره أن يقال عنه أنه "محترف".. ولكن ... لو سألناه : لماذا ترسم؟ هل تبحث عن شيء؟... لعله سيجيب : أنا أرسم للبحث عن ملجأ للذات من عنف الواقع وفجائع الكون... أو لعله سيقول : أنا أبحث عن معنى المغامرة أمام فراغ اللوحة وبياضها الناصع... أو أنني أرسم لأختصر الزمن...

الجمهوريـــة التونسيـــة
وزارة العدل
المحكمـــة العقاريـــة
المسـح العقـــاري

بـــــلاغ

عملا بالفصل 6 من المرسوم 64/3 المؤرخ في 1964/02/20 ليكن في علم العموم أن القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة التالية : العذارى حرف "K" والواقع مسحها تنفيذا لاحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية دوز ومحكمة ناحية دوز ـ الفوار.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

والســـــلام

رئيس المحكمة العقارية

الجمهوريـــة التونسيـــة
وزارة العدل
المحكمـــة العقاريـــة
المسـح العقـــاري

بـــــلاغ

عملا بالفصل 6 من المرسوم 64/3 المؤرخ في 1964/02/20 ليكن في علم العموم أن القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة التالية : العذارى حرف "I" والواقع مسحها تنفيذا لاحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية دوز ومحكمة ناحية دوز ـ الفوار.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

والســـــلام

رئيس المحكمة العقارية

الجمهوريـــة التونسيـــة
وزارة العدل
المحكمـــة العقاريـــة
المســح العقـــاري

بـــــلاغ

عملا بالفصل 6 من المرسوم 64/3 المؤرخ في 1964/02/20 ليكن في علم العموم أن القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة التالية : اولاد نهار حرف "C" والواقع مسحها تنفيذا لاحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية القيروان الجنوبية ومحكمة ناحية القيروان.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

والســـــلام

رئيس المحكمة العقارية

الجمهوريـــة التونسيـــة
وزارة العدل
المحكمـــة العقاريـــة
المســح العقـــاري

بـــــلاغ

عملا بالفصل 6 من المرسوم 64/3 المؤرخ في 1964/02/20 ليكن في علم العموم أن القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة التالية : العذارى حرف "G" والواقع مسحها تنفيذا لاحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية دوز ومحكمة ناحية دوز - الفوار.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

والســـــلام

رئيس المحكمة العقارية

الجمهوريـــة التونسيـــة
وزارة العدل
المحكمـــة العقاريـــة
المســح العقـــاري

بـــــلاغ

عملا بالفصل 6 من المرسوم 64/3 المؤرخ في 1964/02/20 ليكن في علم العموم أن القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة التالية : المخصومة حرف "A" والواقع مسحها تنفيذا لاحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية القيروان الجنوبية ومحكمة ناحية القيروان.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

والســـــــلام

رئيس المحكمة العقارية

الجمهوريـــة التونسيـــة
وزارة العدل
المحكمـــة العقاريـــة
المســح العقـــاري

بـــــلاغ

عملا بالفصل 6 من المرسوم 64/3 المؤرخ في 1964/02/20 ليكن في علم العموم أن القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة التالية : عزرة حرف "E" والواقع مسحها تنفيذا لاحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية باجة الشمالية ومحكمة ناحية باجة.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

والســـــــلام

رئيس المحكمة العقارية

الجمهوريـــة التونسيـــة
وزارة العدل
المحكمـــة العقاريـــة بالقصريـــن

بـــــــلاغ

عملا بأحكام الفصل 6 من المرسوم عدد 3 لسنة 1964 المؤرخ في 1964/02/20 المتعلّق بالتسجيل الاجباري ليكن في علم العموم أن القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف "G" مجموعة أولاد مساهل من عمادة عين الخمايسية - معتمدية سبيبة - ولاية القصرين. والواقع مسحها تنفيذا لاحكام المرسوم المشار اليه أنفا وضعت بكل من مركز ناحية سبيبة ومعتمديتها.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات العامة للقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة أو المعتمدية في أجل لا يتجاوز الشهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

والســـــلام

وكيل الرئيس بالفرع

الجمهوريـــة التونسيـــة
وزارة العدل
المحكمـــة العقاريـــة بالقصريـــن

بـــــــلاغ

عملا بأحكام الفصل 6 من المرسوم عدد 3 لسنة 1964 المؤرخ في 1964/02/20 المتعلّق بالتسجيل الاجباري ليكن في علم العموم أن القائمات العامة للعقارات التابعة لمنطقة حرف "H" مجموعة أولاد مساهل من عمادة عين الخمايسية - معتمدية سبيبة - ولاية القصرين. والواقع مسحها تنفيذا لاحكام المرسوم المشار اليه أنفا وضعت بكل من مركز ناحية سبيبة ومعتمديتها.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات العامة للقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة أو المعتمدية في أجل لا يتجاوز الشهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

والســـــلام

وكيل الرئيس بالفرع

مجلة المسار يصدرها اتحاد الكتاب التونسيين، أسسها محمد العروسي المطوي

الحساب البنكي : 78861 7 . 081765 . 000 000 10

الشركة التونسية للبنك ـ 1 شارع الحبيب ثامر 1001 تونس

ـ سعر المجلة : ديناران أو ما يعادلهما للأفراد

3 دنانير للمؤسسات

ـ الإشتراك السنوي : 15 دينارا (مع اضافة معلوم البريد)

ـ الإشتراكات التشجيعية مفتوحة

ـ في البلاد العربية 20 دولارا، في البلاد الأخرى 30 دولارا...

لوحة الغلاف للفنان التونسي الهادي زاوية

مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس